

جَوْدَةُ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ

آفاقٌ جَدِيدَةٌ لِتَعْلِيمِ مُعَاَصِرِ

الْعَقْلُ

التَّفْكِيرُ النَّقْدِيُّ

الْعِلْمُ

الْعِلْمُ

الطَّائِبُ

المَادَّةُ الْعِلْمِيَّةُ

المُؤَسَّسَةُ التَّعْلِيمِيَّةُ

جَوْدَةُ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ
أَفَاقُ جَدِيدَةِ التَّعْلِيمِ مُعَاوِرِ

جَوْدَةٌ

الْعَمَلِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ

آفَاقُ جَدِيدَةٌ لِتَعْلِيمِ مُعَاصِرِ

* الْعَقْلُ * التَّفْكِيرُ النَّقْدِيُّ * الْعِلْمُ * الْمَعْلَمُ * الطَّالِبُ

* الْمَادَّةُ الْعِلْمِيَّةُ * الْمَوْسَسَةُ التَّعْلِيمِيَّةُ

د. أَحْمَدُ مُصْطَفَى حَلِيمَةَ

أستاذ مشارك بكلية الآداب

جامعة الملك فيصل



جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عن أي طريق، سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل، أم بخلاف ذلك دون الحصول على إذن المؤلف و الناشر الخطي وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

الطبعة الأولى

2014-2015م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/8/2775)

371.2

حليمة، أحمد مصطفى

جودة العلمية التعليمية آفاق جديدة لتعليم معاصر / أحمد مصطفى حليمة

- عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2013

() ص.

ر. (2013/8/2775).

الواصفات: //التعليم// التربية// الإدارة

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-02-526-7 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.

Telefax: 5349497 - 5349499

P.O.Box: 1758 Code 11941

Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

تليفكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

ص. ب. ١٧٥٨ قريز ١١٩٤١

عمان - الأردن

www.majdalawibooks.com

E-mail: customer@majdalawibooks.com

• الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار الناشرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى

فلذة كبدي ولدي عبد الرحمن...

وقرة عيني ولدي مصطفى...

ومُهجة فؤادي ابنتي جودي...

وإلى حبيبتي زوجتي الغالية....

المحتويات

الصفحة	الموضوع
19	المقدمة
	الفصل الأول
29	العقل والعلم
31	■ الواقع الحالي
32	■ العقل وماهيته
34	■ محل العقل
36	■ فضل العقل
40	■ العاقل وسماته
43	■ الأحق وصفاته
47	■ العقل ودوره في كسب العلم
49	■ العقل والتفكير النقدي
55	أ- تعريف التفكير النقدي
56	ب- خصائص المفكر الناقد
57	1- التواضع الفكري
57	2- الشجاعة الفكرية
57	3- التقصص الفكري
58	4- الأمانة الفكرية
58	5- الصبر والمصابرة الفكرية
58	6- العقلانية الفكرية
59	7- الاستقلال الفكري
60	ج- مراحل التفكير النقدي

63	د- عناصر الفكر والتفكير التقدي
64	1- الغرض
65	2- المشكلة
65	3- المعلومات
66	4- المفاهيم
66	5- الافتراضات
67	6- الاستنتاجات
67	7- التداعيات
68	8- وجهات النظر
69	هـ- معايير التفكير التقدي
70	1- الوضوح
70	2- الصحة
71	3- الدقة
72	4- وثاقعة الصلة بالموضوع
72	5- العمق
73	6- الاتساع
74	7- المنطق
75	8- الأهمية
75	9- عدم الانحياز
76	■ العلم وسماته
84	■ تعريف العلم
88	■ حكم طلب العلم
90	أولاً: المعرفة المقرولة
91	ثانياً: المعرفة الراجعة
92	■ فضل العلم

92	أولاً: فضل العلم في نصوص القرآن الكريم
95	ثانياً: فضل العلم في نصوص السنة المطهرة
100	ثالثاً: فضل العلم في أقوال الصُحابة الكرام، والسلف الصالح
109	رابعاً: فضل العلم في أقوال بعض المتأخرين من الكتّاب والأدباء والشعراء

الفصل الثاني

113	المُعَلِّم ودوره في العملية التعليمية
115	■ الواقع الحالي
117	■ تسميات وتعريف
117	أولاً: المُعَلِّم
118	ثانياً: المُعيد
119	ثالثاً: المحاضر Lecturer
120	رابعاً: الاستاذ الجامعي Professor
120	خامساً: المشرف Supervisor
121	سادساً: المؤدِّبُ
122	سابعاً: الشَّيخ
125	ثامناً: العَالِمُ
125	أ- للمعيار الشرعيّ
126	ب- المعيار العلميّ
127	ت- المعيار العمليّ
129	■ المُعَلِّم ومكانته في الإسلام
131	أولاً: وضع المُعَلِّم الدِّينيّ
133	ثانياً: وضع المُعَلِّم العلميّ والتَّربويّ
134	ثالثاً: وضع المُعَلِّم الاجتماعيّ
136	رابعاً: وضع المُعَلِّم الماليّ
137	خامساً: وضع المُعَلِّم السياسيّ

- 138 ■ صفات المُعَلِّمِ العاقلِ النَّاجِحِ
- 138 أولاً: الإخلاص
- 140 ثانياً: التحلي بمكارم الأخلاق
- 140 أ- الحمد والشكر
- 142 ب- الصبر والتواضع
- 143 ج- الصدق والعدل
- 145 د- الحلم والرأفة
- 146 هـ- الزُّهْدُ والعِفَّةُ
- 148 ثالثاً: التحلي بالعلم كمأ ونوعاً
- 149 رابعاً: التحلي بالأمانة العلمية
- 150 خامساً: القدرة على نشر العلم النافع
- 151 سادساً: القدرة على إدارة الفصل وضبط الطلاب
- 154 سابِعاً: استمرارية التَّعَلُّمِ وكَسْبِ العلم والمعرفة
- 156 ثامناً: حسن المظهر وأناقته الملبس
- 158 تاسعاً: إقبال المُعَلِّمِ وبشاشة هيئته
- 161 ■ دور المعلم في العملية التَّعْلِيمِيَّةِ
- 162 أولاً: الدَّورُ التَّعْلِيمِيّ
- 163 ثانياً: الدَّورُ الإداري
- 164 ثالثاً: الدَّورُ التربوي
- 165 رابعاً: الدَّورُ النفسي
- 167 ■ دور معتقدات المُعَلِّمِ في العملية التَّعْلِيمِيَّةِ
- 170 1- معتقداته الدِّينيَّةِ
- 170 2- معتقداته النَّقَائِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ
- 170 3- معتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة
- 171 4- معتقداته حول دور العلم والمعرفة في التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ

171	5- معتقداته حول طبيعة التَّعليم
171	6- معتقداته حول طبيعة التَّعلم
173	■ المُعلِّم والأساليب التَّعليمية
175	أولاً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالفعل والعمل
177	ثانياً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالتدرج
179	ثالثاً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ الفردي
180	رابعاً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالمسألة وليس بالتلقين
182	خامساً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالمناقشة والحوار
184	سادساً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالمقايسة والمشاہة
185	سابعاً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالبحث والاستكشاف
187	ثامناً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ القصصي
189	تاسعاً: أُسْلُوبُ التَّعليمِ "بالطالب المدرس"
191	عاشرًا: أُسْلُوبُ التَّعليمِ باستخدام وسائل التَّعليمِ الإيضاحية
192	حادي عشر: أُسْلُوبُ التَّعليمِ والترغيب والترهيب في التَّعليمِ
196	ثاني عشر: أُسْلُوبُ التَّعليمِ بالكتابة وتدوين الملاحظات
199	ثالث عشر: أساليب تعليمية أخرى
199	رابع عشر: أُسْلُوبُ التَّعليمِ "الانعكاسي" البريطاني
202	خامس عشر: أساليب تعليم اللغة الإنجليزية
202	■ أهمية تعليم وتعلم لغة أجنبية
203	■ أهمية تعليم وتعلم اللغة الإنجليزية
205	■ أساليب تعليم اللغة الإنجليزية
205	1- أُسْلُوبُ استخدام القواعد والترجمة The Grammar-Translation Method
206	2- أُسْلُوبُ التَّعليمِ "المباشر" The Direct Method
207	3- أُسْلُوبُ التَّعليمِ "الشفوي" The Oral Approach
207	4- أُسْلُوبُ التَّعليمِ "السمعي اللغوي" The Audiolingual Method

- 208 5- أسلوبُ التَّعْلِيمِ "الصريح الوظيفي" Communicative Approach
- 211 ■ خلاصة

الفصل الثالث

- 213 الطالب ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّة
- 215 ■ الواقع الحالي
- 217 ■ مكانة طالب العلم في الإسلام
- 226 ■ الطَّالِبُ ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّة
- 231 ■ الواقع الحالي لَعَمَلِيَّةِ التَّعْلُمِ عند الطالب العربي
- 237 ■ صفات طالب العلم النَّاجِح
- 238 أولاً: أخلاق طالب العلم وأدبه
- 242 ثانياً: الإخلاص في طلب العلم
- 245 ثالثاً: الصَّبْرُ والجَلادة في طلب العلم
- 252 رابعاً: التواضع في طلب العلم
- 255 خامساً: الرغبة والترحال في طلب العلم
- 260 سادساً: التحلي بالجديَّة في طلب العلم
- 263 سابِعاً: التَّأكُّدُ مِمَّنْ يُؤْخِذُ العلم
- 265 ثامناً: كراهة الاستحياء في طلب العلم
- 267 تاسعاً: اللَّبَاقَةُ والكِيامَةُ في طلب العلم
- 269 ■ الطَّرِيقَةُ الإِسْلَامِيَّةُ لِتَحْصِيلِ العلم النَّافِعِ
- 270 أولاً: الجانب الروحي
- 270 أ) النية والإخلاص في طلب العلم
- 271 ب) تقوى الله وطاعته والابتعاد عن المعاصي في طلب العلم
- 272 ج) الدعاء والتوسُّلُ إلى الله تعالى في طلب العلم
- 273 د) الذِّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ وَدَوْرُهُمَا فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ
- 275 ثانياً: الجانبُ العقليُّ

276	أ- مولدات الدفاعية غرضية/ متكاملة في طلب العلم
277	ب- آلية الكشف والاستكشاف في طلب العلم
278	ت- آلية الفكر والتفكير التقديري في طلب العلم
279	ثالثاً: الجانب العملي
280	أ- نشاطات دراسية
281	ب- مُدَاكِرَة فردية أو جماعية
283	ت- نشاطات تطبيقية
284	■ اختلاف أساليب تحصيل العلم لدى طلاب العلم

الفصل الرابع

289	المادة العلمية وجودها
291	■ الواقع الحالي
296	■ أهم مصادرها الثلقية
298	كتاب الله عز وجل
299	سنة الرسول ﷺ
301	آثار الصحابة رضوان الله عليهم
303	آثار التابعين والسلف الصالح
304	آراء وجهادات العلماء الصالحين
305	■ تعريف المنهاج الدراسي والمادة العلمية
305	تعريف المنهاج الدراسي
307	تعريف المادة العلمية
308	■ مكانة المادة العلمية ودورها
308	■ مكانة المادة العلمية
312	■ دور المادة العلمية
314	■ مقومات جودة المادة العلمية

- 315 ■ جودة الخصائص الشكلية للمادة العلمية
- 315 أ- استخدام السبورة
- 316 ب- استخدام برنامج "البوربوينت" Powerpoint
- 318 ت- استخدام النشرات التعليمية "Handouts"
- 319 ث- استخدام الكتاب
- 321 ج- استخدام مواقع الإنترنت
- 322 ■ جودة الخصائص الضمنية للمادة العلمية
- 322 أ- المحتوى والمادة العلمية أو المساق العلمي
- 325 ب- المحتوى والمعلم
- 327 ت- المحتوى والطالب
- 328 ث- المحتوى وإدارة المؤسسة التعليمية
- 329 ■ خلاصة

الفصل الخامس

- 333 المؤسسة التعليمية ودورها في العملية التعليمية
- 338 ■ الواقع الحالي
- 340 ■ مفهوم المؤسسة التعليمية
- 340 1- تعريف المؤسسة التعليمية
- 341 2- مهمة المؤسسة التعليمية
- 342 ■ مقومات جودة خصائص المؤسسة التعليمية
- 343 - خصائص شكلية خارجية
- 344 - خصائص شكلية داخلية
- 347 ■ مقومات جودة إدارة المؤسسة التعليمية
- 348 ■ تعريف إدارة المؤسسة التعليمية
- 348 ■ صفات مدير المؤسسة التعليمية الناجح

- 349 أ- صفات شخصية أخلاقية
- 350 ب- صفات أكاديمية ومهنية
- 351 ■ دور مدير المؤسسة التعليمية الناجح
- 352 ■ مهام مدير المؤسسة التعليمية الناجح
- 353 أ- مهام قيادية
- 354 ب- مهام منتظمة
- 355 ت- مهام أكاديمية
- 357 ث- مهام مجتمعية
- 359 ■ خلاصة

- 361 ■ أهم المراجع والمصادر المعتمدة في الكتاب

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَكَمَا تَعُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ مَرْقِبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].¹

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، فإن هناك الكثير من كتب في التربية والتعليم، ولم يكن له إلا كتب الغرب وفكر الغرب التربوي؛ يترجمه، أو يمتله، أو ينقله، ويدعو إليه بغته وسمينه. ولا يدري، بل لا يخطر له على بال، أن في قرآننا وفي سنة نبينا صلى الله عليه وسلم شيئا، مما يمت إلى موضوعه بصلة.

كما أن هناك كثيرا من الفضلاء، الذين حصروا موضوعهم، على القرآن والسنة، والمؤلفين القدماء؛ كالغزالي، وابن خلدون، وغيرهم. وهؤلاء على جهود مشكورة.

¹ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج 1/ص 3

ونحن اليوم، نريد أن نُلج هذا الشأن، من بوابة الكبيرة. فَنَتَّخِذُ من القرآن، والسنة، وأقوال السلف، والتربويين، أساساً منهجياً، يضعُ النصوصَ التي نتعاملُ معها، في موطنِ الثَّقَلَيْنِ، ورسمِ الأهداف، وأسلوبِ التحرك. وبعد هذا، وليس قبله، سوف نستفيدُ مما درسناه، في جامعات الغرب، من نظريات، وأسسٍ تربوية يقبلُها ديننا الحنيف، في إطارِ العبودية لله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56].

فإلى قارئنا الكريم، والذي لم يَعْتَدْ من قبل، هذه الأولوية، للنصوص الشرعية، والتي كانت من قبل تعطى الصدارة، للنظريات التربوية الغربية، فإننا نُهَيِّبُ به¹، أن يكون أكثرَ قبولاً، لمنهجيتنا هاهنا، في مرتين؛ الأولى لأننا نزعمُ، أننا علميون في طرحننا. والثانية فإنه لا ينبغي لنا أن نستورد، إلا إذا كانت لنا حاجة، بل نستوردُ بقَدْرِ الحاجة، وليس أكثرَ منها. وكل هذا لم يَمْنَعِ من رؤية اللبِّ من الخُشَارِ² عند القوم، فلقد وضعت اللالي العربية في جوار الإضاءات الغربية وسبكتها من جديد في سعي لاكمال عناصر اللوحة وجمالها! وهذا ما أظنني فعلته هاهنا، واجتهدتُ فيه .

كما أتمنى أن تكونَ خُطُوبِي هذِي، يَتَّبِعُهَا خُطُوبَاتُ من الأخوة التربويين، ومَنِي، تُكْمِلُ الطريقَ، وتتلافى ما وقعتُ فيه، من نقصٍ بشري، أَسْتَغْفِرُ اللهَ عنه.

وإني لأُطلِعُ ليوم، تشرقُ فيه شمسُ الحضارةِ من جديد، من حيث أشرقَتْ يومَ كان الغربُ يَتَّخِذُ من كتاباتِ ابنِ رشدٍ، ومن كتاباتِ ابنِ خلدون، ومن كتاباتِ الغزالي، ومن غيرهم، مِمنَ الكثيرِ من النجومِ التي أضَاءَتْ للغربِ بداياتُه الأولى؛ فانتشَلَتْهُ من ظلماتِ التاريخ، و نَمَا، وترعرع، وصَلَبَ عودُه، حتى قاد ركبَ المدينةِ بـ"سوبرمان" قوي، قوي جداً بإمكانيته المادية. لكنه بقي خاوياً من نفخة الروح، التي أسجَدَتْ الملائكةَ له، بسببها: ﴿فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَخَعَتْ فِيهِ مِنْ مَرْوَحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:29].

1 أهَابُ بصاحبه إلى فعل الخير: ناشده، دعاه إليه، معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 2381)

2 الخُشَارُ والخُشَارَةُ الرديء من كل شيء، لسان العرب (4/ 239)

وهذا "السوبرمان" يريد لنفسه، ولل بشرية جمعاء معه، أن تتربى، وتتعلم، في أُطُرِهِ المادية، كما يريد- بكلِّ إعجابه، بما حققه تكنولوجياً- أن يرسِّخَ المادِيَّةَ في الفكرِ، والتربيةِ، والتعليمِ. وكأنَّه يومَ سرقَ النارَ، من برعميثوس¹ حُقَّ له أن يُمارَسَ دورَ الإله!!! سبحانه! رَبِّي! : ﴿سَبِّحْكَ مَا كَانَ يُنْجِيَنَا أَنْ نَخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: 18].

وكلمةٌ أخيرةٌ في السَّطَرِ الأخير من هذا المُدْخَلِ. إنَّ الإنسانَ الغربيَّ بما جعل للفكر؛ من روائِزِ2 تقويمه، وآلياتِ للتَّحرُّكِ من خلاله، وأهدافٍ للوصول به ومن خلاله للحقيقة. لَيَجْعَلُنِي شَدِيدَ الثَّقَةِ بأنَّ يكونَ هذا كُلُّه في سَلَةِ "المستقبل للإسلام". فديُّننا-بفضل الله تعالى- لا يَرَهَبُ العِلْمَ الحقيقيَّ، بل يَعمَلُهُ منطلقاً لكلِّ حَقَائِقِهِ الإيمانيَّةِ.

فَلَسْنَا أَبْعَدَ العِلْمَ الغربَ عن الكنيسة، فالعلمُ في غَماةِ المطافِ هو الذي سوف يقرُّهُ من المسجد. ولئن جعلته ظلماتُ القرونِ الوسطى مُتمرِّداً يباطله، فإن الدعوةَ الإسلامية ستجعلهُ طائعا لله بحَقِّها ولكن لا بدَّ من التفاتةٍ إلى جنودِ الحقِّ لأقولَ لنفسي ولهم:

رسول الحقِّ والإسلام حقٌّ ويعلو الحقُّ إن صدق الجنود

1 أسطورة يونانية خرافية. تصور لونا من الصراع بين الإنسان الغربي من جهة، وبين آلهة اليونان الأسطورية وقوى الطبيعة من جهة، وهي ترمز عندهم إلى انتصار الإنسان على القوى التي كان يخضع لها من قبل. وأصبح يتمتع بالقوة السوبرمانية لقيادة الكون وعززت الاكتشافات والاختراعات لديه هذا الوهم. وكان بحق عظيما في اكتشافاته واختراعاته التكوينية ولكنه للممكن البائس لكتشف الكون ونسي أن يكتشف نفسه فجعلها وجهل بالتالي النور المنوط بها، فكتب له الكس كارييل "الإنسان ذلك المجهول" ويوم يعرف الغربي لم يخلق؟ بلا شك سوف تتكامل الصورة في إطارها الكوني والإنساني الكبير فيتجه الإنسان والكون إلى الله، إلى الله وحده.

2 رَاكَزْ يَرُوزْ إذا امتحنَ عَمَلَهُ فَحَقَّقَهُ وعلو فيه قال أبو عبيدة يقال رَاكَزَ للرجلُ صَنَعَتَهُ إذا قام عليها وأصلحها. انتهى: بمعنى أصبح للمسألة في ذهنه معيار نتجة لخبرته. فالرائز المعيار، لسان العرب (5/358).

ومن يتأمل الوضع الحالي للْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، ومكوّناتها الأساسية من مُعلّمين، ومُتعلّمين، ومَوَادِّ تَعْلِيمِيَّةٍ، ومُؤسّسات تَعْلِيمِيَّةٍ في معظم البلدان العربيّة، يجد أنّ هناك قصوراً واختلافاً بين معظم المثقفين، وغيرهم في نظرهم لمفهوم وجوْدَة هذه المكوّنات وفي الدّور الذي تلعبه في بناء شخصيّة الفرد من جهة، وتطوير المجتمع والنهوض بالأُمّة من جهة أخرى.

يعود هذا القصور والاختلاف إلى تَبَيّن مفاهيم ومبادئ مشبوهة المصدر والمرجعيّة، وقليلة المصادقية، ومطعونة في أغراضها وآرائها، بالرّغم من أن علماء هذه الأُمّة العظيمة عرجيّة عقيدتها، والقويّة بدّينها، والموحدة عبادتها، قد قدّموا لنا مجموعة من الطّروحات حول مفهوم العلم وفضله، والمُعَلِّم الناجح وصفاته، والمُتعلِّم الناجح وخصاله، أمثال ابن عبد البرّ القرطبيّ الأندلسيّ، وعليّ بن ثابت الخطيب البغداديّ، وابن قيم الجوزيّة رحمهم الله أجمعين.

فعندما يفتقد القائمون على سير العملِيَّة التَّعْلِيمِيَّةِ الميزان الحق الذي به يُعرف مفهوم العلم النافع، وبه تقوم جَوْدَة مُقَوّمات خصائص المُعَلِّم العاقل، وطالب العلم الناجح، والمادّة العلميّة النّافعة، والمُؤسّسة التَّعْلِيمِيَّة المميّزة، حينئذ لا يُعرف أين هم من الحق، وهل هم على صواب أم على باطل في إشرافهم وإدارتهم للْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، ولا يمكن حينئذ القيام بتطوير مكوّناتها وتحسين أدائها من أجل بناء فرد مثقف صالح في مجتمع متقدّم متحضّر تسود فيه الحرّيّة والعدالة والمساواة.

من هنا تكمن أهميّة هذا البحث الذي أسميته "العلم وجوْدَة ومكوّنات العملِيَّة التَّعْلِيمِيَّة" الذي يُعَدُّ بمثابة الميزان؛ الذي به تُوزن المكوّنات لمعرفة مدى جودتها أو خساستها، وهو كذلك بمثابة المصباح الذي يُضيء للمُعَلِّم طريقه في الليلة الظلماء، فيبصره بمواضع الحفر من غيرها، وبمقاييس الدليل الذي يرشد الطالب التائه العطشان في صحراء الجهل والضيايع إلى أرض خضراء يتدفق منها ينابيع العلم والمعرفة.

ما أحوج المسُـعَـلَمَ والطالِبَ ومدير المُؤسَّـسَة التَّـعْـلِـمِـيَّة وأولياء الأمور وغيرهم لهذا المِـيـزَان في هذا الزمان الذي تنوعت فيه وسائل الطلِب والتلقِّي، وتنوعت وتضخمت فيه وسائل التَّـعْـلِـم والإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وفشت فيه أساليب التَّـعْـلِـم التَّـلَقُّـنِـيَّة المغلوطة وطرق التَّـعْـلَم السطحيَّة العميقة، وكثرت فيه المُؤسَّـس ات التَّـعْـلِـمِـيَّة التجاريَّة!

لهذا أتقدم بهذا البحث الهامَّ الَّذي أريد من خلاله إعطاء فكرة عامة وموجزة عن مفهوم العلم وعلاقته بِجَوْدَة مكوِّنات العملِـيَّة التَّـعْـلِـمِـيَّة من منظور إسلامي حتَّى يكون دافعاً لنا للافتخار بديننا الخفيف السَّـبَاق لغيره في تقرير كل خير ينفع الإنسان، وتبني تعاليمه ومبادئه وتراثه، وللوقوف أمام الأفكار العَرَبِـيَّة للنظر فيها قبل أن ننساب وراءها من دون دراسة ولا تفكير!

ولابدَّ من التنويه هنا بأن دعوتنا للنظر في مفهوم العلم وجَوْدَة مكوِّنات العملِـيَّة التَّـعْـلِـمِـيَّة من منظور إسلامي لا تقتصر على ذكر شواهد وأدلة من القرآن الكريم والسَّـنَّة النبويَّة الشريفة والمستنح الثرائي الَّذي تركه السَّـلَف الصالح والثَّابِعِين لهم رضوان الله عليهم أجمعين، بل تشتمل كذلك على مجموعة من الأفكار والطُّروحات العملِـيَّة. ذكرناها لمن أراد أن يطبقها ويستفيد منها عملياً أو يستأنس بها نظرياً، والله الموفق.

تناولت في هذا البحث الفصول التالية:

الفصل الأوَّل: أفردت هذا الفصل للتعريف بالعقل والعلم لكونهما جزأين لا ينفصلان عن بعضهما بعضاً، ولا يمكن أن يوجد العقل بدون علم، كما لا يوجد علم بدون عقل، فمن جهة ناقشت العقل وماهيته، وعلاقته بالتفكير النقدي، والدور الَّذي يلعبه في كسب العلم والمعرفة، فهو المِيزَان الَّذي يزن به المسلم أقواله وأفعاله، حلال هي أم حرام ؟ صحيحة هي أم فاسدة؟ نافعة هي أم مضرة؟ ومن جهة أخرى، ذكرت فيه ما قيل في العلم وفضله، وطرحت فيه مفهوماً إسلامياً للعلم ليكون مرجعاً أساسياً لبحثنا هذا.

الفصل الثاني: خصّصت هذا الفصل للمُعَلِّم ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّة وعرضه بشيء من التفصيل، حيث تناولت فيه بعض التسميات والتعاريف المُتعامَل بها في دوائر التربية والتَّعْلِيم والمعاهد العليا والجامعات (المُعَلِّم، والمعيد، والمحاضر، والأستاذ الجامعي، والمُشرف الأكاديمي، والمُؤدِّب، والشَّيخ، والعالم) وشرحت معناها مقترحاً قائمة من المعايير التي يمكن استخدامها للتمييز بين جملة هذه التسميات، إضافة لذلك ناقشت وضع المُعَلِّم ومكانته في الإسلام فيما يتعلَّق بوضعه الدِّينِي، والعلمي، والتَّربوي، والاجتماعي، والمالي، والسياسي، واقتُرحت قائمة من الصفات التي تميِّز المُعَلِّم العاقل الناجح عن غيره من المُعلِّمين.

لأهمية المُعَلِّم ودوره في نجاح العملية التَّعْلِيمِيَّة، ناقشت دور المُعَلِّم التَّعْلِيمِي، ودوره الإداري، والتَّربوي، والنَّفسي، كما اقترحت قائمة من المعتقدات (الدِّينِيَّة، والثَّقافيَّة، والاجتماعيَّة، ومعتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة، والتَّعْلِيم، والتَّعَلُّم) التي ينبغي أن يعتدَّ بها عند تقويم أداء المُعَلِّم أو تعيينه في وظيفة تَّعْلِيمِيَّة ما، كما اقترحت قائمة من الأساليب التَّعْلِيمِيَّة التي سبق أن استخدمها الرُّسول المُعَلِّم ﷺ في تَّعْلِيمِهِ لأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وختمت هذا الفصل بقائمة من أساليب تعليم اللغة الإنجليزيَّة أخذتها بنصرف من كتاب ريتشارد وروجر 1986.

الفصل الثالث: خصّصت هذا الفصل لطالب العلم ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّة، حيث ناقشت فيه، بشيء من التفصيل، مكانة طالب العلم في الإسلام والدَّور الذي يلعبه في العملية التَّعْلِيمِيَّة، كما علَّقت على الواقع الحالي لعمليَّة التَّعَلُّم عند الطالب العربي، ثم قدمت قائمة لخصّت فيها أهمَّ صفات طالب العلم الناجح، وختمته باقتراح "طريقة إسلامية لتحصيل العلم النافع"، والتي تقوم على أسس روحيَّة وعقليَّة وعمليَّة، لتكون عوناً لمن أراد أن يكسب العلم والمعرفة لأغراض دنيوية وأخروية.

الفصل الرابع: يدور نقاش هذا الفصل حول المادة العلمية كمكون أساسي يلعب دوراً مهماً في العملية التعليمية، ولأهميتها بدأت نقاشي في تحديد أهم مصادر التلقّي التي ينبغي أن يعتدّ بها عند تقويم أو اختيار أو صياغة أية مادة علمية، ولاسيما فيما يتعلّق بمناهج التربية والتعلّيسم الأساسي، كما قمت بتقديم تعريف للمناهج الدراسي من جهة، والمادة العلمية من جهة أخرى، وختمته بتقديم بعض المقوّمات التي تحدّد جودة المادة العلمية، والتي تشتمل على جودة الخصائص الشكلية والضمّنية للمادة العلمية.

الفصل الخامس: ناقشت في هذا الفصل مفهوم المؤسسة التعليمية ودورها في العملية التعليمية، فقدمت تعريفاً لها ولهمّتها، كما ذكرت بعض مقوّمات جودة خصائصها الشكلية الخارجية والشكلية الداخلية، ثم اقترحت تعريفاً موجزاً لإدارة المؤسسة، وأوردت قائمة من الصفات الشخصية والأكاديمية والمهنية التي ينبغي على مدير المؤسسة أن يتحلّى بها ليكون مديراً ناجحاً في عمله، ثم ختمته بمناقشة دور المدير ومهامه القيادية والمنظمية، والأكاديمية والاجتماعية، لتكون دليلاً يساعد مديري المؤسسات التعليمية، ولاسيما مديري مدارس التعلّم الأساسي في إدارتهم للمؤسسات التعليمية.

حاولت تقديم أمثلة تطبيقية حيث اقتضى السياق ذلك، لبيان كيفية استثمار الحلول التي طرحتها في الفصول المختلفة، لتكون هذه الأمثلة مرشداً في التعامل مع الحالات المماثلة. إضافة لما ذكرته أعلاه، ومن أجل الأمانة العلمية، قمت بما يلي:

أ- عززت الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم وأثبت اسم السورة القرآنية ورقم الآية.

ب- وذكرت تخرّيج الأحاديث النبوية، مكثفاً بذكر المصدر، واعتمدت في ذلك على مشاهير رجال علم الحديث في القلم والحديث.

ت- ترجمت بالتفصيل الشخصيات التي وجدت ضرورة لترجمتها، معتمداً بشكل أساسي على 'سير أعلام النبلاء' للإمام شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط 11 2001م.

ث- شرح ما يحتاج شرحه من الألفاظ لبيان المعنى.

ج- حاولت تقديم أمثلة تطبيقية حيث اقتضى السياق ذلك، لبيان كيفية استثمار الحلول التي طرحتها في الفصول المختلفة، لتكون هذه الأمثلة مرشداً في التعامل مع الحالات الماثلة.

ح- أوردت في ختام البحث قائمة بأهم المصادر والمراجع التي رجعت لها، أو اعتمدت عليها في هذا البحث، وكان مرجعي الأساسي كتاب الله الكريم، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومصادر السلف الصالح والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، إلى جانب العديد من المصادر الأخرى العربية والأجنبية التي رأيت أنها تثرى البحث، فإن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحرى الناس بها.

خ- تجنبت ذكر اسم أي جهة حكومية أو خاصة أو ذكر اسم أي بلد من البلدان عند طرح مشكلة أو مثال لأية حالة وذلك لتحاشي التعميم، وتركت الأمر للقارئ ليذكر إن كانت الحالة موجودة في بلده أو يعاني منها أو يعرفها.

د- استخدمت بعض مصطلحات اللغة الإنجليزية لكي يستأنس بها القارئ.

أسأل الله العلي العظيم أن ينفع بهذا الكتاب كل من يطلع عليه، كما أسأله سبحانه أن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم.

وأود أن أؤكد أن ما قدمته في هذا البحث لا يعدو أن يكون اجتهاداً بشرياً، فما أصبت فمن الله تعالى وحده، وما أخطأت فمن نفسي، وأسأل المولى عز وجل التوفيق

وَالسُّنْدَادَ وَالرُّشَادَ، وَأَنْ يُجْعَلَ هَذَا الْعَمَلُ فِي مِيزَانِ الْحَسَنَاتِ ﴿مَرْبُتًا عَلَيْكَ نَوَكُنَّا وَإِلَيْكَ آبَتَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتنحة:4]، أَنَّهُ سَمِيعٌ بِجِيبِ الدُّعَاءِ.
وَأَخْرَجَ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

د. أَحْمَدُ مُصْطَفَى حَلِيمَةَ¹

15 ربيع الثاني 1434 / 25 فبراير 2013

¹ يعمل حالياً كأستاذ مشارك في كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية، حاصل على شهادة الماجستير في الترجمة وعلم اللغويات من جامعة باث/بريطانيا، وعلى شهادة الدكتوراه في علم اللغويات التطبيقية/ تربية وتعليم من جامعة أسكس/بريطانيا، من كتاباته في هذا المجال (معايير لتقويم جودة التعليم 1997، ومهارات الإتصال وأثرها في حياتنا العلمية والعملية 2005)، تنصب اهتماماته وأبحاثه العلمية في مجالات التعليم والتعلم، وطرائق وأساليب تدريس اللغة الإنجليزية لأغراض متخصصة، وعلم دراسات الترجمة.

البريد الإلكتروني: amh515@hotmail.com

الفصل الأول العقل والعلم

الفصل الأول العقل والعلم

الواقع الحالي

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، العظيم بربوبيته، العالم بمخلوقاته، خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنعم عليه بالعلم والبيان، وبالعقل مئّزه عن سائر الحيوان، فبالعقل والعلم يفرّق الإنسان بين الحق والباطل، ويميّز بين الخطأ والصواب، وبين الحقيقة والخديعة.

لقد كثرت وتعدّدت مؤخراً برامج الفضائيات العربية، كالبرامج الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والترفيهية، وغيرها من البرامج التي لا يمكن عدّها وحصرها هنا، فأدّى ذلك إلى ظهور ما يسمى بـ"مُتحدّثي الفضائيات"، فمن هؤلاء من يتحدّث حديث العقلاء والفضلاء، ومنهم من يثرثر بثرة الحمقى ويتشدّق تشدّق المغفلين، ومنهم من يقرقر قرقرة الدجاج، ويهرش هريش الكلاب.

وبالتالي ظهر لهؤلاء جمهور يراقب ويستمع لهم، فمن هؤلاء من يراقب ويستمع بعقل ذكي وقلب سليم، وهم عقلاء وفضلاء الناس، ومنهم يغترّ بتفلسف وثرة المأفونين والمأفوكين¹، وهم الرّعا² من الناس، ومنهم من يروّج أقوالهم وأفكارهم ويقتدي بأفعالهم ويناقر من أجلهم مناقرة الدّيكَة وهججة الكلاب، وهم الهمج³ من الناس.

لذلك عمدت أن أبدأ كتابي هذا بفصل خفيف يشتمل على معنى مختصر للعقل وفضله، وعلى أهمّ سمات العاقل، ودور العقل في كسب العلم النافع، ويتضمن أيضاً على

¹ المأفون: الضعيف الرأي، والمأفوك: للعاجز الرأي.

² الرّعا: سفلة الناس وأخلاطهم.

³ الهمج: ناس لاخير فيهم.

تعريف للعلم وفضله، لعله يكون تذكرة لأولي النهى¹، وتيقظة لأولي الحق من حقهم، والمغفلين من غفلتهم، والجاهلين من جهلهم، والله الموفق للسداد والمهادي إلى الرشاد.

العقل وماهيته

لغويًا يعود اشتقاق كلمة 'العقل' إلى الفعل عَقَلَ، يَعْقُلُ، عَقْلًا، ومعناها يختلف باختلاف الموضع الذي يُستخدم فيه، فإذا قلنا "عَقَلَ الأعرابي الناقة" يعني ربطها ليمنعها من الشرود إذا نفرت، وإذا قلنا "عَقَلَ الغلام"، يعني أدرك أو بلغ سن الرشد، وإذا قلنا "عقل الطالب الأمر على حقيقته" يعني فهم وتدبر، وإذا قلنا "صار أحمد عاقلًا" يعني عرف ما كان عليه من خطأ.

اصطلاحياً، اختلف في تبيان معناه، وتعددت الأراء في تعريفه، فقد ذكر ابن الجوزي² رحمه الله في كتابه أخبار الأذكىاء³، أن أحمد بن حنبل⁴ رحمه الله قال: 'العقل غريزة'، أما الحارث المحاسبي فقد قال أن 'العقل نور'، وقال آخرون: 'هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات'. وقال قوم: 'هو نوع من العلوم الضرورية، وهو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات'، وقال آخرون: 'هو جوهر بسيط'، وسئل أعرابي عن العقل فقال: 'لب اغتمته بتجريب'.

¹ النهى: العقل

² هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله التميمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي السواظ المشهور بابن الجوزي، له مصنفات كثيرة، وكتب بيده أكثر من مائتي مجلد في شتى أنواع العلوم، ولد في بغداد سنة 508 هـ، وتوفي في شهر رمضان سنة 597 هـ.

³ أخبار الأذكىاء، لابن الجوزي، ص13

⁴ هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أحد الأئمة الأعلام، صاحب مذهب الحنابلة، ومحدث موثوق، وفقيه عالم، وزاهد بحق، وحافظ للحديث، جمعها في كتابه المعروف 'بمسند أحمد'، ولد في ربيع الأول سنة 164 هـ وتوفي في ربيع الأول سنة 241 هـ.

وذكر أبو الحسن البصري الماوردي¹ رحمه الله أنه "بالعقل تُعرف حقائق الأمور، ويُفصل بين الحسنات والسيئات، وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب.

فالغريزي هو العقل الحقيقي. وله حدّ يتعلّق به التكليف لا يجاوزه إلى زيادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان. وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تمّ في الإنسان سمّي عقلاً ونُخرج به إلى حد الثّمام، كما قال صالح بن عبد القدوس²، وهو الملقب عند معاصريه في القرن الثّاني، بالشاعر الحكيم، فقد كان متكلماً، يعظ الناس بالبصرة، كما كان له مناظرات مع المعتزلة. قال:

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

ففي هذا، نحن أمام نظرة كلية شاملة للعقل لدى ابن عبد القدوس، فقد ربط الكيان البشري كله، بالرباط العقليّ، فالعقل وراء أمور الإنسان وشؤونه الماديّة والمعنويّة، (تمت أموره). وهو وراء أمانيه ومطامحه وتطلّعاته (وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ). وهو وراء بنائه الجسدي والفكريّ معاً (وَتَمَّ بِنَاؤُهُ).

أما العقل المكتسب، فهو نتيجة العقل الغريزي، وهو غاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حد، لأنّه ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل. ونماؤه يكون بأحد وجهين: إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى، ولا صاد من شهوة، كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب، وممارسة الأمور، ولذلك حمّدت العرب آراء الشيوخ، بل ذهب أبو حمزة الخارجي إلى وصف رجاله الشجعان المقبلين على الموت ببسالة نادرة في تاريخ البطولات، وصفهم بـ "أهم شباب - والله -

¹ هو علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي المعروف بالماوردي نسيباً إلى بيع الماورد وعمله، إمام من أئمة الفكر وواحد من كبار فقهاء الشافعية، ولد في البصرة سنة 364 هـ وتوفي في سنة 450 هـ.

² هو صالح بن عبد القدوس، شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ للناس في البصرة، له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات، وشعره كله أمثال، توفي سنة 166 هـ (انظر الأعلام للزركلي، ج3/192).

مكتهلون¹ فهم شباب في أجسادهم، وهمهم، وعزائمهم .. لكن هذا كله لم يكن لديهم عن طيش، وكرامية للحياة، وإنسحاب منها! بل هم العقول المتزنة، والحكمة العميقة، التي لا يمتلكها إلا الكهول الذين شحذوا عقولهم، بتجارب الحياة وتأملاتها البعيدة والصائبة. ومن هنا كان فخاره بهم !

وقال بعض الشعراء في هذا الموضوع:²

أَمْ تَرَأَنَّ الْعَقْلَ زَيْنًا لِأَهْلِهِ وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طَوْلُ التَّجَارِبِ

العقل، ببساطة، كما عرفه الإمام أبي حاتم البستي³ رحمه الله، هو "اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باحتساب الخطأ"⁴.

محل العقل

كما اختلف الناس في تعريف العقل وماهيته فقد اختلفوا في تحديد محله، فمنهم من قال أن محله الدماغ، أمثال الإمامين أبي حنيفة⁵، وأحمد بن حنبل رحمهما الله، وذلك لأنه إذا ضُرب الإنسان على رأسه ضربة قوية زال معها العقل، وبالتالي فقد الإنسان القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، ومنهم من قال أن محله القلب، أمثال الأمامين علي بن أبي

¹ البيان والبيان للجاحظ، (ج2/ص)

² أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن البصري الماوردي، ص15

³ هو أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، محدث عالم زاهد، ولد في بستان (تقع في أفغانستان) سنة 280 هـ وتوفي في بستان سنة 354 هـ.

⁴ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص10

⁵ هو الإمام، فقيه الملة، عالم العراق، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التميمي، الكوفي، ولد سنة 80 هـ في حياة صغار الصحابة، فقيه، عالم بالقرآن والسنة، ورع زاهد، صاحب مذهب 'الحنفية'، توفي في خلافة أبي جعفر المنصور سنة 150 هـ.

طالب¹، ومحمد بن إدريس الشافعي² رحمه الله، فعن علي عليه السلام أنه قال: "إن العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والرفقة في الطحال، والنفس في الرئة"³. واستدل الإمام الشافعي رحمه الله على ذلك بقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. وقوله تعالى: ﴿لَإِنْ فِي ذَلِكَ كَذِبٌ لَّنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]. أي لمن كان له عقل.

وذكر الداني بن مئيرال زهوي في تحقيقه لكتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي رحمه الله أن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية⁴ رحمه الله قال في مجموع الفتاوى: "أن العقل له تعلق بالدماع والقلب معاً، حيث يكون مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة والقصد في القلب، فالقلب موطن الهداية، والدماغ موطن الفكر والتصور"⁵.

¹ هو علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ابن عم النبي ﷺ وصهره زوج فاطمة، وأول الناس إسلاماً بعد خديجة رضي الله عنها؛ ولد بمكة سنة 23ق.هـ. أقام بالكوفة إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في رمضان سنة 40 هـ.

² هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، ولد في غزة في فلسطين سنة 150 هـ وتوفي سنة 204 هـ بعد أن أسس مذهباً فقهياً سُمي باسمه: مذهب الإمام الشافعي.

³ صحيح الأديب المفرد للإمام البخاري، رقم 547/425 ص150

⁴ هو شيخ الإسلام، أحمد بن محمد بن حنبل بن أبي العباس أحمد بن تيمية، الإمام الفقيه العالم المجاهد الورع الزاهد، ولد في في حران في ربيع الأول سنة 661 هـ وتوفي سنة 728 هـ تلامذته كبار الأئمة الأعلام، أمثال: الإمام ابن قيم الجوزية، والحاظ ابن كثير.

⁵ أخبار الأذكياء، لابن الجوزي، ص14

فضل العقل

اعلم انه لاشيء أفضل نعمة بعد الإيمان بالله سبحانه من نعمة العقل، فهو أصل الدِّين وعماد الدُّنيا، فيه يُوجب التكليف، وبدونه يرتفع التكليف، وبالعقل وأحكامه تُدير وتُدار أمور الدُّنيا، وبالعقل وفضائله تألف قلوب النَّاس مع اختلاف طبائعهم وأغراضهم. وصدق قول الشاعر¹:

مَا وَهَبَ اللَّهُ لِمَرِيٍّ هَبَةً أَشْرَفَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِهِ
هُمَا حَيَاةُ الْفَتَى فَإِنْ غَدِمَا فَإِنْ فَقَدَ الْحَيَاةَ أَجْمَلَ بِهِ

كفى بالعقل شرفاً أن يكون ميزان العبد في عبادة ربه، فبقدر عقله تكون عبادته لربه، فإذا قاد العقل صاحبه لعبادة ربه حق عبادته، دخل الجنة بإذن الله، وإذا أبعد صاحبه عن عبادة الله ورفض كلمة الحق والدِّين، دخل جهنم، عافاني الله وإياكم منها، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المك: 10]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أضل الرجل عقله، وحسبته دينه، ومروءته خلقه"².

في فضل العقل روي أن لقمان الحكيم قال لابنه: "يا بني؛ اعقل عن الله عز وجل، فإن أعقل النَّاس عن الله عز وجل أحسنهم عملاً، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكابده، يا بني؛ ما عبد الله بشيء أفضل من العقل"³.

وفي ذلك يقول الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: "لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له. ورأس العقل معاشرته النَّاس بالجميل، وبالعقل تُدرك الداران جميعاً"⁴.

¹ جواهر الأديب، للسيد أحمد الهاشمي، ج2/ص393

² أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الملوذي، ص13

³ أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص11

⁴ الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة، محمد رضا، ص73

ومن حكم "هُرْمُس" العظيم انه قال: "أفضل ما في الإنسان من الخير العقل، وأجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه العمل الصالح، وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد، وأظلم الظلمات الجهل، وأوثق الأسار الحرص"¹.

وقال أبو حاتم البستي رحمه الله: "العقل دواء القلوب، ومطية المجتهدين، وبذر حرائة الآخرة، وتاج المؤمن في الدنيا، وعُدته في وقوع النوائب، ومن عُدِمَ العقل لا يزدده السلطان عزاً، ولا المسال يرفعه قدراً، ولا عقل لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الزمانة² الجهل، كذلك أشد الفاقة عدم العقل"³.

وهنا لنا وقفة مع قرائنا الكرام، الذين قرؤوا في كتب التربية الحديثة والمترجمة، وأخذت طريقها إلى تكوينهم العلمي، والمصطلحي. فنحن ندرك بادئ ذي بدء أننا في نظرتين مختلفتين إلى العقل، بحسب ما ينطلق منه، وإليه كل منا؛ فهم يفهمون العقل في إطار القدرات التَّفَكُّيرِيَّة، والقدرة على التحليل والتركيب، والتسلسل المنطقي، وعمليات الربط التي تصل الزمان حاضره بماضيه ومستقبله، وكذا استفادة العقل من القوانين الطبيعية، وما إلى ذلك من أمور يتحرك بها العقل، ويحركها . . . ولربما سمع بعضهم نقولنا في العقل عن هؤلاء الأفاضل، فأسرع إلى وصف القائل بأنه يعظ في موطن، ليس هذا مكانه ! والأمر عنده أن هذا ليس من البحث العلمي في شيء!

ونحن وقد اتسعت صدورنا لكل هذا نسعد بأن تتسع الصدور، وأن تتفتح الآذان لسماع كلمتنا، فنقول وبغير مواربة، ومن أقصر الطرق، هذا العقل المجرد، غير موجود على الإطلاق!

¹ يُقال: هو "إدريس" النبي ﷺ المحمودة آثاره، للمرضية أقواله وأفعاله، الذي يُعد من الأنبياء الكبار، وهو السذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة، وربتها في بيوتها. (انظر الملل والنحل، للشهرستاني، ج2/

ص41

² الزمانة: المرض المزمن

³ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص12

ومما من عقل بدأ يتحرك ليعقل، إلا وكأنتُ هناك دينونة من لون ما تعقله، إن لم نقل تعقله، قبل أن يفتح عيناً ١ وأصحاب العقول، هم أصحاب موقف ديني مسبق، وما العقل إلا باحث في إبطار هذه الدينونة عما يبتتها، ويلغي ما ينفها. بالطبع يعني هنا بالدينونة أكثر من الدين والديانات المعروفة، ولنقل: الدين هنا يعني ما خضع له الإنسان في داخله، وكان هذا الخضوع ممزوجاً بالرغبة والحب، أو بالرهبة والذل، أو بهما معاً. فأبي إنسان يمكن أن يوجد مجرداً من الحب، أو من الذل، فهو قادر على التفكير المجرد. ونحن لا نظن أن هذا العقل موجود، كما لانظنه وجد من قبل. إذن ما هو المجال الحقيقي لبحث هذا العقل قبلاً؟ انه وبكل ثقة ودون أي تردد انه البحث عن الدين الصحيح الذي يوجه العقل في الإبطار الحق، بعد أن يجيب عن الأسئلة التالية: من أين جئت؟ إلى أين المصير؟ فيجيب بإجابة أبي الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا وعليهم السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]. ولا يجيب بإجابة الشاعر المهجري إيليا أبي ماضي:

"لست أدري"

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي؟
"لست أدري"

ثم لو لم تكن الدينونة هادية العقل وموجهته، فكيف يمكن للطبيب أن يحاضر عن مضار التدخين، ولفافته تتقل بين أصبعيه وشفتيه؟ بل كيف لفرعون الأهرام وفراعنة عصرنا أن يقولوا: "ما أريكم إلا ماري، وما أريكم إلا سبيل الرشاد" بل أكثر من هذا نجد دهاقته

المفكرين المتنورين يدافعون بحجج عقلية "متعوب عليها" عن هذا المستبد أو ذاك. بل أصبح العقل وهو ينقاد، ويقود الاستبداد، له فلسفات إعلامية وأفكار لها أنياب فضائية وشاشات عملاقة.

نعود إلى هؤلاء الكرام الذين اختلفنا معهم لنشكرهم سماع هذا الصوت إلى نهايته. كما نعلن وبكل الوضوح أن العقل الذي نريد له أن تتحرك به وأن يحررنا هو العقل الذي يوجهه أول آية بعد فاتحة الكتاب، يوجهه ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2]

وبعد هذه المهمة، التي نتمنى أن تجد طريقها إلى قلوب هؤلاء الكرام وآذانهم، نعود إلى متابعة نقولنا، بنفوس مفتوحة، فلا نجد حرجاً من أن ننقل عن الشاعر هوميروس كما نقلنا قطوفاً شذية من حديقة سلفنا الصالح، فقد علمونا أن تصطاد الحكمة بشباك العقل والتقوى.

وقال هوميروس¹ الشاعر في العقل انه "شحون: طبعي، وتجريي؛ وهما مثل الماء والأرض، وكما أن النار تذيب كل صامت وتخلصه وتمكن من العمل فيه؛ كذلك العقل يذيب الأمور ويخلصها ويفصلها ويعدها للعمل، ومن لم يكن لهذين النحوين فيه موضع فإن خير أموره له قصر العمر"².

وهما هو الشاعر إبراهيم بن حسان يلخص لنا فضل وشرف وأهمية العقل في حياة الإنسان بأبيات شعرية جميلة، فيقول³:

يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهُ
يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَغْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهُ

¹ هوميروس: هو شاعر ملحمي يوناني كان أعمى، صاحب الإلياسة والأوديسة.

² الملل والنحل للشهرستاني ج 2/ص 101

³ أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي، ص 14

يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ
وَأَفْضَلُ قَسَمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ
عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَحَارِبُهُ
فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهُ
إِذَا اكْتَمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ
قَدْ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَارِبُهُ

العاقل وسماته

اعلم أن أول خصلة يتحلى بها العاقل ويتميز بها عن غيره من الناس هي خصلة الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبمحمد رسوله وخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلا خير في عاقل لا إيمان في قلبه، ولا بركة في عاقل لا يوقر نبينا المصطفى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

العاقل هو الأديب الرّيب اللّيب الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويضع الأمور موضعها، مكارم الأخلاق أجمل صفاته، يعرف الخير فيفعله، ويعرف الشر فيجتنبه، إذا أصاب في أمر حمد وشكر، وإذا أخطأ اعتذر، كلامه صواب، صمته ذكر لله وتفكير وتدبر، فهو كالشمس في الشتاء، وكالظل في الصيف، كثير الأصحاب، قليل الأعداء، طبعه جميل، وقلبه سليم، فهو هَيِّنٌ لِّئِنْ سَهِّلَ طَلِقَ السَّمْتُ وَالطَّلَةُ وإلى من يجب أن تحرم عليه النار نسوق هذا الحديث، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: "أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟" قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "كُلُّ هَيِّنٍ لِّئِنْ قَرِيبٍ سَهْلٌ" ¹.

العاقل يفهم الخطاب ويعمل بالدليل، لا يجادل بغير حجة، ويتبصر في عواقب الأمور قبل وقوعها، يمتاز بعلو الهمة، جلساؤه عقلاء فضلاء، بعيد عن صحبة السوء، لا يتأثر بثرثرة الحمقى وتشدد المغفلين، سواء كانوا على الهواء في القنوات الفضائيات التلفازية أم على الأرض في قاعة الدراسة وحلقات العلم.

¹ الجامع الصحيح للشيخ المنن والمسانيد (6/ 749، بترقيم الشاملة آليا) وانظر صحيح الجامع: 3135

قسم ابن الجوزي رحمه الله سمات العاقل إلى قسمين: قسم يتعلق بالشكل والصورة، وقسم يتعلق بأفعال وأقوال العاقل. فمن حيث صورة العاقل، يقول نقلاً عن بعض الحكماء: "إن الخلق المعتدل والبنية المتناسبة دليل على قوة العقل وجودة الفطنة؛ وإذا غلظت الرقبة دللت على قوة الدماغ ووفوره، ومن كائنت عينه تتحرك بسرعة وحدة فهو مكار محتمل لص، وأحمد العيون الشَّهْل¹، وإذا لم تكن الشَّهْلَاء شديدة البريق ولا يظهر عليها صفرة ولا حمرة دللت على طبع جيّد، وإذا كائنت العين صغيرة غائرة فصاحبها مكار حسود، ومن كان نحيف الوجه؛ فهو فهم مهمم بالأمر، واللطف في التحاف القصار أظهر، والمعتدلون في الطول صالحو الحال.

أما من حيث الأفعال والأقوال، يُستدلُّ على عقل العاقل؛ بسكوته، وسكونه، وخفض بصره، وحركاته في أماكنها اللاتقة بها، ومراقبته للعواقب، فلا تستفزّه شهوة عاجلة عقبها ضرر، وتراه ينظر في الفضاء، فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل، ويترك ما يخاف ضرره، ويستعدّ لما يجوز وقوعه².

ونحن نتحفّظ على سمات العاقل المتعلقة بالشكل والصورة التي ذكرها ابن الجوزي رحمه الله لأنه لا يمكن إثباتها، ولكننا ننقلها في إطار تجربة لعالم قد تتفق مع تجارب بعض الناس وقد لا تختلف ولكننا نقطع بأن هذه الأوصاف التي ليست من صنع المتصّف بها، فهي ليست مناط حسن أو سوء على العكس من الصفات القولية أو الفعلية فهي مناط للتكريم أو التسفيل، وعليها المعوّل في الحكم، وليس على غيرها.

¹ الشَّهْلَاء في العين: أن يشوب سوادها زرقة

² أخبار الأكفاء، لابن الجوزي، ص 17-18

وعن أبي السَّرداء¹ رضي الله عنه قال: "ألا أنبئكم بعلامة العاقل؛ يتواضع لمن فوقه، ولا يزدري من دونه، يمسك الفضل من منطقته، يخالق النَّاسَ بأخلاقهم."²

وروي عن وهب بن منبه³ رحمه الله أن لقمان الحكيم قال لابنه: "يا بني؛ ما يتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال: الكرب منه مأمون، والرَّشد فيه مأمول، يصيب من الدُّنيا القوت وفضل ماله مبذول، التواضع أحب إليه من الشرف، والذلُّ أحب إليه من العزِّ⁴، لا يسأم من طلب الفقه طول دهره، ولا يتبرم من طلب الحوائج من قبله، يستكثر قليل المعروف من نفسه. والخصلة العاشرة التي بها يجده وأعلى ذكره: أن يرى جميع أهل الدُّنيا خيراً منه وأنه شرُّهم⁵، وإن رأى خيراً منهم سرَّه ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى شراً منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فهناك حين استكمل العقل"⁶.

وفي الفصل بين العاقل والجاهل، قال "هرمس" العظيم: "أن العاقل مَنطِقُهُ له، والجاهل مَنطِقُهُ عليه"⁷.

¹ هو سُوَيْمَرُ بْنُ زَيْدِ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيُّ، صاحب رسول الله ﷺ، الإمام القدوة، قاضي دمشق، من رواة الحديث للمؤتقين، وهو معدود فيمن جمع القرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ، توفي سنة 32هـ.

² أخبار الأتكياء، لابن الجوزي، ص18

³ هو وهب بن منبه أبو عبد الله الأبنائوي، اليمانيُّ الذُّمَارِيُّ الصنعانيُّ، العلامة الأخباري القصصي، يُعد من التابعين الثقات، أصله من أبناء فارس، ولد في صنعاء سنة 34هـ وتوفي فيها سنة 114هـ، كان غزير الحكمة والعلم في الإسرائيليات وصحائف أهل الكتاب.

⁴ من باب "يُؤَخِّضُ نَهْمًا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرُّخْمَةِ" {الإسراء: 24}

⁵ من باب {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 2]

⁶ أخبار الأتكياء، لابن الجوزي، ص19

⁷ الْمَلَلُ وَالنَّحْلُ، للشهرستاني، ج2/ص43

الأحمق وصفاته

من سنن الله سبحانه وتعالى انه خلق قانون المحاسن والأضداد وأمر الإنسان بلزوم المحاسن واجتناب الأضداد في القول والعمل، فالعاقل يعمل بقانون المحاسن قولاً وفعلًا لسلامة وصحة عقله، والأحمق يعمل بقانون الأضداد قولاً وعملاً لفساد في عقله أو ذهنه. قال ابن الأعرابي¹: "الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكانه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر حرب"².

وقال ابن الجوزي رحمه الله في معنى الحمق أنه "الغلط في الوسيلة والطريق الى المطلوب مع صحة المقصود، بخلاف الجنون، فانه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعا، فالاحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد ورؤيته في الطريق الوصال إلى الغرض غير صحيحة، والجنون أصل إشارته فاسد، فهو يختار ما لا يختار، ويبين هذا ما ذكر عن بعض المغفلين أن طائرا طار من أمير فأمر أن يغلق باب المدينة فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر"³.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: "ليس من أحد إلا وفيه حَمَقَةٌ فيها يعيش"⁴. فالحمق غريزة في الإنسان؛ لكن يتفاوت الناس في شدتها وحدتها كما يتفاوتون في العقل وطبيعته وما منحهم الله منه.

وقال "هرمس" العظيم: "الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن، لأن هذين خلأ النفس، وهذين خلأ البدن"⁵.

¹ هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي أبو عبد الله. علامة باللغة العربية من أهل للكرفة، ولد سنة 150هـ وتوفي في سامراء سنة 231هـ.

² أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص28

³ أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص28

⁴ أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص31

⁵ المِلَّةُ والتَّحَلُّ، للشهرستاني، ج2/ص45

لذا لا يمكن أن يتخلص الأحق من حماقته ولا ينفعها التأديب لأن الأصل وهو العقل فاسد لديه، فقد روي عن أبي عمرو الأوزاعي¹ أنه قال: "بلغني أنه قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال: نعم بإذن الله. قيل: وتبرئ الأكمه؟ قال: نعم بإذن الله. قيل فما دواء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني"².

ذكر ابن الجوزي رحمه الله في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين" إحدى وأربعين اسماً للأحمق، نذكر منها ما نراها أكثر تداولاً بين الناس وفي الكتب: الأحمق، الرقيق، المائق³، المبلغ⁴، المسلوس⁵، المأفون⁶، المأفوك⁷، الرطيء⁸، الأنوك⁹، الأهوج¹⁰، الأخرق¹¹، الهثور¹². ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الداعكة¹³، الخرقاء، الهوجاء.

بالرغم أن ابن الجوزي رحمه الله قسم صفات الأحمق إلى صفات تتعلق بصورة وشكل الأحمق، وصفات تتعلق بخصاله وأفعاله، ألخص صفات الأحمق القولية والفعلية فقط، -وذلك للسبب الذي ذكرته هناك ويتلخص في أن هذه الأوصاف لا تستند إلى دليل -:

¹ هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو. إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في عتبات سنة 88 هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت، وتوفي بها سنة 157 هـ.

² أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص 28

³ الأحمق المائق: الشديد الحماقة

⁴ المبلغ: هو الأحمق الداعر الذي يتكلم بالفحش.

⁵ المسلوس: الذي ذهب عقله.

⁶ المأفون: الضعيف الرأي.

⁷ المأفوك: العاجز الرأي.

⁸ الرطيء: الأحمق الغليظ الكلام.

⁹ الأنوك: الأحمق الجاهل.

¹⁰ الأهوج: هو من كان طويلاً في حمق وطيش وشرع.

¹¹ الأخرق: الضعيف الرأي، السيئ التصرف.

¹² الهثور: هو من ذهب عقله من كبر أو مرض أو حزن.

¹³ الورهاء والداعكة: امرأة شديدة كثرة الحمق

1. الجاهل والخلو من العلم النافع أول وأخطر خصلة يتصف بها الرجل الأنوك. فتصور أحدنا يكرر سنه ويشيخ عقله ولم يحصل على شيء من العلم النافع! فهل هو من الأحمق ببعيد؟ قال الأعمش¹: "إذا رأيت الشيخ ليس عنده شيء من العلم أحببت أن أصفعه"².
2. الكبر والعجب وكثرة الكلام من أبرز علامات الأحمق، قال أبو الدرداء³ ﷺ: "لا يغرنكم ظرف الرجل وفصاحته وإن كان مع ذلك قائم الليل صائم النهار إذا رأيتم فيه ثلاث خصال، العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وإن يجد على الناس فيما يأتي مثله، فإن ذلك من علامة الجاهل". وروي أنه تكلم رجل عند معاوية⁴ ﷺ فأكثر الكلام، فضجر معاوية فقال: "أسكت؟". فقال: وهل تكلمت؟⁵
3. حب المدح الكاذب صفة مُمَيِّزة للأحمق، فتراه ينتشي من الفرح عندما يُمدح وإن كان غير مستحق.
4. قال بعض الحكماء: "يُعرف الأحمق بست خصال: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، والكلام من غير منفعة، والثقة بكل أحد، وإفشاء السر،

¹ هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء أبو محمد الملقب بالأعمش تابعي مشهور. أصله من بلاد الرّي، ولد فيها سنة 61هـ، وتوفي بالكوفة سنة 148 هـ، كان عالماً بالقرآن والحديث والقراءات، وكان معروفاً بالفكاهة والإجابات للاذعة.

² أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص38.

³ هو غويسر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، صاحب رسول الله ﷺ، من رواة الحديث الموثقين، وهو محدود فيمن جمع للقرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ، توفي سنة 32 هـ.

⁴ هو معاوية بن أبي سفيان، القرشي، الأموي، المكي، أمير المؤمنين، ملك الإسلام، ولد قبل البعثة بخمس سنين وتوفي في رجب سنة 60 هـ.

⁵ أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص38

وأن لا يفرق بين عدوه وصديقه، ويتكلم ما يخطر على قلبه، ويتوهم انه أعقل الناس¹.

5. وفي صفات مُمَيَّزَةٍ للأحمق، رُوي عن وَهْب بن مَنِيه رحمه الله انه قال: "الأحمق إذا تَكَلَّمَ فضَحَهُ حُقُّهُ، وإذا سَكَتَ فضَحَهُ عَيْبُهُ، وإذا عَمِلَ أَفْسَدَ، وإذا تَرَكَ أَضَاعَ، لَا عِلْمَ لَهُ يُعِينُهُ، وَلَا عِلْمَ غَيْرِهِ يَنْفَعُهُ، تَوَدُّ أُمَّهُ أَنَّهَا تَكَلَّتُهُ، وَأَمْرَاتُهُ لَوْ عَدِمَتْهُ؛ وَيَتَمَنَّى جَارُهُ مِنْهُ الْوَحْدَةَ، وَيَجِدُ جَلِيسَتَهُ مِنْهُ الْوَحْشَةَ"². رحمك الله يا وهب كم كانت ريشتك معطاة في فن الرسم الكاريكاتيري ... نعم لقد عرف وهب هذا الفن ولم يكن لديه أداة للرسم سوى الكلمات! والله إننا لـ لضرورة يَضِحُّ منها صاحبها. ويضحك بل يقهقه منها مشاهدوها غميت لو أن الرسام علي الفرزات³ منحها من فنه ومن ريشته .

6. قال أبو حاتم بن حيان الحافظ: "علامة الحمق سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الإنفغات، والوقية في الأخيار، والاختلاط بالأشرار، والأحمق إن أعرضت عنه أعتَمَ"⁴، وإن أقبلت عليه اغترَّ، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم⁵ عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته أنصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، فمن ابتلي بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهب له مما حرمه ذلك"⁶.

¹ أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص 40.

² سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ج 4/ص 552

³ رسام كاريكاتير سوري عالمي اشتهر بلوحاته الساخرة.

⁴ عتم عن الأمر: كف عنه بعد المضني فيه.

⁵ حلم: صفح

⁶ أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص 40.

هذا شيء قليل مما كُتب عن الحق وحصول الأحق، لذا ينبغي على العاقل أن يسعى جاهداً ليتخلص من خصال الحمق إن وجد فيه، وأن يتجنب صحبة الأنوك، ومجالسة الحمقى، ففي ذلك سلامة لعقله، وبراءة لسمعته، وراحة لباله، عافاني الله وإياكم من حمقى هذا العصر، وما أكثرهم!

العقل ودوره في كسب العلم

كما تبين مما سبق ذكره أن أحد معاني العقل هو العلم، ففي قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنَّهُمْ فَلْيُفَكِّرُوا﴾ [الحج: 46]، دلالة واضحة على أن العقل هو علم وأن محله هو القلب، فعلاقة العقل بكسب العلم شبيهة بالسفينة وربانها، السفينة هي العلم، والربان هو العقل، فلا يمكن للسفينة أن تبحر بدون ربان يقودها، ولا يمكن لربان أن يبحر بدون سفينة.

وقد قالت الحكماء: "العلم قائد والعقل سائق والنفس ذود، فإذا كان قائد بلا سائق هلك، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً" 1. وهذا القول الحكيم على روعته وإيجازه ووضوحه لدى سلفنا، إلا أنني أجدني أكثر ارتياحاً لشرحه في صلب النص، وذلك ليشمل كل من قرأ.

فالدُّود: القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع، ولا يكون إلا من النوق. والمقصود هنا تشبيه النفس بنوق الصحراء، وتشبيه العلم بقائد الدُّود، وتشبيه العقل بسائق الدُّود. فكما يطيش الدُّود في الصحراء المهلكة، مع غياب القائد والسائق، فإن النفس تضل وتهلك، إن لم يكن لها توجيه من العلم والعقل.

1 العقد الفريد، لعبد ربه الأنطلسي، ج2/ص69

وحُكِّي عن بعض أهل العلم والمعرفة أنهم قالوا: "حياة النَّفس بالروح، وحياة الروح بالذِّكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم"¹.

فبمقدار عمق وفعالية هذه العلاقة يكون تفاعل واتلاف العقل والعلم، فإذا كان العقل حاذقاً، والذهن حاداً، والقلب سليماً، كانت قُوَّة النَّفس مهيأةً وجاهزةً لفهم واستيعاب ما يُعرض عليها من علم في زمان قصير، فتكون علاقة إيجابية نافعة ممدوحة، وأما إذا كان العقل مشغولاً مضطرباً أو خمولاً بليداً، كانت علاقته بكسب العلم علاقة جامدة مملّة، وسلبية مذمومة لا خير فيها ولا نفع، والله أعلم.

لذا ينبغي على صاحب العقل الصحيح، والقلب السليم، أن يستفيد مما وهبه الله من نعمة العقل التي ميّزه بها عن هيمة الأنعام في قبول الفكر السليم والرأي السديد، وزجر الفكر المضلّ والرأي المضّرّ، فالعقل يقبل الحق، ويرفض الباطل، والحق هو كل ما وافق شرع الله وسنة رسوله المصطفى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والباطل هو كل ما خالف شرع الله وسنة رسوله محمد ﷺ.

حذّر أيها العاقل أن تتخدع بكل منافق عليم اللسان، وتصدّق ما تقرأه من أفكار وآراء في الكتب، والمجلات والجرائد اليومية، ومواقع الإنترنت، الفاسدة الأصل والغرض. فعن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ "إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ اللِّسَانِ"².

حذّر أيها العاقل أن تُؤخذ وتُعجّب بما يثرثر به ثرثارو أجهزة الراديو، ويتشدّق به متشدّقو الفضائيات التلفازيّة التي يبتّ معظمها حثالة العلم والمعرفة. فعن عبد الله، - قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَهُوَ ابْنُ عَمْرٍو - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُغْفِضُ الْبَلِيعَ مِنْ

¹ المُستظرف في كل فن مُستظرف، لأبشيبي، ص 23

² صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، ج 1/رقم 132

الرَّجَالِ الَّذِي يَتَحَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَحَلَّلَ الْبَاقِرَةَ¹. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لَيْسَ بِهِ قُلُوبَ الرَّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا"².

حذار أيها العاقل أن تتأثر بفكر وآراء أصحاب الرامج الفضائية الضالة المضلة، فهي تبثُ سموماً عقائدية وفكرية في برامج ومسلسلات ظاهرها التسلية والترفيه، وباطنها السُمُّ الزُّعَاف، لما فيها مما يعارض عقيدتنا التوحيدية، ويخالف أعرافنا الجميلة، وعاداتنا وتقاليدينا الكريمة، وذلك فيه فساد لعقلك، وضلال لقلبك، عافاني الله وإياك من سبوم هؤلاء الأفاعي وأمثالهم.

حذار أيها العاقل أن تكون ممن يُسَخِّفُ عقله، وبطبع هؤلاء الحمقى والمغفلين، فيفقد صحة عقله، وسلامة قلبه، ويخسر الثواب في الدنيا والآخرة، ويكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَاسْخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54].

لذا عليك بالتفكير والتدبر، وبالنظر والتأمل، فيها تتولد الفكرة التي ثمرتها العلم، وهو ما يحصل في العقل والقلب، وعندهما تتولد الإرادة للفعل والعمل. فبتقنم الفكر قبل الفعل تعلم ما هو صواب نافع وتتعلمه، وما هو خلط وخطأ وتنبذه، وبالعقل الراجح، وبالقلب السليم، وبالنفس المؤمنة المطمئنة تكسب العلم النافع، وتتضمّن للعقلاء الأفاضل والعلماء الأجلاء، وتهجر صحبة الجهلاء والحمقى والمغفلين، من العامة والخاصة من الناس أجمعين.

العقل والتفكير النقدي

للعقل السليم خصائص ووظائف عديدة ومختلفة، وأهمها التفكير، فالتفكير يتحرك العقل وينشط، والتفكير يُثار المشاعر والعواطف، والتفكير يتحدد الرغبات والحاجات،

¹ سنن أبي داود، رقم 5005

² سنن أبي داود، رقم 5006

لذلك أكد الدين الإسلامي على أهمية التفكير والتفكير في مجالات الحياة النظرية والعملية، لما فيهما من طمأنينة للنفوس، وتبصرة للقلوب، وعبرة للعقول، وصلاح وهداية للناس أجمعين.

لقد ذكر مفهوم 'التفكير' في مواضع كثيرة من القرآن الكريم لأهميته في فهم آياته العظيمة، وفهم هذا الكون الذي نعيش فيه ومكوناته من أرض، وماء، وهواء، حتى نبنيه على أساس عقيدة التوحيد، وعبادة الواحد الأحد، ونعمر الأرض ونستثمر ثرواتها في خدمة الإنسان والإنسانية على مدى العصور حتى يرث الله الأرض ومن عليها:

قال الله تعالى: ﴿لَو أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]. وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا بِمَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَهْلَافًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِحَ اثْنَيْنِ يُخَشِي الثَّلَاثَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3].

وقال تعالى: ﴿ثَبِّتْ لَكُمْ رِبَا الشَّرْعِ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 11]. وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونٍ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 69].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْفُسًا تَسْكُنُونَ إِلَيْهَا رُجْعُكُمْ يَوْمَ تَبْعُكُم مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرؤم: 21].
 وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمَنْ ثَبَّتْهَا لِقَاضِي عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: 42].
 وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجمانية: 13].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَسَيَفْكَرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].
 وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّتْ أَهْلُهَا أَهْمَهُ فَادْرَءُونْ عَلَيْهَا أَنْهَارًا أَنْزَلْنَاهَا لِيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِبِ الْإِنْسُ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 24].

وقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَذْهَبُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 184].

وفي هذا السياق أيضاً، أكدت السنة الشريفة على أهمية التفكير في الأمور، وحث صاحب العقل السليم أن ينظر ويفكر في الأشياء حتى يحصل على الفائدة المرجوة، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه انه قال: "قلت: يا رسول الله! ما كانت صُحُف إبراهيم؟ قال: "كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور! إني لم أبتغك لتجمع الدنيا

بعضها على بعضٍ ولكنِّي بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم ؛ فإنِّي لا أردُّها وإن كانت من كافرٍ.

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات؛ ساعة ينجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من السمطعم والمشرب.

وعلى العاقل أن لا يكون طاعناً إلا لثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرّمة¹ لمعاش، أو لذة في غير محرّم.

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مُقْبِلاً على شأنه، حافظاً للسانه. وَمَنْ حَسِبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ ؛ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَغْنِيهِ.

قلت: يا رسول الله! فما كانت صُحُفُ موسى عليه السلام؟ قال: "كانت عيراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح. عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك. عجبت لمن أيقن القدر ثم هو ينصب². عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها. وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل".

قلت: يا رسول الله زدني. قال: "عليك بطول الصمت؛ فانه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك".

قلت: يا رسول الله زدني. قال: "ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك، وتجد عليهم فيما تأتي".

¹ مختار الصحاح (ص: 267): "رَمَ الشيء يرمه بضم الراء وكسرهما رَمًا ورمّةً أصلحه" انتهى. فعلى هذا يكون المعنى السعي في تحسين الأحوال المعيشية، وهذا جل اهتمام المغتربين والمهاجرين من أوطانهم.

² مختار الصحاح (ص: 688) "نَصَبَ تعب"

ثُمَّ ضرب بيده على صدره فقال: "يا أبا ذرٍّ! لا عقلَ كالتدبير، ولا ورعَ كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخَلْقِ".¹

وروي عن أبي الترداء رضي الله عنه انه قال يوماً، وذكر لقمان الحكيم فقال: "ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صمصامة²، سَكِيناً، طويلَ التفكير، عميقَ النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يزيق ولا يتنحج، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعيث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه، إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج، وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي"³.

وفي أهمية التفكير والفكر، يقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: أن "التفكير يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب، فالتفكير يحصِّله والتذكر يحفظه. ولهذا قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

فالتفكير والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقِيحه. كما قال بعض السلف: ملاقاته الرجال تلقِيح لألبابها. فالمذاكرة به لقاح العقل. فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكير فإنه لا بدَّ من تفكير وعلم يكون نتيجة الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم، فإن كلَّ مَنْ علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بدَّ أن يبقى لقلبه حال وينصبغ من صبغة من علمه، وتلك الحال تُوجِب له إرادة، وتلك الإرادة تُوجِب وقوع العمل، فها هنا خمسة أمور: الفكر وثمرته العلم وثمرتها الحالة التي تحدث للقلب وثمره ذلك الإرادة وثمرتها العمل، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها. وهذا يكشف لك عن فضل

¹ ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، ج2/رقم1352

² رجل صمصامة: مصمم. وقيل: هو الشديد الصلب. وقيل: للمجتمع الخلق. اللسان (صمم)

³ البداية والنهاية، لابن كثير، ج2/ص4

التَّفَكُّرَ وشرفه وإنه أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل 1: "تفكّر ساعة خير من عبادة سنة".

فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكارِه إلى المحابِّ ومن الرغبة والحرص إلى الزُّهد والقناعة، ومن سجن الدُّنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصَّمَم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وتلج الصدور.

(وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة، فإن الشَّيْطَان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبدل فيها حَبُّ الأفكار الرَدِيَّة فيتولّد منه الإرادات والعزوم فيتولّد منها العمل فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببَدَل الأفكار الثَّافعة فيما خلق له وفيما أمرَ به وفيما هيّأ له وأعدّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبدله موضعاً².

أعتقد أن نوعيّة وطبيعة التَّفَكُّير الذي أكّد وحث عليه الإسلام هو التَّفَكُّير الذي يقوم به صاحب العقل الناقد، والدَّهْن الحاذق، والقلب الثاقب، ليكون تفكيراً نقدياً له عناصره ومعاييره التي تميّزه عن أي نوع آخر من التَّفَكُّير، ولاسيّما فيما يتعلّق بالعملية التَّعْلِيمِيَّة، والله أعلم.

1 هامش: "كنز العمال (3/108): ذكر القاري الهروي في كتابه الموضوعات الصغرى عند رقم (94): "تفكر ساعة" ليس بحديث إنما هو كلام السري السقطي رحمه الله المتوفى سنة 253 هـ. انتهى. اشتهر على ألسنة العامة أنه حديث. ولنتهزها فرصة لأبين أنه قول للسري السقطي، وعلى هذا تمّ سياقه.

2 مقتاح دار السعادة، للإمام ابن قيم الجوزية، ج1/ص224

أ. تعريف التفكير النقدي

إن التفكير والتذكر والنظر والتأمل والاعتبار والتدبر والاستبصار مصطلحات ومفاهيم تُستخدم في الفكر والتفكير النقدي العميق الفعال، لكن لها معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتفترق في آخر، وللفادة أذكر تعريف إمامنا العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله لهذه المصطلحات، حيث يقول: "ويسمى 'تفكيراً' لأنه استعمال الفكرة في ذلك واحضاره عنده، ويسمى 'تذكراً' لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿لِأَنَّ الَّذِينَ أَتَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكُّرًا فَإِذَا هُم بِمُصِرُّونَ﴾ [الأعراف: 201]. ويسمى 'نظراً' لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه، ويسمى تأملاً لأنه مراجعة للنظر كمرّة بعد كمرّة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه، ويسمى 'اعتباراً' وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكّر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والقبلة وإبذاناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: 26]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: 44]. ويسمى 'تدبراً' لأنه نظر في إدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول، وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَدَّبَّرُوا الْقُرْآنَ وَكُوكَنَ مِنْ عِندِ غَيْبِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء الفعل كالتجرع والتفهّم والتبيين. وسمي 'استبصاراً' وهو استفعال من التبصر وهو الأمر وانكشافه وتحليله للبصيرة¹.

¹ مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، ج 1/ص 223

ومن هنا نقول إنَّ التَّفْكِيرَ التَّقْدِيَّ¹ هو أَسْلُوبٌ مُمَيَّزٌ يعالج العقل فيه أيّ موضوع أو مسألة أو نقطة نقاش أو بحث علميٍّ من أجل تحقيق أقصى درجات جَوَدَةِ التَّفْكِيرِ العميقِ الفَعَّالِ، وذلك من خلال استخدام عناصر الفكر والتَّفْكِيرِ التَّقْدِيَّ من تحديد للغرض، وطرح للسؤال، وجمع للمعلومات، واعتماد للمفاهيم، واستنباط للاستنتاجات، وافترض للفرضيات، والتَّظَنُّرُ بالتَّأَمُّعَاتِ، ودراسة وجهات النَّظَرِ المتعدِّدة والمختلفة بما له صلة بموضوع النَّقَاش، وتطبيق لمعايير التَّفْكِيرِ التَّقْدِيَّ من وضوح، وصحة، ودقة، وعمق، واتِّساع، ومنطقيَّة، وأهميَّة، وعدم الانحياز، والموضوعية ومدى صلته بموضوع النَّقَاش. إنَّ التَّفْكِيرَ التَّقْدِيَّ منهج يضبط سلوك الفرد الفِكْرِيَّ ذاتيًّا، ويوجهه ذاتيًّا، ويراقبه ذاتيًّا، ويصحِّحه ذاتيًّا، ويطبِّق معايير التَّفْكِيرِ التَّقْدِيَّ ذاتيًّا، وله قدرات فِكْرِيَّةٌ على تواصل فعَّال لحل المسائل والقضايا.

ينطبق التَّفْكِيرُ التَّقْدِيَّ على كل ما نفكَّر فيه من أمور الدُّنيا والآخرة: مشاعر، ورغبات، وعادات، وتقاليِد، شرائع ودين، تربية وتعليم، وسياسة واقتصاد، وصحة وطب، ومهارات الاستماع والتكلُّم والقراءة والكتابة، ومسائل وقضايا، وإبداع وابتكار، وغيرها كثير.

ب. خصائص المفكِّر الناقد

هناك خصائص مُعيَّنة تميِّز تفكير صاحب العقل السَّليم عن تفكير صاحب العقل السَّقِيم، فالمفكِّر العاقل الناقد يسعى جاهداً ليطوِّر قدراته الفِكْرِيَّة ويَحسِّن من قدراته التَّفْكِيرِيَّة لتصبح الخصائص التالية جزءاً لا يتجزأ من تركيبة نسيج عقله وعمل تفكيره التَّقْدِيَّ:

¹ اعتمدت في طرح لمبدأ التفكير النقدي وبتصرف على كتاب 'Critical Thinking' للكاتبين ريتشارد بول وليندا إدس، 2001.

1. التواضع الفكري

هو أن يدرك المفكر أن علمه محدود، وأن لا يدعي أكثر مما يعلم، وأن لا يكون محايداً لوجهات نظره، ومدركاً أنها قابلة للأخذ والرد. فالتواضع الفكري هو عدم التفاخر والتسبح والانخداع بما يعلم صاحبه حتى لا يُصنّف بأنه مفكر متكبر، وجاهل لحدود علمه ومعرفته، ومحايد لوجهات نظره، ومدّعياً أنه أعلم من الناس أجمع.

2. الشجاعة الفكرية

هي أن يسدرك المفكر حاجته لمواجهة أفكاره وقناعاته ووجهات نظره مهما كان نوعها وطبيعتها بشجاعة فكرية، وأن يكون على استعداد أن يعيد النظر فيها أو يتخلى عنها إذا تبين له أنها مبنية على غير دليل شرعي أو عقلي، فالمفكر الشجاع يختلف عن المفكر الجبان الذي يخشى من إعادة النظر في أفكاره وقناعاته ووجهات نظره لأنه يعدّ ذلك أمراً خطيراً ومهدداً لكيانه، ولا سيما إن كان ذلك يتعارض مع هويته الشخصية، لأنه يعدّ التهجم على أفكاره وآرائه هو تهجم على شخصيته وهويته.

3. التقمص الفكري

هو أن يدرك المفكر حاجته لوضع نفسه مكان الآخرين، ليتمكن من تفهمهم، وأن يقدر على صياغة وجهات نظرهم، وأن يفكر من خلال تفكيرهم، وأن ينظر في افتراضات وآراء غيره، فبهذا يكون على نقیض المفكر الأناني الذي يتركز تفكيره على نفسه ومصالحه، فيعجز بذلك عن تفهم أفكار ومشاعر ورغبات الآخرين، ولا يقبل النظر في مواضيع وقضايا ومساائل من وجهات نظر تختلف عن تلك التي يعتنقها، فحتى تكون صاحب العقل السليم، وتتميز بالتفكير النقدي الصحيح، عليك أن تضع نفسك مكان الآخرين عندما تريد أن تحكم على أفكارهم أو آرائهم أو مواقفهم.

4. الأمانة الفكرية

تعني إخضاعنا والآخرين لنفس المعايير والمقاييس، أي يدرك المفكر ذو الأمانة الفكرية أهمية الصدق مع ذاته، وأن يُخضع نفسه للمعايير والمقاييس نفسها التي يُخضع الآخرين لها، فهو يستخدم الأدلة والبراهين نفسها في الحكم على نفسه وعلى الآخرين، ويعترف بصدق، إن كان هناك فروقات وتذبذبات في فكره وفعله، فهو على نقیض وخلاف معنى المناقفة الفكرية، والتي يظهر فيها المفكر المناق متناقضاً في فكره وتفكيره وفعله ومواقفه، فمن أراد أن يُحسن ويُجمل صورته في أعين الآخرين، عليه أن يُصَف بالأمانة الفكرية ويطبقها على نفسه وعلى الآخرين نظرياً وعملياً.

5. الصبر والمصابرة الفكرية

تعني العمل في ظروف فكرية معقدة وحالات فكرية محبطة، أي يملك المفكر العاقل الناقد الصبر والمصابرة على حل المسائل المعقدة بدون استسلام للإحباط الفكري ولو استغرق هذا منه وقتاً أطولاً وجهداً أكثر، على نقیض المفكر الكسول الخمول الذي يستسلم فوراً عند مواجهة أية مهمة أو عمل يستلزم بذل جهد فكري أو تفكير عقلي، فهو لا يتحمل أية معاناة فكرية أو إحباط فكري، لذلك ينبغي على المفكر العاقل الناقد أن يتحلى بالصبر والمصابرة الفكرية في معالجته للأمور الفكرية النظرية منها والعملية.

6. العقلانية الفكرية

تعني الإيمان والثقة بالعقل وقدراته التي يعمل المفكر الناقد على تطويرها من أجل استخدامها في تعلم مهارات التفكير النقدي، من صياغة لوجهات نظر حكيمة وإصدار أفكار وآراء سديدة، وتوصيل إلى استنتاجات معقولة، وذلك من خلال تفكير يتصف بالوضوح، والصحة، والدقة، والمنطق، وذو صلة منطقية بالموضوع، ونقاش يقوم على الإقناع باستخدام براهين وأدلة حتى يصبح التفكير العقلاني جزءاً من قيمه الفكرية وأساليبه

في التفكير والحكم على أمر من الأمور، بينما المفكر العلم الثقة بعقله وقدراته النقدية، والتحليلية للأمور يعتمد عادة على ردوده العاطفية التي لاصلة لها بالعقل الناقد والتفكير النقدي، لذلك ينبغي أن يتحلى المفكر بالعقلانية الفكرية إذا أراد أن يكون من أولئك المفكرين العقلانيين النقاد.

7. الاستقلال الفكري

تعني أن يقوم المفكر بالتفكير بنفسه ولنفسه، أي أن يملك ما يجعله من معتقدات وقيم وأساليب في التفكير بدون الاعتماد على الآخرين في التوجيه أو التحكم بما يفكر، لكنه غير عنيد ولا متشبث بأفكاره بل يستجيب لآراء ومقترحات عقلانية تأتي من الآخرين، فهو يسعى مجتهداً لمراقبة تفكيره بنفسه ويعمل على تصحيح أخطائه بنفسه، ويعمل أيضاً وفقاً لقيم هو اختارها لنفسه، فهو على نقیض المفكر الاتكالي الذي يعمل تفكيره وفقاً لأعراف وقيم فكرية، أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، أو غيرها، فرضتها عليه بيئته المحيطة به أو مجتمعه الذي يعيش ويعمل فيه، وربما يكون سبب ذلك هو القبول أو الحصول على مكافآت بأسلوب أو بآخر لتوافق تفكيره مع تفكير بيئته والمجتمع المحيط به. إن هذه الخصائص التي تميز تفكير صاحب العقل السليم عن تفكير صاحب العقل السقيم مطلب جوهري ينبغي أن يملكه المفكر الناقد، ويتحلى به صاحب التفكير النقدي، فهذه الخصال، تتداخل وتتفاعل، مع بعضها بعضاً، ولا تعمل كلاً بمفرده، فلو نظرنا بخصلة 'التواضع الفكري'، على سبيل المثال، لوجدنا أنه حتى نكون مدرّكين لحدود معرفتنا، نحن بحاجة 'لشجاعة فكرية' لمواجهة انحيازنا وجهلنا، وهذا يتطلب بدوره 'تقصص' و'النظر بأمانة' للآراء ووجهات النظر التي نختلف معها، وهذا كله يتطلب منا 'الصبر والمصابرة' في التفكير لأن تعلم تفهم مواقف الآخرين التي نختلف معها يستلزم وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، وحتى نرر هذا الجهد نلجأ إلى 'ثقتنا بالقدرات العقلية' التي تملكها عقولنا، ولله الحمد.

ج. مراحل التفكير النقدي

يمر الفرد في تطوره الفكري بمراحل عدة حتى يصبح صاحب عقل سليم وتفكير ناقد، ومفكر ماهر حاذق الذهن ومستيقظ القلب، فمن المفكرين من يبقى في مرحلة اللاوعي، ومنهم من يبدأ يفكر بوعي، ومنهم من يمارس التفكير النقدي، ومنهم من يصل إلى درجة مستقدمة من التفكير النقدي، وقليل منهم من يصبح من بين المفكرين الماهرين الذين يصبح التفكير النقدي لديهم جزءاً لا يتجزأ من نسيج عقلهم وفطرتهم.

المرحلة الأولى: يسمى المفكر في هذه المرحلة 'مفكراً راكداً' لأنه لا يعلم أن منهج تفكيره يعاني من مشاكل كبيرة، ولا يدرك أهمية ذلك في حياته، فهو يفترض الافتراضات ويصورغ المفاهيم، ويتوصل إلى استنتاجات وبشكل متكرر لكن بدون وعي، وأحياناً بشكل طائش، مما يسبب ذلك له مشاكل في شتى مجالات حياته. لا يعرف هذا النوع من المفكرين في هذه المرحلة كيف يحلل ويقوم تفكيره، ولا يعلم فيما إذا كانت أغراضه تُبنت بوضوح، وافتراضاته تم تبريرها، ونتائجه تم التوصل إليها بشكل منطقي، لأنه يجهل استخدام معايير التفكير النقدي، ولا يتحلى بخصائص المفكر الناقد التي سبق ذكرها.

المرحلة الثانية: يسمى المفكر في هذه المرحلة 'مفكراً مدركاً' لأنه يدرك ضعف تفكيره ويعترف بأن المشاكل في طريقة تفكيره هي التي تسبب له المشاكل في حياته اليومية، لذلك يدرك المفكر في هذه المرحلة أن تغيير أساليب وعادات التفكير لديه هو أمر في غاية الأهمية يتطلب تغييراً جذرياً لروتينيات حياته اليومية، فمن دلالات وعلامات 'المفكر المدرك' أنه يحمد نفسه بجهل في تحليل وتقويم تفكيره، ويتعامل مع عناصر التفكير كالمفاهيم، والافتراضات، والاستنتاجات، والدعايات، ووجهات النظر، ويفكر بالتحصيل التي تجعل من تفكيره عميقاً وفعالاً كالوضوح، والصحة، والدقة، وعلاقة الصلة، والمنطق. هذا الوعي والإدراك للمشاكل في التفكير غير كاف ولا ينبغي أن ينخدع به الإنسان.

المرحلة الثالثة: يسمى المفكر في هذه المرحلة "مفكراً مبتدئاً" لأنه أدرك أن هناك مشكلة في منهج تفكيره وقرر أن يواجهها ويبدأ بتطوير أسلُوب تفكيره. في هذه المرحلة يبدأ المفكر بأخذ تفكيره بمجديّة، ويعمل على رفع قوّة إرادته وهنّته وعزيمة، ومحاوّل أن يتخلّص من أنانيّة تفكيره ويعترف بوجود مفكرين آخرين، ومن علامات "المفكر المبتدئ" انه بدأ يعي كيف يتعامل مع عناصر التّفكير (أغراض، أسئلة، معلومات، مفاهيم، وغيرها)، وبدأ يقدّر قيمة استخدام معايير التّفكير في الحكم على تفكيره (الوضوح، والصّحة، والدّقة، المنطقيّة، وغيرها)، وبدأ يثق بقدرات عقله كوسيلة لمعرفة الصواب من الخطأ وكسب العلم وتنوير بصيرته.

المرحلة الرابعة: يسمى المفكر في هذه المرحلة "مفكراً ممارساً" لأنه أدرك أن التّفكير التّقديّ السّليم يتطلّب ممارسته بشكلٍ منظم كما يمارس الرياضي رياضة المفضلة بشكلٍ منظم، لذلك يقوم هذا النوع من المفكرين في هذه المرحلة باستخدام أساليب متعدّدة ومختلفة لممارسة التّفكير التّقديّ، منها الضعيف ومنها الجيد، كل حسب رغبته وحاجته وقدراته، لكن المهم في هذه المرحلة أن يستخدم المفكر "الممارس" ما يستطيع من مهارات التّفكير التّقديّ، وعناصره، ومعايره، في حل أية مشكلة تواجهه أو آية خطّة يريد صياغتها أو آية قضية يريد دراستها، وعندها يحصد ثمار ممارسته، ويكون متحمّلاً بمحصّال المفكر الناقد، وكما يقال بالصبر والمصابرة يتحقّق النجاح وتحصل الفائدة، بإذن الله.

المرحلة الخامسة: يُسمى المفكر في هذه المرحلة "مفكراً متقدّماً" نتيجة للممارسة المنظمة والمنهجية للتفكير التّقديّ، ويكون قد تولدت لديه عادة التحليل لتفكيره، والتحكم بأنانيّة الفكريّة، والتحلي بعدم الانحياز، والتواضع الفكريّ، والصبر والمصابرة الفكريّة، كما يقوم المفكر "المتقدّم" بمراقبة منظمة ومستمرة لدور تفكيره واستخدامه للمفاهيم، والافتراضات، والاستنتاجات، والتّداعيّات، ووجهات النّظر، وبنفس الوقت تتولّد لديه عادة التقويّم المستمر لتفكيره من حيث الوضوح، والصّحة، والدّقة، وذو علاقة وصلة،

ومنطق، وأهمية. وقد تستغرق عمليّة وصول أحدنا إلى المرحلة الخامسة في تفكيره سنوات عديدة، لأن ذلك يتأثر بعوامل مختلفة: منها الرغبة الجارحة، والعمل الجاد، والشعور بالاندفاعية، والالتزام، وبالممارسة المنظمة للتفكير النقديّ.

المرحلة السادسة: يُسمى المفكر في هذه المرحلة 'مفكراً ماهراً متمرساً' لأنه يمارس التفكير النقدي بشكلٍ فطريّ وبسهولة، ولا يستطيع المفكر 'الممارس' و'المتقدم' من القيام بعملية التفكير النقديّ بدون بذل جهود مُعينة، وما يبدو صعباً لهما هو أمر طبيعيّ وفطريّ بالنسبة للمفكر 'الماهر المتمرس'، لذلك نجد هذا النوع من المفكرين يقود تفكيره بشكلٍ منظم، فهو باستمرار يُراقب ويُراجع ويُعيد التفكير بإستراتيجيات لتطوير التفكير لديه، ومن خلال خبرته وممارسته يُقوم ويحلّل تفكيره مستخدماً كافة عناصر ومعايير التفكير النقديّ، ليصبح جزءاً لا يتجزأ من تركيبة نسيج عقله، وآلية تفاعل ذهنه مع الأشياء على كافة الأصعدة في حياته، وهو أعلى درجة من المفكر 'المتقدم' من حيث تحليله لمنهج تفكيره، والتحكم بأنانيّة الفكرية، والتخلي بعدم الانحياز¹، والتواضع الفكرية، والصبر والمصابرة الفكرية، واستخدام تفكيره للمسائل، والمفاهيم، والمعلومات، والافتراضات، والاستنتاجات، والتداعيات، ووجهات النظر، كما انه في الوقت نفسه تتولّد لديه عادة التقويم المستمر لتفكيره من حيث الموضوع، والصحة، والدقة، ووثاقة الصلة بالموضوع، ومنطق، وأهمية. واعلم انه نادراً ما يصل الواحد منا إلى المرحلة السادسة في تفكيره، لأنه لا بدّ للمفكر 'الماهر المتمرس' أن يتّصف بالخصال التالية شكلاً ومضموناً مجتمعة غير منفصلة:

أ- الوعي الكامل لآليات عمل وتفاعل العقل، ونماذج التفكير والفعل لديه.

¹ والمقصود هنا عدم الانحياز إلى فكرته أو إلى فكرة غيره والتشبث بها رغم وضوح الدليل ضدها، بل عليه أن يتخلّى بآنيّته فكرته حتى تكون راسخة أمام تحدي الأفكار المناقضة لها، وذلك بلا شك يمنح القوة للفكرة ولصاحبها المفكر! وبكلمة واحدة، هو العدل. وفي الصفحة 114 هناك كلام حوله أوضح.

ب- التمتع بعقل قادر لنقل المعرفة بين مواضع متعدّدة ومختلفة مستخدماً عمق بصيرته في المفاهيم والمبادئ الأساسيّة لتنظيم كميات كبيرة من المعلومات.

ت- التمتع بعقل قويّ قادر لتعميم المعرفة وتمكّن من استخدام منطق اللغة، ويعمل جيداً مع منطق المفاهيم والأسئلة والمسائل، ويزن أموراً متعدّدة في آن واحد.

ث- التمتع بعقل منطقيّ يحلّل بشكّلٍ روتينيّ منطق الأشياء، ويلتزم بمبادئ شاملة للتعلّل وإبراز الدليل.

ج- التمتع برؤية مستقبلية، بعيدة المدى، من حيث خطط التطوير والتركيز على القيم العليا.

ح- أن يكون ذا تفكير عميق وفعال، يملك نظرة عميقة معتقداته وقيمه الأساسيّة، ويستوعب جذور تفكيره وعواطفه، ويدرس الدوافع العميقة التي توجه تفكيره ومشاعره ورغباته وأفعاله.

خ- أن يتمتع بعقل تصحيحيّ، بحيث يطبق المعايير الفكرية على أفكاره ومشاعره وسلوكه، ويتعرف وينتقد أنانيّته وتعصبه لفكره وأسلوب تفكير الجماعة التي ينتمي إليها.

د- أن يتمتع بعقل حر يعمل على أساس عقلانيّة الأمور والعواطف، ويغير نمط حياته وعاداته وسلوكه، ويُعدّ نموذجاً للعقلانيّة، والموضوعيّة، والإنصاف في الحكم على الأمور.

د. عناصر الفكر والتفكير النقديّ

إن الفكر والتفكير مصطلحان يُستخدمان أحياناً للدلالة على العقل والعمليات العقلية التي يقوم بها العقل من فكر، وتفكير، وشعور، ورغبة، وغيرها معتمداً على عناصر فكرية متفاعلة ومتداخلة في نسيج تركيبات العقل وعملياته، فانظر، مثلاً، في الجمل التالية

كيف تعرض هذه العناصر، وكأنها باقية ورد، وكل وردة لها شكلها ورائحتها، لكنها تلعب دورها في جمال ورائحة باقية الورد، وكان الباقية كلها أصبحت وردة واحدة: عندما تفكر، تفكر في ظروف معينة، تتوصل إلى استنتاجات لها بعض التداخيات، أساسها يقوم على فعل أو معلومات أو افتراضات، وذلك باستخدام بعض المفاهيم، محاولاً أن تصل إلى حل مشكلة أو مسألة، وذلك لغرض ما أو هدف ما، من خلال وجهة نظر معينة.

يوضح لنا هذا المثال أهم العناصر أو الأجزاء التي يتشكل منها الفكر أو يقوم عليه التفكير التقديري العميق الفعال، فلا بد للواحد منا أن يفهم ويستوعب مفردات هذه العناصر ويجعلها جزءاً من تفكيره الفطري، ونسجياً من أنسجة عقله، وآلية من آليات عمل وتفاعل عقله أو فكره مع الأشياء مهما كبرت أو صغرت.

بالرغم من أن هذه العناصر تعمل بشكل جماعي ومتداخل بعضها مع بعض، أود أن أعرضها، للأهمية البالغة، بشكل منفصل، مع شيء من الشرح لكل عنصر من هذه العناصر الأساسية في الفكر والتفكير التقديري:

1. الغرض

من أهم عناصر الفكر أو التفكير أن يكون هناك غرض أو هدف فيما نفكر، فنحن لا نفكر عبثاً، بلون غرض أو هدف محدد، بل أي أمر نفكر به صغر أم كبر يحتوي على أهداف ورغبات وحاجات وقيم، ولكن للأسف في معظم الأحيان ما نبتغيه من تفكيرنا يكون غير واضح لدينا، لذلك يُعدّ توضيح أهدافنا ورغباتنا وإخراجها لحيز الوعي والإدراك عنصر هام في التفكير التقديري، فالطالب، عل سبيل المثال، الذي يذهب إلى خارج البلاد للدراسة يكون هدفه وغرضه من الدراسة هو النجاح والحصول على شهادته، لذلك ينبغي على صاحب العقل السليم والتفكير التقديري الصحيح أن يطرح على نفسه دائماً هذا السؤال: ما هو الغرض أو الهدف الرئيسي لما أفكر فيه أو ما أفعله؟

2. المشكلة

عند التفكير بسؤال ما، أو بقضية ما، أو بمسألة ما، فنحن نفكر في الوقت نفسه بما يتوافق مع أهدافنا ورغباتنا وحاجتنا وقيمنا، لذلك نطرح أسئلة نريد جواباً لها، ومسائل أو مشاكل نريد لها حلاً، وقضايا نريد تسويتها، فالمفكر لدينا عندما يواجه صعوبة ما يطرح على نفسه سؤالاً: "ما هو السؤال الذي ينبغي أن أجد له جواباً؟" أو "ما هي المشكلة التي ينبغي أن أجد لها حلاً؟" أو "ما هي القضية التي ينبغي أن أقوم بتسويتها؟"، فلتحسين قدرتك بصفتك إنساناً عادياً أو طالب علم، على التفكير العميق الفعال، ينبغي عليك أن تتعلم كيف تسأل الأسئلة، وتطرح المشاكل والقضايا التي تريد أن تتعامل معها بشكل واضح، وصحيح، ودقيق، فعندما تغيّر السؤال تتغيّر معه المعايير التي تستخدمها من أجل الجواب على السؤال، وإذا عدّلت من صيغة المشكلة أو القضية ينبغي أن تعدّ برباط أخرى لها صلة بالقضية، وهكذا! ينبغي التعامل مع هذا العنصر حتى يصبح وكأنه جزء لا يتجزأ من تركيب عقلك، وعنصر مهم من عناصر الفكر والتفكير النقدي لديك، والله أعلم.

3. المعلومات

عندما نستخدم معلومات في فكرنا وتفكيرنا، فنحن نستخدم مجموعة من الحقائق، أو المعلومات أو الخبرات لدعم ما نتوصل إليه من خلاصة أو نتيجة، لذلك لا يمكن إجراء أي نوع من النقاش أو الحوار أو الدراسة بدون الاعتماد على معلومات، فمن العقل والتعقل أن تسأل نفسك أيها المفكر: "على أية حقائق أو معلومات تعتمد في تفكيرك؟" عندما تقوم بأي نوع من التفكير، لأن المعلومات عنصر جوهري من عناصر الفكر والتفكير، فلا يمكن للصّحفي أن يكتب تقريره بدون معلومات، ولا يمكن للطالب أن يكتب بحثه بدون معلومات، ولا يمكن للطبيب أن يصف دواءً لمرضى بدون معلومات أو حقائق أو خبرات، ويجدر بك أن تلقي اهتماماً خاصاً بمصادر معلوماتك ومدى مصداقيتها، وتنظر

ففيها بعين محللة وناقدة، وذهن ثاقب يقظ، حتى يكون فيها مصداقية وقابلة للاستعمال بشكلٍ موضوعي وعلمي.

4. المفاهيم

هي عبارة عن تصنيفات أو أفكار عامة تُستخدم في شرح أو تصنيف أو جمع المعلومات التي نستخدمها في تفكيرنا، مفاهيم العقل والعلم والتعليم والتعلم في هذا الكتاب، على سبيل المثال، هامة وجوهرية لتسهيل عمليّة النقاش فيه، وكل مادة علمية لها مفاهيمها التي تكون على شكل أفكار أو مصطلحات أو مفردات تميزها عن غيرها من السموات، وتسهّل التفكير فيها، مفاهيم مادة الرياضيات أو الكيمياء غير مفاهيم الأدب أو الاقتصاد أو التاريخ، ولكلّ دوره في الفكر والتفكير. ومن خصال المفكر الناقد قدرته على صياغة مفاهيم من خلال ما يراه ويمارسه في حياته اليومية، ويضيفها إلى منظومة فكره وتفكيره، وقدرته أيضاً على أن يتخلص من مفاهيم لا يراه صواباً من منظومة فكره وتفكيره، فبهذا يكون هو المتحكم الأورحد في ما يقبله أو يرفضه من مفاهيم، ويكون قد وصل إلى أعلى درجات الفكر والتفكير النقدي، والله أعلم.

5. الافتراضات

هي عبارة عن ادعاءات أو أشياء تعلمناها وحفظناها على أنها صحيحة، ولاننشك فيها أو نسأل عن مدى صحتها، فهي جزء من منظومة معتقداتنا، التي نؤمن بها على أنها صحيحة ونستخدمها في تفسير ما يدور في العالم الذي حولنا، فإذا اعتقدت، مثلاً، أن المشي ليلاً في شوارع المدن الكبيرة خطير وأنت تعيش في لندن، ستستنتج أن المشي في الليل خسارح البيت خطير. فأنت هنا تعدّ اعتقادك هذا أنه صحيح، فإذا ثبت أن اعتقادك هذا صحيح ومتين، يكون عندئذ افتراضك هذا صحيحاً ومتيناً، والعكس صحيح، وهذا ما

يجعل الافتراضات أو الادعاءات قابلة للأخذ والرد، وذلك حسب قدرتك لتبريرها أو لعدم تبريرها.

6. الاستنتاجات

هي عبارة عن نشاطات وتفاعلات عقلية يعتمد عليها المفكر في التوصل إلى أن شيئاً ما صحيح في ضوء شيء آخر صحيح، فأنت إذا قدمت عليّ ويديك سكين، فأنا قد أستنتج أنك تقصد أذيتي، وإذا شاهدت سيارة شرطيّ تتبعك، تستنتج بأنه سيرفك لمخالفة قد ارتكبتها، وإذا شاهدت شخصاً يقرأ كتاباً لكارل ماركس، قد تستنتج أن القارئ شيوعي الفكر، والاستنتاجات يمكن أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، منطقية أو غير منطقية، مبررة أو غير مبررة، لذلك ينبغي على المفكر ولاسيما طالب العلم العاقل أن يكون واعياً للاستنتاجات التي يصوغها والافتراضات المتضمنة تفكيره لثبوته من التحكم في تفكيره، ولأننا بطبيعتنا نميل إلى الاستنتاج، ففوة تفكيرنا تقوم على قدرتنا على استخدام هذا العنصر الكامن في فكرنا وتفكيرنا.

7. التداخيات

هي ما يتضمنه الفكر أو التصريحات الفكرية أو الناجمة عن الفكر والتفكير، فإذا قلت لشخص "إني أحبك"، تعني وتتضمن عبارتك أنك مهتم به وبوضعه الصحي، وإذا وعدت شخصاً بشيء ما، فيتضمن وعدك هذا، أنك ستفي بوعدك، وإذا سميت نظاماً بأنه ديمقراطي، فتتضمن عبارتك أن القوة السياسية هي في أيدي الشعب، فمصداقية الناس تكون بمقدار صدق تداعيات ومتضمنات ما يقولون، ويقال عادة "قل ما تعنيه واعين ما تقوله".

8. وجهات النَّظَر

هي نقطة أو نقاط تركيز أو توجّه الفكر والتّفكير، فتفكيرنا يكون مرّكزاً على نقطة ما من زاوية ما، فنحن يمكننا أن نغيّر ما نركّز عليه أو نغير زاوية تركيز تفكيرنا، وعادة نسمي الزاوية الّتي نفكر من خلالها، فمثلاً، عندما نفكر فنحن نفكر من وجهة نظر سياسية أو علميّة، أو شعرية أو فلسفية، أو غيرها، وقد ننظر في الأمور أحياناً من منظار محافظ أو ليبراليّ أو دينيّ أو علمانيّ، أو قد ننظر فيها من وجهة نظر ثقافيّة أو ماليّة، لذلك عندما نفهم كيف ينظر النّاس إلى السّؤال أو الموضوع، فنحن في وضع أفضل لفهم كل ما يجول في تفكيرهم. إن التّمكن من استخدام هذا العنصر هامّ جداً وجوهري لأن معظمنا وبشكّل قطريّ يفكر من وجهة نظر محدّدة، لكن ليس بالضرورة يستطيع الواحد منا تحديد وجهة نظر الآخرين، وإنّما يمكنه أن يستعين بأهمّ المصادر الّتي نستخدمها في تشكيل أو صياغة وجهات نظرنا، منها مايلي:

- الزمن : هل هو في القرن السادس أم القرن الخامس عشر أم القرن التاسع عشر؟
- الثقافة : هل هي ثقافة غربيّة أم شرقية، أم يابانية أم صينية أم تركية؟
- الدّين : هل هي إسلامية أم مسيحية أم يهودية أم بوذية؟
- الجنس : هل هو ذكر أم أنثى؟
- التخصّص هل هو كيميائية أم جيولوجية، أم اجتماعيّة أم أدبيّة أم فنية، أم طبية، أم غيرها؟
- المهنة : هل هو مدرس، أم محام، أم طبيب، أم مهندس، أم غيرها؟
- الأصدقاء
- المصلحة الإقتصاديّة
- الحالة العاطفيّة
- الدّور الاجتماعيّ

فوجهة نظر المفكر تعكس هذه الأبعاد جميعها أم بعضها.

هـ. معايير التفكير التقديري

من سنن الله سبحانه وتعالى في خلق الأشياء أنه وضع لكل شيء من الأشياء أو لكل أمر من الأمور مقاييس ومعايير تساعد الإنسان في معرفة كيف يعمل في هذه الحياة في مختلف مجالاتها الحياتية، فأحد المعايير، على سبيل المثال، التي تُستخدم للحكم على مدى جودة وقبول عمل الإنسان عند الله ﷻ هو معيار التقوى، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَلْمُهُ اللَّهُ وَيَرْذَوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 197] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ نَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَاٍ جَرَفٍ فَاهْوَاٍ فِيهِ فَاكْرَهُ اللَّهُ ذَا بُدْيٍ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: 109].

وفي هذا السياق أكد سيدنا محمد رسول الله ﷺ على النية في العمل كمعيار أساسي لمعرفة نوعية وقيمة وجودة العمل الذي يقوم به الإنسان، فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"¹.

ومن هذا المنطلق نستخدم معايير أو مقاييس محددة لمعرفة مدى جودة أدائها أو عملنا على المستوى الوظيفي أو الإداري أو التعليمي أو الفكري، أو غيرها من الأعمال، وما يهمنا في بحثنا هذا هي المعايير التي يمكن أن نستخدمها في معرفة مدى جودة فكرنا وتفكيرنا بشكل عام، وعناصر الفكر والتفكير لدينا بشكل خاص.

لتحسين جودة عناصر الفكر والتفكير لدينا (الغرض، المشكلة، المعلومات، المفاهيم، الافتراضات، الاستنتاجات، التذاعيات، وجهات النظر)، ينبغي أن نملك القدرة على تقويمها بشكل منظم ومنظم مستخدمين معايير عالمية قد اتفق عليها العلماء والباحثين على

¹ صحيح البخاري، رقم 1

أما تساعدنا في تطوير فكرنا وتمكننا من القيام بعملية التفكير بشكل عميق وفعال، ومن هذه المعايير مايلي مع شيء من التفصيل لأهميتها في التفكير النقدي:

1. الوضوح

أهم المعايير الوضوح في الفكرة أو التفكير، فإذا كانت الكلمة، أو العبارة، أو الجملة، أو السؤال غير واضح، لا يمكن أن تحكم عليه بأنه صحيح أو له صلة بموضع النقاش أو البحث، بل لا يمكن أن تعتمد كلياً لأنه غير واضح، ومثال على ذلك السؤال التالي: "ما يمكن فعله بخصوص نظام التعليم في الوطن العربي؟"، ولجعل مثل هذا السؤال أكثر وضوحاً، يمكننا أن نصوغه كالتالي: "ماذا يستطيع التربويون فعله من أجل التأكد أن الطلاب يتعلمون مهارات وقدرات تساعدهم في أداء عملهم بنجاح وفي صناعة قرارهم اليومية؟". لتحسين معيار 'الوضوح' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل يمكنك أن تتوسع في هذه النقطة؟
- هل يمكنك أن تعبر عن تلك النقطة بأسلوب آخر؟
- هل يمكنك أن تعطي توضيحاً لذلك؟
- هل يمكنك أن تعطي مثلاً لذلك؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعد على الوضوح والتوضيح.

2. الصحة

صحة المعلومة ضرورية جداً في عصر للأسف كثر فيه الكذب في القول والعمل، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة لكن ليس بالضرورة صحيحة، ومثال على ذلك قولنا: "معظم الجمال وزن 1000 كغ"، وهذا تعميم غير مقبول وغير صحيح ولجعله صحيحاً ينبغي أن نذكره وفقاً لأوزانها الحقيقية، وكذلك عندما نشاهد إعلاناً يقول: "مياه صافية

100% "علماً أنه في الحقيقة تحتوي المياه على أجزاء صغيرة مثل الكلورين، فالمفكر الراكد في تفكيره لا يعطي أهمية لمدى صحة المعلومة، بينما نجد المفكر المتقدم أو المفكر الماهر المتمرس دائماً يستمع للمعلومة بعقل ناقد وبقلب يقظ ويتأكد فيما إذا كانت تلك المعلومة صحيحة أو غير صحيحة، ولتحسين معيار 'الصحة' في فكرك وتفكيرك وجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل هذه المعلومة فعلاً صحيحة؟
- كيف يمكنك أن تتأكد من صحة المعلومة؟
- كيف يمكنك أن تبحث لمعرفة فيما إذا كانت تلك المعلومة صحيحة؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة ما هو صحيح أو غير صحيح.

3. الدقة

الدقة في المعلومة من أساسيات التفكير السليم، وضرورة من ضروريات حياتنا اليومية، حيثكثر فيها الغموض والمبالغة في الأشياء والأمور، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة وصحيحة لكن ليس بالضرورة دقيقة، ومثال على ذلك قولنا: "أحمد سمين"، (فنحن لا نعلم كم وزن أحمد زائد عن الوزن الزائد المسموح فيه)، ولجعل مثل هذا القول دقيقاً، ينبغي أن نذكره مع شيء من التفصيل ليتبين المعنى المقصود من المعلومة، ومثال آخر على ذلك صديق يقول لك "إنني في ضائقة مالية، هل تقرضني مبلغاً من المال؟" فأنت هنا قد تقع في حرج من أمرك لأن طلب صديقك غير دقيق بالرغم من أنه واضح وصادق في طلبه، فلو أنه قال: "إنني في ضائقة مالية، هل تقرضني مبلغاً قدره ألف درهم على أن أعيدها لك في نهاية الشهر، إن شاء الله؟" قد لا تشعر بالحرج وترد عليه بالقبول، وذلك لأنه كان واضحاً وصادقاً ودقيقاً في طلبه، ولتحسين معيار 'الدقة' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل يمكنك إعطائي تفاصيل أكثر؟

- هل يمكنك أن تكون أكثر دقة في طرحك لمسألتك؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة ما هو دقيق أو غير دقيق.

4. وثيقة الصلة بالموضوع

وثيقة الصلة بالموضوع أو السؤال أو القضية معيار يُعمل به لمعرفة مدى جَوْدَةُ الفكر أو التَّفَكُّير لدينا، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة، وصحيحة، ودقيقة، لكن ليس بالضرورة أن تكون ذات صلة وثيقة بالموضوع، ومثال على ذلك قولنا: "أن كمية الجهد الذي يبذله الطالب في البرنامج الدراسي يساهم في رفع مستوى درجاته، علماً أن الجهد لا يقيس جَوْدَةُ تعلم الطالب، فلذلك يُعدُّ هذا النوع من التَّفَكُّير لا صلة له بموضوع الدرجات"، فحتى يكون الأمر له صلة وثيقة ينبغي أن يكون له علاقة مباشرة بموضوع النقاش، وأن تكون إمكانية تطبيقه على مشكلة موضوع البحث المطروح ممكنة، ولتحسين معيار 'وثيقة الصلة بالموضوع' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منها، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- كيف تكون هذه الفكرة أو المعلومة متعلقة بالسؤال المطروح؟
- كيف يمكن لهذه الفكرة أو المعلومة أن يكون لها تأثير على القضية ؟
- كيف يمكن لهذه الفكرة أو المعلومة أن يكون لها صلة بهذا الموضوع أو غيره؟
- كيف يتعلّق سؤالك بالقضية المطروحة؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة ما له صلة وثيقة بالموضوع من غيره.

5. العمق

العمق في الفكر والتَّفَكُّير دلالة على غوص المفكر تحت سطحيات المسألة أو القضية ليحدد التعقيدات الكامنة فيها، ثم يعالجها بأسلوب فِكْرِيٍّ مسؤول، فالفكر يعمل عادة بشكلٍ أفضل عندما يتبين لدينا أن الأسئلة معقّدة وبحاجة لمعالجة كل ناحية من التعقيدات

فيها، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة وصحيحة، ودقيقة، وذات صلة وثيقة بالموضوع، لكنها سطحية وينقصها العمق، ومثال على ذلك جوابك عن السؤال التالي: "ماذا يجب فعله لمحاربة مشكلة المخدرات في أمريكا؟" بقولك: "قل لا للمخدرات"، فهذا الشعار واضح، وصحيح، ودقيق، وذو صلة بالموضوع، لكنه سطحي ينقصه العمق لأنه لم يتعامل مع قضية معقدة جداً بأسلوب بسيط، فهي لم تعالج المشكلة من الناحية التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والنفسية، وهكذا، ولتحسين معيار 'العمق' في فكرك وتفكيرك وجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- كيف يتعامل جوابك مع الأمور المعقدة الموجودة في السؤال؟
- كيف تأخذ المشاكل في السؤال بعين الاعتبار؟
- كيف تتعامل مع العوامل الهامة في المشكلة؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة ما هو عميق أو سطحي؟

6. الاتساع

الاتساع في الفكر والتفكير دلالة على النظر في القضية أو المسألة من كل جهات النظر التي لها صلة وثيقة بالموضوع، فإذا لم يفعل المفكر ذلك، يكون قد ضيق واسعاً، واكتفى بالقليل، واتصف بقصور وضيق في فكره وتفكيره، إذ يمكن للمعلومة أو الفكرة أن تكون واضحة وصحيحة، ودقيقة، وذات صلة وثيقة بالموضوع، وعميقة، لكن ينقصها الاتساع، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالشخص المحافظ يناقش القضية من وجهة نظر تفكيره، غير معتدٍّ بوجهات نظر الليبرالي، والجار يستمع للموسيقى بصوت عالٍ بدون مراعاة حق جاره فيما يكون نائماً أو مذاكراً لدروسه، والأم تقرر نوع الطعام بدون التفكير بما يرغبه أو لا يرغبه الأولاد، يعود هذا الفكر أو التفكير الضيق إلى جهل وقلة علم ومعرفة بالأشياء أو الأمور، أو أنانية ذاتية أو أنانية مجتمعية، أو خلداع ذاتي، أو كبر وتكبر فكري وتفكير، فلكي يتصف الفكر أو التفكير بالاتساع ينبغي أن يغطي وجهات نظر

عديدة ومختلفة لما صلة وثيقة بموضوع البحث أو النقاش، ولتحسين معيار 'الاتساع' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل أنت بحاجة للنظر في وجهة نظر أخرى؟
- هل هناك طريقة أخرى للنظر في المسألة أو القضية؟
- كيف يبدو الأمر من وجهة نظر محافظة أو متحررة؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة الاتساع أو الضيق في الفكر والتفكير.

7. المنطق

المنطق في الفكر والتفكير هو جمع ووضع مجموعة متنوعة من الأفكار في ترتيب معين، بحيث تدعم هذه الأفكار المجتمعة بعضها بعضاً لتعطي معنى منسجماً، فعندما لا يوجد هذا التوافق والدعم المتبادل بين الأفكار المرتبة يحصل التناقض بينها، وتفقد معناها، وبهذا تفقد منطقيتها، فعلى سبيل المثال، أنت تعلم شخصاً قد عانى من نوبة قلبية، وطيبه أخيره أن يحذر مما يأكل ليتجنب أية مشكلة صحية في المستقبل، رغم هذا كله تجده يقول إن ما يأكله لا يهم، هذا القرار أو القول غير منطقي لأنه يتعارض مع الأدلة. فلكي يتصف الفكر أو التفكير بالمنطق ينبغي أن يكون هناك علاقة وثيقة بين عناصرها، ولتحسين معيار 'المنطق' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل الفكرة مرتبطة ومرتبطة ومنسجمة مع بعضها بعضاً بشكل منطقي؟
- هل تعطي معنى منسجماً؟
- هل تأتي نتيجة لفكرة سابقة؟
- كيف علاقتها بالأدلة المطروحة؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة منطقيّة فكرك وتفكيرك.

8. الأهمية

'الأهمية' في الفكر والتفكير هو مغزى ودلالة المعلومات في فكرنا وتفكيرنا، واعتداداً بأهم الأفكار أو المفاهيم، فكثيراً ما نشغل في تحديد النقاط المهمة أو دلالة فكرة ما أو مفهوم في قضية ما أو مسألة ما، أو طرح أسئلة هامة، وهذا ما يجعل قضيتنا تحتوي على مسائل سطحية أو قليلة الوزن والأهمية، فعلى سبيل المثال، بدل أن يطرح الطالب سؤاله "ماذا ينبغي علي أن أفعله حتى أصبح إنساناً مثقفاً؟" يطرحه كالتالي: "ماذا ينبغي علي أن أفعل حتى أحصل على درجة ممتازة في المادة المعينة؟ أو في كم صفحة يجب أن أكتب هذا البحث؟ أو ماذا أفعل حتى أُرْضي مُعلّمي؟" فلنكي يتصف الفكر أو التفكير بأنه ذو مغزى ودلالة ينبغي أن يحتوي على أسئلة ذات مغزى أو نقاط بحث ذات دلالة أو أفكار مهمة، ولتحسين معيار 'الأهمية' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- ما هي أهم المعلومات التي تحتاجها لمعالجة هذه المسألة أو القضية؟
- ما هو مغزى أو دلالة هذه أو تلك الحقيقة أو المعلومة في النص؟
- أي من هذه الأسئلة هي الأهم في معالجة هذه المسألة أو القضية؟
- أي من هذه الأفكار أو المفاهيم هي الأهم في معالجة هذه المسألة أو القضية؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة 'الأهمية' في فكرك وتفكيرك.

9. عدم الانحياز

هي أن يتصف الفكر والتفكير بالعدل، لما للعدل من دور في حياتنا الفكرية والعملية، فالواحد منا يميل دائماً للاعتقاد أن فكره وتفكيره خال من الانحياز، وأن لديه أسباباً مبررة لذلك، علماً بأنه يرفض معلومات هامة قد تغير من تفكيره، فلأسف دائماً نميل لاستخدام أغراض غير مبررة من أجل أن نحصل على ما نريد حتى ولو أدى ذلك إلى أذى الآخرين، ونستخدم مفاهيم بأسلوب غير مبرر للتلاعب بالآخرين. والافتراضات غير

المسيرة، والحقائق غير المؤكدة التي تؤدي إلى استنتاجات خاطئة، فعلى سبيل المثال، قولنا: "لا علاقة للمدرسة في الحياة اليومية للطلاب" أو "كبار السن لا يمارسون الرياضة" أو "أكل الجوز يقوي النظر"، فلكي يتصف الفكر أو التفكير بالإنصاف وعدم الانحياز، ولتحسين معيار 'عدم الانحياز' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل التفكير بهذه الطريقة مبرر معتداً بالدليل المتوفر؟
- هل الافتراضات المذكورة مبررة؟
- هل غرضي نحال من الانحياز معتداً بتداعيات سلوكي؟
- هل الأسلوب الذي أعالج فيه المسألة أو القضية محايد أم غير محايد؟
- هل أستخدم المفاهيم بشكل مبرر أم بشكل انحيازي؟
- وغيرها من الأسئلة التي تساعدك في معرفة 'عدم الانحياز' في فكرك وتفكيرك.

العلم وسماته

العلم سمة من أسمي وأجمل السمات التي أئسم بها الخالق ﷻ، لما فيها من قوة في النطق، وفخامة في المعنى، ودلالة في رفعة المقام، فقد ذكرت هذه السمة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم لاثبات أهميتها وجلالها، لاسيما عندما تدل على علم الله ﷻ المطلق الشامل الكامل في شكله ومضمونه. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]. وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرَفُ وَالتَّعْزِيبُ فَأَيُّهَا تَوَكَّلُوا فَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115].

وأن "العليم" هو اسم من أسماء الله الحسنى، ذكره الله ﷻ اثنين وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم لجمال لفظه، وعظمة شأنه، وقوة معناه: قال الله ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: 8]. وقال تعالى: ﴿وَالشَّيْءُ نَجْرِي لِنُسْقِرَ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يسين: 3]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: 26]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ كُنَّا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. وقال الله ﷻ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله وهو يثني على مولاه عز وجل هذه الأبيات الجميلة¹:
 وَهُوَ الْعَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانٍ
 وَيَكُلُّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْتَانٍ
 وَكَذَلِكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودُ فِي ذَا الْآنِ
 وَكَذَلِكَ أَمَرَ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ فَكَيْفَ يَكُونُ ذَا الْأَمْرِ ذَا إِمْتِكَانٍ

والعلم أيضاً حصيصة من أفضل الخصائص المميّزة التي أعطاها ربنا جلّ جلاله للأنبياء والمرسلين حتى يؤدوا رسالتهم كما أمرهم على أكمل وجه. فأول نبي تلقى العلم من الله علام الغيوب هو آدم عليه السلام، فقد قال ﷺ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31]. وقال تعالى في يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 22]. وقال تعالى في أولى آياته إلى الرسول الكريم محمد ﷺ كدعوة إلى القراءة والتعلم: ﴿اقْرَأْ

¹ رائق الشهيد مع الله من شعر الدعوة والرفائق والزهد ص 74

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق: 1-5].

وتكريمًا من الله ﷻ لابن آدم أنه فضله على سائر مخلوقاته بالعقل والعلم، فيقدر ما يحمل الإنسان من علم نافع، ومعرفة خيرة، يرتفع شأنه وتعلو مكانته، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَسْرِعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]. وقال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: 76]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

فالعلم نور يثبه الله في قلوب من يشاء من عباده، فمنهم من يتق الله ويخشاه في دينه ودنياه، فيكون عالمًا، وعاملاً، وقائلاً بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم محمد ﷺ، ومنهم من يتكبر، ويأنف، ويرفض كتاب الله ودعوة الحق التي جاء بها محمد رسول الهدى ﷺ، فتكون نهايته تعيسة وخيمة، ما لها جهنم وبئس المصير، عافانا الله وإياكم. فيها هو العنيد الرعدي، الكافر الضالُّ المضلُّ الوليد بن المغيرة، قاتل الله أمثاله، بعد أن أنعم الله عليه بنعم الدنيا، وبعد علمه أن القرآن الكريم هو كلام الله نزل بوحي على الرسول المصطفى ﷺ، استكبر وكفر وحجده بآيات الله وافترى عليها بأنها سحر وأما ليست إلا كلام بشر، فأنزله الله تعالى فيه هذه الآيات البينات لتكون عبرة له ولأمثاله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْنِيدًا * ثُمَّ يَطْعَمُ أَنْ أَنِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِكْبَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَعَا وَفَدَّرَ * فَتَنَلَّ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَبِلَ كَيْفَ

قَدَرٌ * ثُمَّ ظَنَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ * ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سَحَرُؤُنْزِرُ﴾
 * إِنَّ هَذَا إِلَهٌ قَوْلُ الْإِنشِرِ * سَأُضِلُّهُ سَقَرٌ ﴿[المندر: 11-25].

العلم سمة المؤمنين، فمن أهم سمات العلم الصحيح الإيمان بالله ﷻ علام الغيوب، فلا قيمة للعلم - لا في الدنيا ولا في الآخرة - إذا لم يتحلل صاحبه بنعمة الإيمان بالله ﷻ، وكتبه، ورسوله وملائكته، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، خيره وشره، فالعلم والإيمان يكمل بعضهما بعضاً، فباتفاقهما وازديادهما يسعد العبد في الدنيا والآخرة، ويتناهما ونقصانهما يتعس العبد في الدنيا والآخرة، والله أعلم. روي أن وهب بن منبه رحمه الله، قال: "العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيمه، والصبر أمير جنوده، والرفق أبوه، واللين أخوه".¹

وفي هذا السياق يقول ابن قيم الجوزية² رحمه الله: "إن أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56]. وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]. وهؤلاء هم

¹ سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ج4/ص548

² هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، الدمشقي، شمس الدين، المعروف بابن قيم الجوزية، كان أبوه قيمياً على المدرسة الجوزية، فتمسب إليها. ولد سنة 691هـ وتوفي في شهر رجب سنة 751، لازم الشيخ تقي الدين ابن قيمية، وتأثر به كثيراً، له مؤلفات كثيرة، منها: "زاد المعاد في هدي خير العباد"، "أعلام الموقعين عن رب العالمين"، "الطلب النبوي"، "مدارج السالكين"، "الفوائد" وغيرها كثير.

خلاصة الوجود ولبه، والمؤهّلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما¹ العلم قوة وبأس، والجهل ضعف وبأس، العلم شجاعة وإقدام، والجهل حبن وعجز، والعلم صفة أصحاب القرارات السليمة والقيادات الحكيمة، وسمة القادة الأقوياء الأشداء عند لقاء العدو، يحياها الجندي في قائده، ويخشاه العدو في خصمه، فالعلم أهم وأفضل من المال والجاه في قيادة الجيوش وترهيب العدو. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكًا مِنْ يَسَاءٍ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

قال ابن كثير² رحمه الله: "أَيُّ لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْدَادِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ لِأَنَّ الْمُلْكَ كَانَ فِي سَبْطِ يَهُودَا وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السَّبْطِ فَلِهَذَا قَالُوا "أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا" أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا "وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ" أَيُّ ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ سَقَاءَ وَقِيلَ دُبَاغًا وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنَّتْ وَكَانَ الْأَوَّلَى بِهِمْ طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ" أَيُّ اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ يَقُولُ لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي بَلِ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ "وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ"

¹ الفوائد لابن القيم الجوزية ص 131

² هو أبو الغداء الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عُمر بن كثير، ولد في مدينة بُصْرَى الشَّام سنة 700 هـ وتوفي سنة 774 هـ، تعلَّم عند شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت 728 هـ) والحافظ شمس الدين الذهبي (ت 748 هـ) رحمهما الله، من أشهر مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية في التاريخ.

أَيُّ هُوَ مَعَ هَذَا أَغْلَمَ مِنْكُمْ وَأَتَمَّلَ وَأَشْكَلَ¹ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ وَمَعْرِفَةً فِيهَا أَيُّ أَنْتُمْ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ وَمِنْ هَاهُنَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ وَشَكْلٍ حَسَنٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي يَدَيْهِ وَنَفْسُهُ ثُمَّ قَالَ "وَاللَّهِ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ" أَيُّ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَّ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ وَلِهَذَا قَالَ "وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" أَيُّ هُوَ وَاسِعَ الْفَضْلِ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ عَلَيْهِمْ بِعَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكُ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ².

العلم سمة للمتقين الأخيار، والعلماء الأبرار، الذين يخشون ربهم في السر والعلانية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28]، والجهل سمة الكفار والمنافقين الذين رفضوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقَّ بِمَأْكَاسٍ يَخْلَعُ الْأُذُنَ وَإِدَّاءٌ يَصْرُبُ كُرْغُمِي فَيَهْدَى لَأَيِّقُلُونَ ﴾ [البقرة: 171]،

والعلم سمة العقلاء والفضلاء، وأصحاب الرأي السديد، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَذِبَافًا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ عَلَيْهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 14]، والجهل سمة الحمقى وأصحاب الرأي الممجج الملامج³، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَافِحْ مَنِ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: 46]، وأمر نبيه بالإعراض عن الجاهلين، فقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَقْلَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]

1 * (هنا جاءت "أشكل" بمعنى أكثر موافقة وملاءمة للموقف القيادي وما يتطلبه من صفات توفرت له وليست في غيره.)

2 تفسير ابن كثير ص 180-181

3 مثل ليل لاليل، لاحق فيه، ولاخير فيه، ولامنطق فيه، ولاعقل فيه

والعلم صفة الكرماء النبلاء، وسمه كبار القوم، وميزة السعداء من الناس، يقول الإمام الشافعي¹ رحمه الله:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبَهُ كَرِيمٌ	وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءُ لِقَامٌ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ	يُعْظَمَ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ	كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ	وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ

وفي الجهل قيل انه موت لصاحبه قبل أوانه، ومن خلى قلبه من العلم، كان جسده كجسد ميت لا حياة فيه، كما قال الشاعر²:

وَيَا الْجَهْلَ قَبْلَ الْمَوْتِ لَأَقْلَهُ	وَأَجْسَادَهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ
وَرَأَى أَمْرًا لَمْ يُخَيَّ بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ	فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى التُّشُورِ ³ تُشُورُ

فأهل الجهل لا يعرفون قيمة وفضل العلم لأنه لا يُعرف شرف ورفعة العلم إلا بالعلم، فالجاهل يبخس العلم، ويزدري صاحبه لأنه لم يتذوق حلاوة العلم، فجهله يصور له الأمور كلها حسب ما يريد هواه، وتقوده حماقته، فتراه يبغض العلم وتشمئز نفسه من ذكره، ويسخر من طالب العلم، ويعادي العلماء لجهله بعلمهم وبفضلهم، وهذا ما أكدّه الشاعر أبو بكر بن دريد الأزدي البصري⁴ في هذين البيتين⁵:

¹ شرح ديوان الإمام الشافعي (ص 83)

² أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص 38

³ التثشور: البعث

⁴ هو محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر الأزدي البصري، كان شاعراً وعالماً بالعربية وأشعار العرب، توفي سنة 321 هـ.

⁵ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص 38

جَهَلَتْ فَعَادَيْتِ الْعُلُومَ وَأَهْلَهَا كَذَلِكَ يُعَادِي الْعِلْمَ مَنْ هُوَ جَاهِلُهُ
وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّراً وَيَكْرَهُ "لَا أُدْرِي" أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

ومن خصال العلم المُمَيِّزة أنه لا حدود له، ولا نهاية له ولو بلغ العبد فيه ما بلغ، ففوق علمه علم آخر، وفوق ذلك العلم علم آخر إلى غير نهاية، فمهما أوتي الإنسان من علم، فهو كالسباح في البحر لا يرى قاعاً، ولا يدرك طولاً، ولا يعرف عرضاً، وذلك لأن علم الإنسان قليل ومحدود وناقص مهما تعمق في علمه، يقول الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]

وفي هذا السياق، أنشد الخليفة العباسي هارون الرشيد¹ هذين البيتين:

يَا نَفْسُ خُوضِي بِحَارِ الْعِلْمِ أَوْ غُوصِي فَالْتَأَسِ مَا بَيْنَ مَعْمُومٍ وَمَخْضُوضٍ
لَا شَيْءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا نُحِيطُ بِهِ إِلَّا إِخَاطَةَ مَنْقُوصٍ بِمَنْقُوصٍ

وروي عن البخاري أنه قال: "صَحِبَ سَلْمَانَ رَجُلٌ مِنْ عِبَسٍ قَالَ: فَشَرِبَ مِنْ دَجَلَةِ شَرِبَةٍ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: عُدْ فَاشْرَبْ، قَالَ: قَدْ رَوَيْتُ. قَالَ: أَتَرَى شَرِبْتَكَ هَذِهِ تَقْصُصْتُ مِنْهَا؟ قَالَ: وَمَا يَنْقُصُ مِنْهَا شَرِبَةٌ شَرِبْتُهَا؟ قَالَ: كَذَلِكَ الْعِلْمُ لَا يَنْقُصُ، فَمَنْ خَلَدَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَنْفَعُكَ"³.

¹ هو هارون الرشيد بن محمد المهدي، الخليفة العباسي الخامس، ولد بالري سنة 145 هـ وتوفي في جمادي الآخر سنة 194 هـ، وصلت الخلافة العباسية في عصره إلى أعلى درجاتها من حيث قوة السلطان، والثروة الحضارية والمادية والعلمية والأدبية، كانت مدة خلافته 23 سنة وشهرين.

² أنب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص 39

³ حياة الصحابة، للكاتب دهلوي، ج 3/159

تعريفُ العلم

لقد كثر القول في تعريف مسمى "العلم"، واختلفت الآراء في تحديد معناه، وتعددت الأقوال في رسم حدود مفهومه ومضامينه، فمنهم من أصاب واستقام، ومنهم من أخطأ وضل.

لغةً، عِلِمٌ - عِلِمٌ - أي دري وأدرك وعرف، والعلم بالشيء هو إدراك ومعرفة جازمة به، ونقيض العلم بالشيء هو الجهل به. كقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِرِّيَ أَغْلَحُ مِنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: 85]. وقولنا: علمت بخبر نجاحه في امتحان الثانوية العامة، وقولنا: "لا علم لدي أنه فشل بدراسته".

العِلْمُ - اصطلاحاً - هو كل ما يملكه الشخص من معرفة مهما كان نوعها وطبيعتها، وما يملكه من مهارات بكافة أنواعها، ومن خبرات مهما اختلفت في تنوعاتها وتخصصاتها، وما يملكه من ثقافات سواء كانت سابقة أو حاضرة أو مستقبلية. يُقال رجلٌ عالم، أي رجلٌ عارف، مدرك وواع للأمر.

العلم - صفة - هو كما وصفه لنا بديع الزمان الهمذاني¹ فقال: "العلم شيء بعيد المرام، لا يُصَادُ بالسَّهَامِ، ولا يُقَسَّمُ بالأزلام³، ولا يُرى في المنام، ولا يُضَبَطُ باللجام⁴، ولا يُكْتَبُ للثَّام، ولا يُورَثُ عن الآباء والأعمام. وزَرْعٌ لا يَزْكُو⁵ إلَّا متى صادف من الحزم ثرى⁶ طيباً، ومن التوفيق مطراً صيباً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد رَوْحاً⁷ دائماً،

¹ هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترمّل، والشاعر المديد، توفي 393 هـ.

² المرام: الهدف، المقصد.

³ بالأزلام: المراد أن العلم لا ينال بالصدفة بل بالبحث والمثابرة.

⁴ اللجام: الحديد في فم الفرس.

⁵ يزكو: ينمو ويطيب.

⁶ ثرى: الثرى، الثواب.

⁷ روحاً: الروح نسيم الريح، أي للريح الخفيفة العظيمة.

ومن الصبر سقياً نافعاً. وَغَرَضٌ لَا يُصَاب إِلَّا بِافْتِرَاشِ الْمَدَرِ¹، واستناد الحجر، وَرَدَ الضَّحَرَ، وركوب الخطر، وإدمان السَّهْرِ، واصطحاب السَّفَرِ، وكثرة التَّنَظُّرِ، وإعمال الفكر.²
ومن حَكَمَ بطليموس³ أَنَّهُ قَالَ: "العلم في موطنه كالذهب في معدنه: لا يستنبط إلا بالتَّوْبِ، والتَّعَبِ، والكَدِّ، والنَّصَبِ؛ ثمَّ يجب تخليصه بالفكر، كما يخلص الذهب بالنَّارِ"⁴.

وفي العلم وحقيقته، رُوي أَن عبد الله بن عُمَرَ⁵ رضي الله عنهما قال: "العلم ثلاثة أشياء: كتابٌ ناطق، وسُنَّةٌ ماضية، و" لا أدري"⁶. وذلك لأنَّ "لا أدري" اعتراف حقيقيٍّ وورعٌ وتواضع! فنحن هنا أمام عالم إذا سئل، لا يظن بنفسه أَنه سقف المسألة، ما دام لا يمتلك دليلها. ومن ثَمَّ يمضي ليتعرَّفَ إليه في الكتاب والسُنَّةِ، ولسوف يكون مناطٌ ثقةً بعلمه ممن يسأله. وفي النهاية لن يرح المسلم كتابَ رَبِّهِ وسُنَّةَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم، فهو بين من يفهم الكتاب والسُنَّةَ، أو من يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، ولا ينبغي أن يُخرَجَ عن هذين الحالين. وأجدي هنا مضطراً للتذكير بأن المجتمع المسلم، يوم غادر مسألة الدليل الشرعي تخلخل واضطرب وذهبت ريجته، والتوت ذراعه أمام الغزو الفكري، والتبشيري، والاستعماري.

¹ المدر: قطع للطين اليابس.

² جواهر الأدب ص 320

³ بطليموس: هو فلكي وجغرافي يوناني، نشأ في الإسكندرية، له "المجسطي" وجغرافية بطليموس (ت 168 ق.م).

⁴ الملل والنحل للشَّهرستاني ج 2/ ص 111

⁵ هو عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن القرشي المكي ثم المدني، الإمام للقوة شيخ الإسلام، أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه لم يحنل، واستصنرَ يوم أحد حيث كان عمره 14 سنة، فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة، روى علماً كثيراً نافعاً عن النبي ، توفي في مكة سنة 73 هـ، عن عمر بلغ 87 سنة.

⁶ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج 2/ص 24

وروي عن محمد بن أبي قيلة أنه قال: "إن رجلاً كتب إلى ابن عمر رضي الله عنهما يسأله عن العلم، فكتب إليه ابن عمر: لئلك كتبت تسألني عن العلم، فالعلم أكرم من أن أكتب به إليك، ولكن إن استطعت أن تلقى الله كاف اللسان عن أعراض المسلمين، خفيف الظهر من دمائهم، خيص البطن من أموالهم، لازماً لجماعتهم، فافعل"¹.

وعن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: "ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نص في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع أو القياس على هذه الأصول ما في معناه"².

ذكر ابن عبد البر القرطبي³ رحمه الله أن العلم عند بعض أهل العلم ثلاثة أنواع:

1. علم أعلى: وهو علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أوله الله ﷻ في كتبه وعلى السنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً.
2. علم أوسط: وهو معرفة علوم الدنيا والتي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة.
3. علم أسفل: وهو أحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والقروسة والزي والخط وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتي عليها وصف وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها.⁴

وقال ابن خلدون⁵ في أصناف العلوم: "اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويستداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعليماً، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي

¹ حياة الصحابة، للكندهلوي، ج3/ص159

² جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج2/ص26

³ هو أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي، الإمام المحدث المجتهد حافظ المغرب، ولد في قرطبة سنة 368 هـ وتوفي سنة 463 هـ.

⁴ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج2/ص37

⁵ هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي الباحث، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بترنس، توفي في القاهرة سنة 808 هـ.

إليه بفكره، وصنف نقلياً يأخذُه عَمَن وضعه، والأول هي العلوم الحكيمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركة البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يَقِفُ نظره وبخه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل، إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأنَّ الجزئيات الحادثة المتعاقبة، لاتندرج تحت النقل الكلي. بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس ينفُرعُ عن الخير، بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرُّعه عنه، وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات، من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي هيأوها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي، الذي هو لسان الملَّة وبه نُزِّلَ القرآن، وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى إبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق، فلا بد من النظر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله ﷻ، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى أصحابها، والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم، ويُعَمَّلَ ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث¹

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: "إن العلم الذي هو محل الثناء هو العلم الشرعي، الذي هو فقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وماعدا ذلك فإما أن يكون وسيلة إلى خير، أو وسيلة إلى شر، فيكون حكمه بحسب ما يكون وسيلة إليه"²

¹ مقدمة ابن خلدون (333/1)

² كتاب العلم، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 10

إضافة إلى ما ذكرته أعلاه، يمكننا أن نقول: أن العلم هو كل علم نافع يحث الشرع عليه، ويُقَرَّب طالب العلم من الله ﷻ، ولا يتعارض مع عقيدة التَّوْحِيدِ وسنة الرسول محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وما كان عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، والسَّلَف الصالح رحمهم الله، سواء كان العلم يختص بدراسة كتاب الله، أو السَّنة النبوية الشريفة، أو الفقه، أو حتى العلوم الكونية كعلم الطب والهندسة والرياضيات، واللغة وغيرها من العلوم النَّافعة، طالما أنه لا يخالف الشريعة الإسلامية السمحاء، وعقيدة التَّوْحِيدِ، ومبدأ العقل والنقل، وتوافق العمل بالعلم مع أحكام الشرع.

حُكْمُ طَلَبِ الْعِلْمِ

معظم ما قِيلَ أو كُتِبَ في حكم طلب العلم يعود مرده وأساسه للحديث المشهور عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"¹. بعد أن روى ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم) ما قيل في شرح حديث أنس رضي الله عنه وبيِّنَ وجهات نظر السَّلَفِ الصالح، قال في حكم طلب العلم:

"قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرضٌ على الكفاية إذا قام به قائمٌ سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع، واختلفوا في تلخيص ذلك.

والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك: ما لا يسعُ الإنسان جهله من جُملة الفرائض المفترضة عليه، نحو: الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له، ولا شِبةَ لهُ ولا مثل، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ، خالقُ كلِّ شيءٍ، وإليه مرجع كل شيءٍ، الخبيئ المميت، الحيُّ الذي لا يموت. والذي عليه جماعة أهل السَّنة أنه لم يزل بصفاته وأسمائه، ليس لأوليته ابتداءٌ، ولا لآخرته انقضاءٌ، وهو على العرش استوى.

¹ رواه ابن ماجه وغيره، صحيح الترغيب والترهيب 70.

والشهادة بأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه، حق، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال، والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير حق، وأن القرآن كلام الله، وما فيه حق من عند الله يجب الإيمان بجميعه واستعمال محكمه، وأن الصلوات الخمس فرض، ويلزمها من علمها علم ما لم تتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان فرض، ويلزمه علم ما يفسد صومه وما لا يتم إلا به، وإن كان ذا مال وقدرة على الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره لأنه استطاع إليه سبيلاً، إلى أشياء يلزمه معرفة جملها، ولا يعذر بجهلها، نحو: تحريم الزنا والربا، وتحريم الخمر والخزير، وأكل أموال الناس بالباطل وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئاً لا يتشاح فيه ولا يرغب في مثله، وتحريم الظلم كله، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله مما كان قد نطق الكتاب به وأجمعت الأمة عليه.

ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه، وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الآخرين، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَسٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَفْتَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنَازِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122] فألزم التفرير في ذلك البعض دون الكل، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم، والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوقه.¹

تبين مما سبق أن هناك معرفة مفروضة ومعرفة واجبة على العبد الذي أراد النجاح في حياته الدنيوية والأخروية:

¹ جامع بيان العلم وفضله (ص 10-11)

أولاً: المعرفة المفروضة

هي المعرفة الشرعية؛ أي قال الله، قال الرسول، قال السلف الصالح، فعن أنس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"¹.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين"².

والتقسيم الشرعي لما يجب تعلمه من العلم، هو باختصار كالتالي:

1. علم طلبه فرض: وهو ما يجب على العبد اعتقاده والعمل به. بحيث لو حصل التقصير به يقع الإثم والوزر والخرج! أو ما يترتب على الجهل به إثم ووزر، ومثال ذلك الشهادة باللسان والإقرار بالقلب أنه لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وأن الصلوات الخمس فرض، وأن صيام رمضان فرض، وأن زكاة المال فرض، وأن الحج إلى بيت الله الحرام لمن كان ذا مال وقدرة فرض مرة واحدة إن استطاع إليه سبيلاً، وغيرها من الأشياء التي يجب أن يعرفها ولا يُعذر بجهلها، نحو: تحريم الزنا والربا، وتحريم الخمر وأكل لحم الخنزير ومشتقاته، وأكل أموال الناس بالباطل، وتحريم الظلم كله، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله مما كان قد ذكره القرآن الكريم والسنة الشريفة، فأجمعت الأمة عليه.

2. علم طلبه فرض كفاية: وهو العلم الذي تحتاجه الأمة، ويكفي في هذا العلم أن يتفرق فريق من الأمة لتحصيله، يكفي حاجة الأمة فيه، فإن لم يتحقق هذا التفريق، أو نفر فريق من الناس لا يكفي الأمة في هذا الجانب، وقع الإثم والخرج على مجموع الأمة إلى أن ينفر الفريق من الناس الذين يكفون الأمة في هذا الجانب من العلم والمعرفة، ومثال ذلك علم

¹ صحيح سنن ابن ماجه: 183

² متفق عليه

الطب بكأفة تخصصاته، والهندسة بكأفة فروعها، والحساب، والفيزياء والكيمياء، واللغة وفقهها، واللغات الأجنبية، وغيرها ما يدخل تحت هذا النوع من العلم.

3. علمٌ مندوب ومباح: وهو العلم الذي يترتب على تحصيله نفع وفائدة ولا يترتب على تركه ضرر أو حرج، ومثال ذلك معرفة كم عدد الأنهار في كل بلد في العالم.

4. علمٌ مله حرام: وهو ما يترتب على طلبه وتحصيله الضرر، وفي تركه النفع والفائدة، كعلم السحر أو تعلم التنجيم مثلاً.

لذا أقول: إن من أساسيات المعرفة أن يعلم العبد أمور دينه أولاً حتى تساعد على الفوز والنجاح في أمور دنياه، وحتى يقدر المعرفة الواجبة وأساسياتها في هذا العصر.

ثانياً: المعرفة الواجبة

أقصد بها ما يلي:

1. معرفة اللغة العربية وكيفية استخدام مهارات الاتصال (الاستماع/ القراءة/ الكتابة/ التكلّم) في التعامل مع النفس والآخرين، سواء كان ذلك على مقعد الدراسة أو في العمل أو في البيت.
2. معرفة الحساب وكيفية تطبيق العمليات الحسابية في مجالات العلوم والطب والهندسة.
3. معرفة كيفية استخدام تقنية المعلومات بما فيها استخدام الكمبيوتر.
4. معرفة لغة أجنبية واحدة على الأقل، ولتكن اللغة الإنجليزية، لأسباب سأذكرها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، إن شاء الله.

فَضْلُ الْعِلْمِ

يعتقد كثيرٌ من النَّاسِ أنَّ مصدر العلم الحديث ينحصر في الغرب وجامعاته فقط، حيث قد ازداد عدد الرَّاغِبِينَ في متابعة دراستهم الجامعية في أوروبا والأمريكيتين بسبب هذا الاعتقاد.

وكثيرٌ من يعتقد بأنَّ هناك تخصّصات متوفّرة فقط في جامعات الغرب ولا وجود لها في تراثنا العلمي أو الأدبيّ كتخصّصات تتعلّق بكيفية اكتساب وممارسة مهارات الاتّصال (الاستماع، القراءة، الكتابة، التكلّم).

وكثيرٌ من يعتقد أنَّ ديننا الخفيف يقتصر اهتمامه على الأمور الدنيئة التّعبديّة دون سواها من أمور وشؤون العلم والحياة، وهؤلاء واهمون مخطّئون، ولهم ولغيرهم نقول إنَّ الإسلام قد اهتمَّ أعظم اهتمام بالعلم والتّعلّم، وكيفية تحصيله وتلقّيه، وحثّنا على طلب العلم، وتشغيل العقل والبحث والتّفكير في كافّة ميادين المعرفة ومجالات الحياة، وذلك لأنَّ العلم قوام الحياة، وأساس عمران الحضارات، ووسيلة لتقدّم الأفراد والجماعات.

لقد قيل الكثير الكثير، وكتب الكثير الكثير في فضل العلم والعلماء، وأول من أثنى على العلم والعلماء كتاب الله ﷻ، ثم رسوله الكريم محمد ﷺ، ثم الصّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ثم جاء بعدهم السّلف الصّالح، وقالوا ما قالوا، وكتبوا ما كتبوا من الأقوال التي لا تُحصى والكتب التي لا تُعد. لذلك سأكتفي بذكر بعض الشواهد من القرآن الكريم، ومن سنة رسولنا العظيم محمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، ومن أقوال الصّحابة الكرام، والسّلف الصّالح، كما سأذكر، بعون الله، شواهد من أقوال بعض المتأخّرين والمعاصرين من الكُتّاب والأدباء والشعراء.

أولاً: فضل العلم في نصوص القرآن الكريم

كفى بالعلم والعلماء شرفاً وعزّةً أنّهما ذُكِرَا ذِكْراً جليلاً، وأُثِنّا عليهما ثناءً وافراً في القرآن الكريم، فلا مقام أنبل وأعظم وأحسن وأجمل من مقامٍ تُقَرَّن فيها شهادة الملائكة،

وأولي العلم، بشهادة الله سبحانه وتعالى، بأنه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا شريك له، حيث قال ﷺ: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [آل عمران: 18]. قال ابن كثير رحمه الله: "وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام"¹.

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله في تفسيره لهذه الآية العظيمة: "وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

1. استشهادهم دون غيرهم من البشر
2. اقتران شهادتهم بشهادته
3. اقترانها بشهادة ملائكته

فهذا يتضمن تركيبتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العادل، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله"²، يتقون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"³

وقال أيضاً رحمه الله في فضل العلم وشرفه: "انه سبحانه عدّد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]"⁴

¹ تفسير ابن كثير ص210

² هم الصالحين الأكثياء من العلماء المشهود لهم بالعدالة والإستقامة.

³ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ص64

⁴ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ص69

وتأكيداً على أهمية العلم والتعلم، وتقديساً لشأن المعرفة الصحيحة الحقيقية، أوحى الله ﷻ أول آياته إلى رسولنا الكريم محمد ﷺ كدعوة إلى القراءة والتعلم قائلاً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: 1-5]

وقد أقسم الله ﷻ بالقلم تشريعاً له لما له من عظيم الأثر في تعليم الكتابة، ومحو الأمية، ورفع مستوى المعرفة والثقافة بين الناس، فقال ﷻ: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1].

وتكرعاً من الله ﷻ لأن آدم أنه فضله على سائر مخلوقاته بالعقل والعلم، فيقدر ما يحمل الإنسان من علم نافع، ومعرفة خيرة، يرتفع شأنه وتعلو مكانته، فقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، فهذا دليل على أنه سبحانه وتعالى خص العلماء من بين الناس أجمعين بخشيته، فهو وسام شرف، لا يحمله سوى أصحاب العلم الحق، الذين يخشون الله في دينهم ودنياهم، ويرون أن ما أنزل إلى النبي محمد ﷺ هو حقاً، فقال تعالى ﴿وَيَسِّرْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَرْشِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: 6].

وبفضل العلم أيضاً تتميز الحيوانات فيما بينها، فبالعلم أحل صيد الكلب المستعلم، وبالجهل حُرم صيد الكلب الجاهل، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المستعلم، وهذا أيضاً من شرف العلم، أنه لا يُباح إلا صيد الكلب العالم، أما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده، فدلّ على شرف العلم وفضله. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَهُمْ

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾. ولولا مزية العلم والتعلُّيم وشرفهما كان صيد الكلب المُعَلَّم والجاهل سواء.¹

هنيئاً لمن من الله عليه بنعمة العلم النافع، وطوبى لمن وهب الله الحكمة في القول والعمل، ومن أوتيتهما، فقد أوتي خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة 269]. لذا علينا جميعاً أن نذكر الله كثيراً، ونشكره ونحمده ﷺ على نعمة العلم، وعلى سائر النعم التي أعطانا إياها ربنا، فاطر السموات والأرض، فقال ﷺ: «كَمَا أَمَرْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ يَكُونُوا يَتْلَمَعُونَ» (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ [البقرة: 151-152].

ثانياً: فضل العلم في نصوص السنة المطهرة

ولو ألقينا نظرة فيما جاء عن الرسول الكريم ﷺ في فضل العلم والتعلُّم، لوجدنا أنه كان قدوة الداعين إلى العلم والتعلُّم بأقواله وأفعاله، حتَّى أنه جعل التعلُّم فريضة لازمة على كل فرد لتصحیح عقيدته وعبادته من جهة، وتفهُم شؤون حياته من جهة أخرى، فقد جاء عن أنس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"²

لقد سبق وذكرنا ما روى ابن عبد البر القرطبي في كتابه (جامع بيان العلم)، ما قيل في شرح هذا الحديث، حيث بيّن وجهات نظر السلف الصالح فيه، فطلب العلم واجب

¹ مفتاح دار السعادة، للإمام ابن قيم الجوزية ص 73

² رواء ابن ماجه وغيره، في صحيح الترغيب والترهيب 70

على كل مسلم ومسلمة على حد سواء، والعلم المراد من الحديث هو العلم الشرعي، أي "قال الله"، "قال الرسول ﷺ"، "قال الصحابة" رضوان الله عليهم أجمعين، ولقد أحسن القائل¹:

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ بِالْتَّمُومِ
مَا الْعِلْمُ نَصَبَكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَكِيهِ
كَلَّا وَلَا جَحْدَ الصِّفَاتِ وَنَفْيُهَا حِذْرًا مِنَ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ

وفي هذا السياق يؤكد الإمام الشافعي رحمه الله في البيتين التاليين² أن العلم بحق هو علم كتاب الله ﷻ وسنة نبيينا المصطفى محمد صلوات الله وسلامه عليه:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ إِلَّا الْحَدِيثُ وَعِلْمُ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ
الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ وَسِوَا سُ الشَّاطِطِينَ

وفي فضل العلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَتَبَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أُمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنْهَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَفَعَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"³.

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله: "ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت، فكذا علوم الدين يحيي القلب الميت. ثم شبه

¹ الفوائد لابن قيم الجوزية، ص 133

² ديوان الإمام الشافعي، ص 98

³ صحيح البخاري رقم 79

السامعين له بالأرض المختلفة التي يزل بها الغيث، فمنهم العامل المُعَلَّم، فهو موزلة الأرض الطيبة، شربت فانفتحت في نفسها، وأثبتت فنفتحت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم ينفعه فيما جمع له، لكنه أداه لغيره، فهو موزلة الأرض السبخة أو الملساء، التي لاتقبل الماء، أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأولين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها. والله أعلم".¹

وفي ترحيبه ﷺ إلى طلب العلم، بين لهم شرف السعي إليه، وفضل أخذه وحمله، والجزاء المنتظر لهم يوم القيامة، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَاحَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْجِبَّتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنْ الْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُوْرُثُوا دِيْنَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ".²

قال ابن جماعة الكِنَانِي³ رحمه الله في معنى هذا الحديث: "واعلم أنه لارتبة فوق رتبة من تشغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وانه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو مَنْ يظن صلاحه، فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها، فقيل: التواضع له، وقيل: التزول عنده والحضور معه، وقيل: التوقير والتعظيم له، وقيل: معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقصده.

¹ صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1 ص 142

² صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1، رقم 70.

³ هو فاضل القضاة شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكِنَانِي الحموي الشافعي، الخطيب المفسر، له تعليقات في الفقه والحديث والأصول والتواريخ وغير ذلك، ولد في حماة في ربيع الآخر سنة 639 هـ، وتوفي في جمادي الأولى سنة 733 هـ.

وأما إلهام الحيوانات بالاستغفار لهم فقليل: لأنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم. والعلماء هم الذين يبينون ما يحل منه وما يحرم، ويوصون بالإحسان إليها، ونفي الضرر عنها.¹

ومن أفعاله ﷺ في الدُّعَاةِ إِلَى التَّعَلُّمِ، أَنَّهُ حَرَّرَ بَعْضَ أُسْرَى مَعْرَكَةِ بَدْرٍ عَلَى أَنْ يَعْلَمُوا طَائِفَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَهَارِي الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ لِأَهْمِيَّتِهِمَا فِي تَثْبِيتِ رِكَائِزِ الدِّينِ وَنَشْرِ الدُّعَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى مَدَى الْعُصُورِ وَفِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ. فَقَدْ ذَكَرَ الدُّكْتُورُ عَلِيُّ مُحَمَّدٍ الصَّلَاحِيُّ: "أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ لَيْسَ لَهُمْ فِدَاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِدَاءَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ. وَبِذَلِكَ شَرَعَ الْأَسْرَى يَعْلَمُونَ غُلَمَانَ الْمَدِينَةِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَكُلٌّ مِنْ يُعَلِّمُ عَشْرَةَ مِنَ الْغُلَمَانِ يَفْدِي نَفْسَهُ، وَقَبُولُ النَّبِيِّ ﷺ تَعْلِيمِ الْقِسْرَاءِ وَالْكِتَابَةَ بِدَلِّ الْفِدَاءِ، فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ، الَّذِي كَانَ فِيهِ بِأَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَالِ، يَرِنَا سَمْعُ الْإِسْلَامِ فِي نَظَرْتِهِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَإِزَالَةِ الْأُمِّيَّةِ".²

وَفِي حِثِّهِ ﷺ عَلَى تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ، وَتَحْصِيلِ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، دِينَ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، دَلِيلٍ وَاضِحٍ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، فَعَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"³، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"⁴، وَعَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "مَنْ يَرِدِ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ"⁵

¹ تذكرة السامع والمكتلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة للكناني، ص 19

² الميرة النبوية، د. علي محمد الصَّلَاحِيُّ، ص 435

³ صحيح البخاري، رقم 5027

⁴ صحيح مسلم، رقم 1631

⁵ صحيح البخاري، رقم 7312

قال الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله في شرحه لحديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ": "أَنَّ مَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ فِي دِينِهِ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ، وَمَنْ فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، إِذَا أُرِيدَ بِالْفَقْهِ الْعِلْمُ الْمُسْتَزَمُّ لِلْعَمَلِ، وَأَمَا إِنْ أُرِيدَ بِهِ بَجَرْدِ الْعِلْمِ فَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ فَقَّهَ فِي الدِّينِ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْفَقْهَ حِينَئِذٍ يَكُونُ شَرْطًا لِإِرَادَةِ الْخَيْرِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ مُوجِبًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"¹

وفي حَصْنَتِهِ عَلَى مَحْوِ الْأُمِّيَّةِ بِشَكْلِ عَامٍ، وَالْعَامِّيَّةِ بِشَكْلِ خَاصٍ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَالِمُونَ وَالْمُتَفَقِّهُونَ فِي دِينِهِمْ أَنْ يُعَلِّمُوا وَيُفَقِّهُوا جِيرَانَهُمُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أُمُورَ دِينِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ حَذَّرَ مِنَ الْكُسْلِ أَوْ الْفُتُورِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ حَدِيثِ عِلْقَمَةَ إِلَّا أَنِّي اسْتَأْنَسْتُ بِذِكْرِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِأَنَّهُ فِيهِ مِنْ تَأْكِيدٍ عَلَى أَمِيَّةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ، فَمَنْ عُلِقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَتْنِي عَلَى طَوَائِفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ لَا يُفَقِّهُونَ جِيرَانَهُمْ، وَلَا يَعْلَمُونَهُمْ، وَلَا يَعْظُونَهُمْ، وَلَا يَأْمُرُونَهُمْ، وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ؟" وَمَا بَالُ أَقْوَامٍ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ جِيرَانِهِمْ، وَلَا يَتَفَقَّهُونَ! وَلَا يَتَعَلَّمُونَ؟ وَاللَّهِ لَيَعْلَمَنَّ قَوْمٌ جِيرَانَهُمْ، وَيُفَقِّهُونَهُمْ، وَيَعْظُونَهُمْ، وَيَأْمُرُونَهُمْ، وَيَنْهَوْنَهُمْ، وَلَيَتَعَلَّمَنَّ قَوْمٌ مِنْ جِيرَانِهِمْ، وَيَتَفَقَّهُونَ، وَيَتَعَلَّمُونَ، أَوْ لَأَعَاजِلَنَّهُمُ الْعُقُوبَةُ"².

وشجع صلوات الله وسلامه عليه تعلم اللغات الأجنبية لما فيها من فوائد للفرد وللمجتمع، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "أَتَى بِي النَّبِيُّ ﷺ مَقْدَمُهُ الْمَدِينَةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا غِلَامٌ مِنْ بَنِي تَحَارَاقَ وَقَدْ قَرَأَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ سَبْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَقَرَأْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْجَبَنِي ذَلِكَ، فَقَالَ: "يَا زَيْدُ! تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا آمَنَ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي" فَعَلِمْتَهُ، فَمَا مَضَى لِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذِقْتَهُ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا

¹ مفتاح دار السعادة، للإمام ابن القيم الجوزية ص 78

² ضعيف الترغيب والترهيب، للكناني ج 1 / رقم 97

كتب إليهم، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه"¹. وعن زيد أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "أَتَحْسِنُ السَّرِيانِيَّةَ فَإِنَّمَا تَأْتِيَنِي كُتُبٌ؟" قلتُ: لا، قال: "فَتَعْلَمُهَا"، فتعلمتها في سبعة عشر يوماً"².

لا يمكن أن أذكر كل ما قاله رسولنا المُعَلِّم صلوات الله وسلامه عليه في العلم وشرفه في هذا البحث المتواضع، لذلك اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث الشريفة التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم قد ذكر فضل العلم، وأثنى على من يسعى في طلبه، وحث على تعلُّم القرآن وتعلُّمه، والتفقه في الدِّين ونشره، وأكد أيضاً على أهمية تحصيل العلم النافع للعبد في دنياه وآخرته، وشجع تعلُّم اللغات الأجنبية أيضاً.

ثالثاً: فضل العلم في أقوال الصحابة الكرام، والسلف الصالح

وعلى هذا النهج النبوي الكريم سار أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين، والأتباع، والسلف الصالحين، يوجهون الناس إلى حب العلم والتعلُّم، لينشؤوا صالحين لأنفسهم وللأمة التي يعيشون فيها، فقد صحَّ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السكينة والخلِّم، وتواضعوا لمن تُعلَّمون، وتواضعوا لمن تُعلَّمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء؛ فلا يقوم علمكم بجهلكم"⁴.

¹ تغليق الططيق، ابن حجر للعسقلاني، 306/5

² السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم 364/1

³ هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤي، أمير المؤمنين، الخليفة الراشدي الثاني، أبو حفص القرشي الحنفي، الفاروق رضي الله عنه، أسلم في السنة 6 من النبوة وله 27 سنة، واستشهد في أواخر ذي الحجة سنة 23 هـ، على يد أبو لؤلؤة عبد المفيرة بن شُعبة. كان عمر رضي الله عنه قويا، شجاعاً عادلاً، ومجاهداً في سبيل الله، انتشر الإسلام وتوسعت رقعة الدولة الإسلامية في عصر خلافته حتى وصلت إلى الشام وفلسطين ومصر والعراق وبلاد فارس التي حصلت فيها معركة القادسية في شهر شعبان سنة 15 هـ.

⁴ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي ص 93

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو ينصح كميل بن زياد النخعي مبينا فضل العلم وأنواع طلبته ومكائدهم منه: " يَا كَمِيلُ بْنَ زِيَادٍ، الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ خَيْرُهَا أَوْعَاهَا، اخْفِظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ الْحَاجَةِ، وَهَمَجٌ رِعَاغٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْحَقُوا إِلَى رُكْنِ وَثِيقٍ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَرْكُزُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْمَالُ يَنْقُصُهُ التَّفَقُّةُ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دِينَ يُدَانُ بِهِ، يَكْسِبُهُ الطَّاعَةُ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيلُ الْآخِرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ، وَصَنَعَةُ الْأَمْوَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ، مَاتَ خِزَانُ الْأَسْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ، هَآءِ إِنْ هَآءَا وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ عَلِمًا لَوْ أَصَبْتُ حَمَلَةً، بَلْ أَصَبْتُ لَقْنَا لِأَهْلِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، يَفْتَدِي الشُّكَّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا ذَا وَلَا ذَا فَمِنْ مَهْمُومٍ بِاللَّذَّةِ سَلَسِ الْقِيَادِ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرَى بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ، لَيْسَا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ أَقْرَبُ شُبْهًا بِهِمُ الْأَنْعَامِ السَّامِيَةِ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللَّهُمَّ بَلَى لَنْ تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ بِحُجَّةٍ، لِكَيْلًا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيِّنَاتُهُ، أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَنْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حُجَجِهِ يُودُّونَهَا إِلَى نُظَرَانِهِمْ، وَيَزْعَرُونَهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَاسْتَلْثَمُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتَرَفُّونَ، وَأَنْسُوا مِنْهُ مَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، صَحَبُوا الدُّنْيَا بِأَيْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلِّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بِلَادِهِ وَالِدُعَاةُ إِلَى دِينِهِ، هَآءِ هَآءِ، شَرَفًا إِلَيَّ رُؤْيَاهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكَ إِذَا شِئْتَ فَقُمْ " ¹

ويقول معاذ بن جبل ² عليه السلام في العلم وفضله: "تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه حسنة، وطلبه عبادة، وبذلك لأهله قربة. والعلم منارٌ سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في

¹ جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي، ج 2 ص 112
² هو ابن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب، السيد الإمام الصحابي أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني السجدي. شهد بدرًا وهو عشرون سنة، وله عدة أحاديث، كان أعلم الناس بالحلال والحرام بعد رسول الله ﷺ، توفي سنة 18 هـ عن عمر يناهز 38 سنة.

الغربة، والمحدثُ في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزَّينُ عند الأخلاء، والسلاحُ على الأعداء. يردع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة تُقْتَفَى أنارهم، ويُقْتَدَى بفعلهم، والعلم حياة القلبسب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف. يبلغ بالعبد منازل الأعصار، والذُّرَجَات العلا في الدنيا والآخرة. الفِكْرُ فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه توصِّل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام¹.

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم خشية الله". وقال مالك بن أنس³ رحمه الله "إن العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشاء وليس بكثرة المسائل"⁴.

ويقول عبد الملك بن مروان⁵ لبنيه: "يا بني تعلّموا العلم فإن كنتم سادة فقمتم، وإن كنتم وسطاً سُدتم، وإن كنتم سوقة عشتم"⁶.

¹ العقد الفريد لإبن عبد ربه الأندلسي، ج2 ص76

² هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، الصحابي الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البصري، حليف بني زُهرة. كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرة، ومنابعه غزيرة، وروى علماً كثيراً، وله أحاديث كثيرة، توفي في المدينة سنة 33هـ، كان عمره 63 سنة هـ.

³ هو أبو عبد الله مالك بن أنس، شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، المحدث الفقيه الذي أدرك خيار التابعين من الفقهاء العبّاد الزهاد، ولد في المدينة المنورة سنة 95 هـ. وتوفي فيها ودفن بالبقيع سنة 179 هـ. بعد أن أسس مذهباً فقهياً سُمي باسمه: مذهب الإمام مالك، صاحب كتاب 'الموطأ'.

⁴ جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي، ج2 ص25

⁵ هو ابن الحكم بن العاصم بن أمية، للخليفة، أبو الوليد الأموي. حارب عبد الله بن الزبير الخليفة في المدينة، وقتل أخاه مصعب في العراق، ولد سنة 26 هـ وتوفي 86 هـ. كان من رجال الذَّهر ودهاء الرجال، وكان للحجاج من تنويه.

⁶ سير أعلام النبلاء

وقال سفيان بن عيينة¹ رحمه الله: "من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل". وقال أبو الدرداء: "مَنْ رَأَى الْغَدُوَّ وَالرَّوَّاحَ إِلَى الْعِلْمِ لَيْسَ بِجِهَادٍ فَقَدْ نَقَصَ فِي عَقْلِهِ وَرَأْيِهِ".² وفي دلالة لأهمية ولحاجة النَّاسِ إلى العلم والمعرفة كحاجتهم للماء، يقول الإمام أحمد رحمه الله: "النَّاسُ مُتَحَاجُونَ إِلَى الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لِأَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَالْعِلْمُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْأَنْفَاسِ".³ ولا أَظُنُّ أَنَّ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ غَالَى فِي شَعْرِهِ عِنْدَمَا قَالَ إِنَّ صَغِيرَ قَوْمٍ بَعْلِمِهِ يَعْلَمُونَ شَأْنَهُ وَمَقْدَارَهُ بَيْنَ جَمْعِ النَّاسِ، بَيْنَمَا يَصْغُرُ كَبِيرُهُمْ بِجَهْلِهِ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي اجْتِمَاعَاتِ قَوْمِهِ، فَقَدْ قَالَ فِي صَاحِبِ الْعِلْمِ:⁴

وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ	تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُؤْتَدُ عَالِمًا
صَغِيرٌ إِذَا تَفَقَّتْ عَلَيْهِ الْجَحَافِلُ	وَإِنْ كَبُرَ الْقَوْمُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ
كَبِيرٌ إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ	وَإِنْ صَغِيرَ الْقَوْمِ إِنْ كَانَ عَالِمًا

وقال رحمه الله أيضاً في هدي العلم:⁵

وَإِذَا لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الْفَقِيِّ قَلْبَهُ هُدًى	وَسِيرَتُهُ عَدْلًا وَأَخْلَاقُهُ حُسْنًا
فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللَّهَ أَوْلَاهُ تَقَمَّةً	يُسَاءُ بِهَا مِثْلُ الَّذِي عَبْدَ الْوَلَسَا

وقال رحمه الله في حلاوة العلم ولذة كسبه وتحصيله ودراسته وكتابته انه أحلى وأطيب طعماً، وأجمل وألذ شعوراً عما يشعر به أصحاب اللهو والعشق والطرب:⁶

¹ هو ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مَرْزُومٍ، أخِي الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزُومٍ، (الإمام الكبير حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ولد في الكوفة سنة 107 هـ. وتوفي في شعبان سنة 196 هـ).

² مفتاح دار السعادة لابن القيم ص92

³ مفتاح دار السعادة لابن القيم ص97

⁴ ديوان الإمام الشافعي، ص66

⁵ ديوان الإمام الشافعي، ص79

⁶ ديوان الإمام الشافعي، ص61، كما نسبت إلى الزمخشري صاحب الكشف .

مِنْ وَصَلِ غَانِيَةً وَطَيْبَ عِنَاقِ	سَهَرِي لَتَنْفِيحِ الْعُلُومِ الَّذِي
أَخْلَى مِنَ الدُّوْكَاءِ وَالْعُشَّاقِ	وَصَرِيرِ أَفْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا
تَقْرِي لَأَلْفِي الرُّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي	وَالَّذُ مِنْ تَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُنْهَا
فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ	وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحُلِّ عَوِيصَةِ
تَوْنًا وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي؟!	وَأَيُّتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيثُهُ

ومن عمالقة السلف الصالحين الذين تحدّثوا وكتبوا في العلم وفضله وعظمته شأنه، الإمام العلامة، والشيخ العابد الزاهد، ابن قيم الجوزية رحمه الله، وأدخله فسيح جناته، الذي أفاض في ذكره وبيان فضل العلم وشرفه في نصوص القرآن الكريم، وفي نصوص السنة المطهرة، حتى أنه ذكر أربعين ميزة يمتاز بها، ويتفضل بها العلم وأهله على المال وأصحابه. يقول ابن القيم رحمه الله، إن فضل العلم على المال يُعلم من الوجوه التالية نذكرها للفائدة:

الأول: أن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

والثاني: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أن المال تذهب النفقات، والعلم يزكو على النفقة.

والرابع: إن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه في قبره.

الخامس: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا

للمؤمن.

السابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل

العلم والفاقة.

الثامن: أن النفس تشرف وتزكو بجمع المال وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها،

والمال لا يزيكها ولا يكملها ولا يزيد لها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه

والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.
العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها.

الحادي عشر: إن غني العلم أجل من غني المال فإن غني المال غني بامر خارجي عن حقيقة الانسان لو ذهب في ليلة أصبح فقيراً معدماً وغني العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زائدة أبداً فهو الغني العالي حقيقة.

الثاني عشر: أن المال يستعبد عبده وصاحبه فيجعله عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "تعس عبد الدينار والدراهم"، والعلم يستعبد لربه وخالفه فهو لا يدعو إلا إلى عبودية الله وحده.

الثالث عشر: أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الرابع عشر: أن قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه.

الخامس عشر: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح.

السادس عشر: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه، والغني العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

السابع عشر: إنه ما أطاع الله أحداً قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أن العلم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بجماله وماله.

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً فإنه معشوق النفوس فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع، وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والثاس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى المال إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فإن صاحبه الستد بنفسه جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية، وإن التذّ بإنفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية، وأما لذة العلم فلذة عقليّة روحانية وهي تشبه لذة الملائكة بمحتجها، وفرق ما بين اللذتين.

الحادي والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع الأموال الخريص عليه وتنقصه والإزراء به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال.

الثاني والعشرون: اتهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذي لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبداً له، ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذي لا يلتفت إليه، ولا يحرص عليه.

الثالث والعشرون: أن المال يمدح صاحبه بتخليه عنه وإخراجة، والعلم إنما يمدح بتحليه به واتصافه به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، وغنى العلم مقرون بالأمّن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون: أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغني بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغني بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أن استلذاذ النفس وكمالها بالغي استكمال بعارية مؤداة فتجعلها بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى مالكه يوماً ما، وأما تجعلها بالعلم وكمالها به فتجعل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس، والغنى بالعلم هو عين غنى النفس، فهو غناها الحقيقي فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بجمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه، ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً.

التاسع والعشرون: أن تقدم الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة، وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كماله إذ هو تقدم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر بخارج عن ذاته.

الوجه الثلاثون: أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل له إليه.

الحادي والثلاثون: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي في حال تجدده فقط. وأما حال دوامه فإما أن تذهب وإما أن تنقص.

الثاني والثلاثون: إن غنى المال يستدعي الإنعام على الناس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه.

الثالث والثلاثون: إن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والخرن؛ نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقتها. فأما النوع الأول: فهو المشاق والأنكد والآلام التي لا يحصل إلا بها. وأما النوع الثاني: فمشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصح إلا مهموماً ولا يمسى إلا مغموماً. والنوع الثالث من آفات الغنى: ما يحصل للعبد بعد مفارقتها من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والحاسبة على مقبوضه ومصروفه

من أين اكتسبه وفي ماذا أنفق، وغني العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيلاً بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة.

الرابع والثلاثون: أن لذة الغني بالمال مقرونة بخلطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد الغني بماله وحده من غير أن يتعلّق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التناذه به وإذا كان كمال اكتمال لذته بغناه موقوفاً على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبائعهم وإرادتهم.

الخامس والثلاثون: أن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً فانه لا يشبع ولا يروي ولا يديء ولا يتمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل.

السادس والثلاثون: أن غني المال يبعث الموت ولقاء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقتها ويحبُّ بقاءه ليتمتع به كما شهد به الواقع، وأما العلم فانه يحبب للعبد لقاء ربه ويزهده في هذه الدنيا النكدية الفانية.

السابع والثلاثون: أن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم، والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم، فحزنان الأموال أحياء كأموال العلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

الثامن والثلاثون: إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالروح ميتة حياها بالعلم كما أن الجسد ميت حياها بالروح فالغني بالمال غايته أن يزيد في حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره.

التاسع والثلاثون: أن القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته وجماله، وبه قوام ملكه، والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله. وأما المال فغاياته أن يكون زينة وجمالاً للبدن إذا أنفق في ذلك فإذا حزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالاً بل نقصاً ووبالاً.

الوجه الأربعون: أن القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد وقيمه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربّه عزّ وجلّ فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السّفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من من مصلحته وكلّما ازداد غناه به ازداد تنبّطاً وتحلّفاً عن التّجهّز لما أمامه. وأمّا العلم النّافع فكّلما ازداد في تعبئة الرّاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوّة إلاّ به، فعدة هذه السّفر هو العلم والعمل وعدّة الإقامة جمع الأموال والادّخار ومن أراد شيئاً هيأ له عدته.¹

رابعاً: فضل العلم في أقوال بعض المتأخّرين من الكتاب والأدباء والشعراء
ومّا لاشكّ فيه أن كثيراً من الكتاب والأدباء والشعراء، المتأخّرين أو المعاصرين، قد قالوا، وكتبوا أقوالاً جميلة في فضل العلم، وأهميته في بنية حياة الفرد العلميّة والفكرية، وفي تطوير حياة الأمم ثقافياً وحضارياً وعلمياً.

يقول الدكتور مصطفى السّباعي في صنف العلوم: "العلوم في أهدافها ثلاثة: فليعلم للدار الآخرة، فإن صحبته النّية الخالصة نجيّ من الثّار، وعلم للدّنيا، فإن صحبته العزيمة الصّادقة، نجيّ من الفقر، وعلم للهو، ففيه المهانة في الدّنيا والهلاك في الآخرة".²

وقال الشاعر أحمد شوقي في العلم والمعلم والتّعليم:

سبحانك اللهم خير معلّم	علّمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته	وهديته النور المبين سبيلا
وطبعته بيد المعلّم، تارة	صدى الحديد، وتارة مصقولا
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً	وإين البتول فليعلم الإنجيلا
فجرت ينبوع البيان محمداً	فسقى الحديث وناول القرآن ³

¹ مفتاح دار السعادة لابن القيم ص 170

² هكذا علّمتني الحياة ص 173

³ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص 391

هذا قليلٌ من كثيرٍ مما قيل في فضل العلم والتَّعلُّم وأهميتهما في حياة المسلم كفرد ينتمي لأُمَّة الإسلام، وأنَّ الأُمَّة التي لم تحظ بالعلم المثمر النافع في كافَّة ميادين حياتها لا مكان لها بين الأمم، لأنَّ ذلك يجعلها ضعيفة ذليلة، وعرضة للتقليد الأعمى للأمم المتحضرة، والمسلَّحة بالعلم والمعرفة.

لهذا - كما تقدَّم بيانه - حتَّ الإسلام أُمَّته على السَّبق في كل مضمار وبحال من مجالات الحياة، وحذَّرها من الرُّكود والعجز والكسل، فمن الأدعية الماثورة التي كان النبي ﷺ يعلمها لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين: "اللهم آتني أعوذ بك من العجز والكسل"¹ لا بدَّ أن تعلم أيُّهما القارئ أنَّ الإسلام هو الدِّين الوحيد الذي قامت شرائعه وأحكامه وعقائده على عقيدة التَّوْحِيد التي أساسها العلم والمعرفة، وأنَّ الاندفاعيَّة للعلم والتَّعلُّم هي إحدى العوامل الأساسيّة في عمليَّة التَّعلُّم، لذلك حتَّ عليها الإسلام وشجَّع طالبيها مبنيًا لهم جزاءهم الدُّنيوي والأخروي كما تقدَّم ذكره وبيانه.

وأودَّ أن أختتم هذا الفصل بوصية الخُضر، الرجل الصالح الذي أرسله الله ﷻ ليقدم النصِّح لموسى عليه السَّلام، كليم المولى ﷻ مبيِّبا له أهميَّة وفضل العلم والتَّعلُّم: قَالَ الشُّورِيُّ قَالَ مُجَالِدٌ قَالَ أَبُو الرَّدَّادِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَلَرِيُّ²: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام: يَا رَبِّ أَرِنِي الَّذِي كُنْتُ أَرَى فِي السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى إِنَّكَ سَتَرَاهُ، فَلَمْ يَلْبَثْ مُوسَى إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَتَاهُ الْخُضْرُ وَهُوَ قَتَّى طَيِّبُ الرَّيْحِ، حَسَنُ بَيَاضِ الثِّيَابِ.

فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مُوسَى بْنَ عُمَرَ بْنَ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ. قَالَ مُوسَى: هُوَ السَّلامُ، وَمِنْهُ السَّلامُ، وَإِلَيْهِ السَّلامُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

¹ صحيح الجامع للصغير وزيدته / 1284

² هو الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن غنيد بن الأجر، شهيد أبو سعيد الخدق، وبيعة للرضوان، وحدث عن النبي ، فأكثر وأطاب، وعن أبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحد الفقهاء المجتهدين، توفي سنة 74 هـ.

الَّذِي لَا أُخْصِي نِعَمَهُ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَذَاءِ شُكْرِهِ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى: أُرِيدُ أَنْ تُوَصِّيَنِي بِوَصِيَّةٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا.

فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا طَالِبَ الْعِلْمِ، إِنَّ الْقَائِلَ أَقَلُّ مَلَائَةٍ مِنَ الْمُسْتَمِيعِ، فَلَا تَمَلْ جُلْسَاءَكَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ، وَأَعْلَمْ أَنَّ قَلْبَكَ وَعَاءٌ، فَإِنْظِرْ مَاذَا تَحْشُو بِهِ وَعَاءَكَ، وَأَعْرِفْ نَفْسَكَ عَنْ الدُّنْيَا، وَاتَّبِعْهَا وَرَاءَكَ، فَإِنَّمَا لَيْسَتْ لَكَ بِذَارٍ وَلَا لَكَ فِيهَا مَحَلٌّ قَرَارٍ، فَإِنَّمَا جُعِلَتْ بُلْغَةُ لِلْعِبَادِ، لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا لِلْعَمَادِ.

يَا مُوسَى، وَطَنُ نَفْسِكَ عَلَى الصُّنْتِ ثَلَقَ الْحُكْمَ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الثَّقَوَى تَتَلَّ الْعِلْمَ، وَرُضْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلُصَ مِنَ الْإِثْمِ.

يَا مُوسَى، تَفَرَّغْ لِلْعِلْمِ، إِنْ كُنْتَ تُرِيدُهُ، فَإِنَّمَا الْعِلْمُ لِمَنْ تَفَرَّغَ لَهُ، وَلَا تَكُونَنَّ مَكْثَارًا لِمَنْطِقٍ مَهْدَارًا، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْمَنْطِقِ تُشِينُ الْعُلَمَاءَ، وَتُبْدِي مَسَاوِيءَ السُّخَفَاءِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهَالِ، وَاحْلُمْ عَنِ السُّفَهَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِعْلُ الْحُكَمَاءِ وَزِينَةُ الْعُلَمَاءِ، إِذَا شَتَمَكَ الْجَاهِلُ فَاسْكُتْ عَنْهُ حِلْمًا، وَجَانِبَهُ خَزَمًا، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنْ جَهْلِهِ عَلَيْكَ وَشَتَمِهِ إِلَيْكَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ.

يَا ابْنَ عُمَرَ، لَا تَرَى أَنَّكَ أُوتِيتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، فَإِنَّ التَّعَسُّفَ مِنَ الْاِقْتِحَامِ وَالتَّكَلُّفِ.

يَا ابْنَ عِمْرَانَ لَا تَفْتَحَنَّ بَابًا لَا تَدْرِي مَا غَلَقُهُ، وَلَا تُغْلِقَنَّ بَابًا لَا تَدْرِي مَا مِفْتَاحُهُ. يَا ابْنَ عِمْرَانَ، مَنْ لَا تَنْتَهِي مِنَ الدُّنْيَا نَهْمَتَهُ، وَلَا تَنْقُضِي مِنْهَا رَغْبَتَهُ، كَيْفَ يَكُونُ عَابِدًا مَنْ يَحْقِرُ حَالَهُ، وَيَتَّهِمُ اللَّهَ بِمَا قَضَى لَهُ؟ كَيْفَ يَكُونُ زَاهِدًا؟ هَلْ يَكْفُ عَنْ الشَّهَوَاتِ مَنْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ، أَوْ يَنْفَعُهُ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْجَهْلُ قَدْ حَوَاهُ؟ لِأَنَّ سَفَرَتَهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ.

يَا مُوسَى، تَعْلَمُ مَا تَعْلَمْتَ لِتَعْمَلَ بِهِ، وَلَا تَعْلَمُهُ لِتُحَدِّثَ بِهِ فَيَكُونُ عَلَيْكَ بَوْرُهُ، وَيَكُونُ لِعَمَلِكَ نُورُهُ.

يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، اجْعَلِ الزُّهْدَ وَالتَّقْوَى لِبَاسَكَ، وَالْعِلْمَ وَالذِّكْرَ كَلَامَكَ،
وَأَسْتَكْبِرْ مِنَ الْحَسَنَاتِ فَإِنَّكَ مُصِيبُ السَّيِّئَاتِ، وَزَعَزِعَ بِالْخَوْفِ قَلْبَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ يُرْضِي
رَبَّكَ، وَاعْمَلْ خَيْرًا فَإِنَّكَ لَا بُدَّ عَامِلٍ شَرًّا، وَقَدْ وَعِظْتَ إِنْ حَفِظْتَ، ثُمَّ تَوَلَّى الْخَضِرُ وَبَقِيَ
مُوسَى حَزِينًا مَكْرُوبًا^١.

^١ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص 94

الفصل الثاني
المُعلِّم ودوره في العملية
التعليمية

الفصل الثاني

المُعلِّم ودوره في العملية التعلّيمية

الواقع الحالي

عندما تُذكرُ عمليّتي التعلّم والتعلّم في أيّ مادةٍ من السّوَادِ التعلّيمية في أيّ مؤسسة تعلّيمية (سواء في المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة، أو حتى في الكليات أو الجامعات)، يُذكرُ معها كل من المُعلِّم والطالب والمادة العلمية والمؤسسة التعلّيمية كمكوّنات أساسية للعملية التعلّيمية. فجودة عمليّة التعلّم والتعلّم تتعلّق بجودة تلك المكوّنات، وسوء عمليّة التعلّم والتعلّم تتعلّق بسوء عمل وتفاعل هذه المكوّنات مع العملية التعلّيمية.

عند تأمل واقع مكوّنات العملية التعلّيمية في كثير من البلاد العربية بشكل عام نجد أنّ كثيراً من النّاس، بما فيهم المثقّفون قد اتّخذوا موقفاً من هذه المكوّنات ظاهره التّفقّد وباطنه الرّجعيّة والجمود.

فعلى صعيد استخدام مفهوم مصطلح "المُعلِّم"، نجد أنّ كثيراً من النّاس - المثقّفين منهم وغير المثقّفين - لديهم غلط وخطأ في فهمهم أو استعمالهم للمصطلح من حيث معناه أو استخدامه أو شموليّته، فمنهم من يستخدم كلمة "المُعلِّم" ليدلّ حصراً على من يعمل بصفته مدرّساً لمادة علمية في مدرسة ما، ومنهم من يستخدم كلمة "أستاذ" ليدلّ على من يعمل كمُعلِّم في مدرسة ما، أو مُعلِّم في جامعة ما يحمل لقب "الأستاذ"، الذي بدوره سيء استخدامه، لدرجة أنّه يُستخدم هذه الأيام خطأً كلقب لمدير شركة، أو مصطلح لمنادة شخص يعمل في مؤسسة رسمية، وبعضهم يعدّ مشرف طلبة الدراسات العليا في جامعة مُعيّنة بأنّه مُعلِّم أو مدرّس أحياناً.

وعلى صعيد دور المُعلِّم في المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة على سبيل المثال وليس الحصر - في العملية التعلّيمية، نجد أنّه مازال يعاني من قصور في وضوح مهمّته

التَّعْلِيمِيَّةِ، وعدم نضج في مادَّته العلميَّة، وضعف في مهارات الاتِّصال عنده مع الآخرين - سواء كانوا طلاباً أم إداريين - فهو يعتقد أنَّ مهمَّته التَّعْلِيمِيَّة تتوقَّف عند "توصيل المعلومات" إلى الطُّلاب، وانه وصل إلى أعلى درجات النضج في فهم ومعرفة مادَّته العلميَّة عندما حصل على مؤهِّله الجامعي، وانه قادرٌ على توصيل المعلومة ولو "بالعصا" !

ظهرت مؤخراً في بعض الدول العربيَّة حالات الفساد التَّعْلِيمِيَّ بين المُعلِّمين، وفشت حالات الاستغلال بين الإداريين، وانتشر الخوف والرعب بين الطُّلاب من جهة، وأولياء الأمور من جهة أخرى، فالمُعلِّم لا يدرس الطالب في الفصل إذا لم يأخذ عنده دروساً خصوصية، ولا يرضى عنه إذا لم يجلب له الهدايا في مناسبة شخصيَّة أو وطنيَّة، ومدير المدرسة يطلب ولي أمر طالب لأتفه الأسباب، فأحياناً يوبخ ويذل ولي الأمر، وأحياناً يهدده بترسيب ولده أو فصله من المدرسة، وكثيراً ما يؤدي مثل هذا الوضع المحزن إلى حالات اكتئاب ويؤس عند الطُّلاب وبالتالي إلى فشل في الدِّراسة.

هل هذا الفساد المخزي عند كثير من المُعلِّمين سببه فقرهم وقلة دخلهم المادي، أم سببه سوء خلق وقلة دين، أم سببه غياب متابعة سلطة المدرسة لهم ولسلوكيَّاتهم؟!

هل إذلال وإهانة أولياء الأمور سببه سوء إدارَة من قبل مدير المدرسة، أم سوء خلق وقلة دين، أم سببه مزاجية فرعونية عنصريَّة، أم قلة أدب واحترام للعلميَّة التَّعْلِيمِيَّة ككل؟!

هل خوف ورعب الطُّلاب سببه ضعفهم الأكاديمي، أم ضعف في شخصيَّتهم الطُّلابيَّة، أم عدم وجود جهة مختصة تدافع عن حقوقهم، أم ثقافة التخويف والترعب التي يمارسها المُعلِّمون والإداريون والتي يُعزِّزها نظام التَّعْلِيم في البلد ككل؟!

هذا الواقع الخسيس لمكانة ودور المُعلِّم في بعض البلدان العربيَّة يجعلني أقدم هذا الفصل الموجز لأوضح فيه أهمَّ خصائص المُعلِّم الناجح لعلَّ المُعلِّم الفاشل يستفيد منها، وأطرح فيه بعض الطرائق والأساليب التي يمكن أن يستخدمها في عمليَّة التَّعْلِيم لتجعل من

تعليمه وتدريبه قدوة لغيره في تحقيق الجودة في عمليتي التعليم والتعلم، وتحقيق الشعور بالرضى والسعادة بما يقدمه للطلاب، ويث روح المحبة والطمأنينة بين الطلاب.

تسميات وتعريف

كثرت مؤخراً الأسماء والعناوين والمصطلحات المستخدمة في الكتب والمؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام للدلالة على من يقوم بعملية التعليم، أو بعملية توصيل المعلومة للمتعلم، وكلاً منها له دلالة علمية، ووظيفته المهنية، ومؤهله العلمي المطلوب، ومكائنه الأكاديمية المعروفة، لكنها جميعها يشترك في إحياء العملية التعليمية من جهة، وتعليم الطلاب من جهة أخرى، أذكر منها مايلي مع الشرح البسيط، للتعريف بها، ولتمييز بينها:

أولاً: المُعَلِّم

من ناحية التسمية، 'المُعَلِّم' مصطلح أكاديمي تربوي يُستخدم للدلالة على من يقوم بعملية تعليم الطلاب في مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وأحياناً تُستخدم كلمة 'مدرس' عوضاً عن 'مُعَلِّم'.

من الناحية الأكاديمية، كلتا الكلمتين تدل على من يؤدي وظيفة تعليمية تدريسية يقوم بها صاحب مؤهل علمي ما في تخصص ما، سواء كان هذا المؤهل حصيلة دراسة سنتين أو ثلاث أو أربع في كلية ما أو معهد ما أو جامعة ما، كما هو الحال في مُعَلِّم أو مدرس مادة الديانة الإسلامية، أو مدرس مادة الرياضيات، أو مدرس مادة اللغة الإنجليزية أو غيرها من التخصصات النظرية والعملية أو المهنية والحرفية، وهي كثيرة ومتعددة.

من الناحية التربوية، المُعَلِّم هو المدرس الذي يكون قدوة لطلاب في القول والعمل، وحسن الخلق، وسلامة الفكر والتفكير، واستقامة التصرفات والسلوك، يقدم لهم العلم النافع بقالب أخلاقي علمي مشوق.

'المُعَلِّمُ' في هذا البحث هو المعيد أو المحاضر، هو الأستاذ أو المشرف، هو المؤدب أو الشَّيْخ، هو العالم العامل المُعَلِّم، فهم جميعاً يتحلون بخصلة العلم والمعرفة لكن بمستويات ودرجات متفاوتة، وجميعهم يساهمون في عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيم لكنَّ كُلَّ حسب طبيعة علمه ومقدرته ومكائنه، لذلك سأستخدم هذه التسميات عند الحاجة وفي المقام المناسب، إن شاء الله.

هذا التعريف للمُعَلِّم سيكون نقطة انطلاق لنا في هذا البحث الذي سنوضح فيه إن شاء الله - بشيء من التفصيل كل ما يتعلَّق بمكانة المُعَلِّم في الإسلام، وأهم صفات وخصائص المُعَلِّم الناجح، ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّة، وأهمية دور المعتقدات التي يحملها، مع عرض سريع لبعض الطرائق والأساليب التي يمكن للمُعَلِّم أن يستخدمها في تعليمه لطلابه.

ثانياً: المُعِيد

في معنى وتعريف مصطلح 'المُعِيد' عند السَّلَف الصالح، ذكر ابن جَمَاعَةَ الْكِنَانِي¹ رحمه الله: أن "المعيد هو الذي يعيد الدرس بعد إلقاء الشَّيْخ الخطبة على الطلبة كأنه معين الشَّيْخ على نشر علمه، وتبني خطبته، وإملائه في أذهان الطالبين شرحاً وبسطاً، ومعاون للطلبة في إعادة المحفوظات، والمراجعة في المذكرات، فهو دون الشَّيْخ، وأعظم درجة من عَامَّة الطلبة"².

ينبغي أن يكون المُعِيد من نخبة العقلاء، وصلحاء الفضلاء، وأن يمتاز بالصبر على أخلاق طلابه، وبالحرص على فائدتهم وانتفاعهم به، وبالسهر على راحتهم وأمنهم

¹ هو قاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، ولد سنة 639 هـ في حماة وتوفي سنة 733 هـ.

² تذكره الدامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني، ص 138

وسلامتهم قدر المستطاع، وهذا ما يُولد لديهم الحب والتقدير له، والرغبة في العمل الجاد والدِّراسة العميقة الفعَّالة.

في المحيط الأكاديمي العربي، 'المُعيد' هو كل من حصل على درجة جامعية بتقدير امتياز أو بدرجة شرف، وأُتيحت له فرصة التدريس في الجامعة. هذا المصطلح يُستخدم في بعض الجامعات العربية، لاسيما في الجمهورية العربية السورية، ومصر، وليبيا، والسودان، وذلك تشجيعاً للمعيد لمتابعة دراساته العليا من جهة، ولتحفيز الطُّلاب المجتهدين من جهة أخرى، أما في أوربا ولاسيما في المملكة المتحدة، يقوم بمثل هذا العمل طالب دراسات عليا نشيط يُعطى فرصة تدريس طلبة السنوات الأولى من دراستهم الجامعية، وذلك لإعطائه فرصة كسب بعض المال، مما جعل البعض يعتقد أن ذلك استغلال للجهود طالب الدراسات العليا، ووجد لحقوق طلبة الدراسات الجامعية، ولاسيما طلاب السنوات الأولى من دراستهم.

ثالثاً: المحاضر Lecturer

إن لقب 'المحاضر' مصطلح وظيفي أكاديمي يُعطى لمن يريد أن يعمل في المحيط الجامعي بصفته مدرساً، ومؤهلاته الأكاديمية يمكن أن تكون إجازة جامعية أو درجة ماجستير أو حتى درجة دكتوراة في تخصص معين، إضافة إلى خبرة لمدة مُعيَّنة في التدريس، أما وظيفة كبير المحاضرين Senior Adviser هي وظيفة أعلى من وظيفة المحاضر، ويمكن أن يكون حاصلاً على إحدى المؤهلات الأكاديمية أو جميعها التي يحملها المحاضر، ويحصل على هذه الوظيفة من لديه خبرة أفضل في التدريس، ولديه مؤلفات وأبحاث منشورة، ويكون أيضاً مؤهلاً للإشراف على رسائل طلبة الدراسات العليا، هذا الوضع مطبق في الجامعات العربية ولاسيما البريطانية منها.

وهناك أيضاً مصطلح وظيفي أكاديمي يأتي بعد مصطلح Senior Adviser يسمى 'قارئ' Reader ويُستعمل في الجامعات البريطانية أو في الجامعات التي تتبع نظام

التَّعْلِيمُ البريطاني فقط، أمثال الجامعات في سينغافور، ونادراً ما يُستخدم في جامعات الدول العربية.

رابعاً: الأستاذ الجامعي Professor

يُستخدم مصطلح لقب "الأستاذ" للدلالة على مكانة علمية ووظيفة أكاديمية في آن واحد، يحصل عليها من لديه مؤهلات أكاديمية مثل الإجازة الجامعية أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة، ولديه أيضاً خبرة مُميّزة في التَّعْلِيم والتدريس والإشراف والبحث العلمي والتأليف أكثر وأفضل مما سبق ذكره أعلاه. أمّا مكانة مُميّزة جداً في الجامعات البريطانية، ولا يحصل عليها إلا من كان له مساهمة مُميّزة في ابتداع نظرية مُعيّنة أو له براءة اختراع أو اكتشاف، وليس كما يحصل في بعض الجامعات العربية — للأسف — إذ يحصل عليها كل من لديه درجة الدكتوراة، وخبرة خمسة سنوات، ونشر ما بين عشرة إلى خمسة عشر مؤلفاً أو بحثاً علمياً فقط!

وهناك أيضاً درجة "أستاذ مساعد Assistant Professor" ودرجة "أستاذ مشارك Associate Professor" فهما أقل مكانة من مكانة "الأستاذ Full Professor"، هذا النظام من السلم الوظيفي الأكاديمي يُستخدم بشكلٍ واسع في الأمريكتين ومعظم البلاد العربية.

خامساً: المشرف Supervisor

إن مصطلح لقب "المشرف" في الوسط الأكاديمي يُعطى عادة لمن يكون مسؤولاً عن المتابعة الأكاديمية لتقدّم طلاب الدراسات الجامعية العليا، كطلاب درجة الماجستير وطلاب درجة الدكتوراة، ويمكن للمشرف أن يكون برتبة محاضر، أو محاضر كبير، أو قارئ، أو أستاذ، ومهما كانت رتبته الوظيفية الأكاديمية، فهو يقوم بمهام مضمونها النصّح والإرشاد الأكاديمي المتعلقة بدراسة الطالب المُشرف عليه.

سادساً: المؤدّب

يعود استخدام مصطلح لقب "المؤدّب" إلى العصر الأموي زمن خلافة عبد الملك بن مروان. لم يحمل المؤدّب أية مؤهلات أكاديمية، لكن كان عليه أن يُعرف بتقوى الله، صلاح السّدين، وبالخلق الحسن، والعلم النافع، حتى يتمكن من العمل بصفته مربياً ومُعَلِّماً وراعياً صحياً واجتماعياً لولد ما أو مجموعة من الأولاد. لا يُستخدم هذا المصطلح في عصرنا هذا للأسف. لكننا مازلنا نستفيد من علم ومنهجية المؤدّبين السابقين الأوّلين، فقد روي في وصية عبد الملك لمؤدّب ولده انه قال: "علّمهم الصدق كما تُعلّمهم القرآن، وجَنّبهم السّفلة¹ فاهم أسوأ النّاس رِعة² وأقلّهم أدباً، وجَنّبهم الحشَم فاهم لهم مفسّدة، وأخف³ شعورهم تَغَلّظ رِقابهم، وأطعمهم اللحم يَقْوُوا، علّمهم الشّعْر يَمُحُذُوا وَيَنَحِلُوا⁴، ومُرّمهم أن يستاكوا عَرَضاً، وَيَمَصُّوا الماء مصّاً، ولا يُعبّوه عبّاً، وإذا احتجّت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن في ستر لا يعلم به أحدٌ من الغاشية⁵ فَيَهُوُوا عليه"⁶.

¹ السّفلة بكسر الفاء السقاط من الداس يقال هو من السّفلة ولا تقل هو سِفلة لأنها جمع - مختار الصحاح.

² ورِعٌ يرع رِعة بكسر الراء المختار بمعنى الورع والتقوى. مختار الصحاح.

³ أخفى شاريه استقصى في أخذه وفي الحديث { أنه أمر أن تُحفى الثولوب وتُغفى اللحى }. مختار الصحاح.

⁴ يمجّدوا من المجد، وينجدوا من الرقعة والعلو. وهي في أصل لغة العرب نسبة لنجد في مقابل نهامة، فيقولون لنهم، وأنجد على الأرض في الحقيقة، كما يقولونها في المجاز، كما هي في نص عبد الملك .

⁵ لسان العرب (126/15)

والغاشية السّؤال الذين يَغشونكَ يَرْجُونَ فَضْلَكَ وَمَعْرُوفَكَ .

⁶ كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

وقال الحجاج¹ لمؤدّب بنه: "علمهم السباحة قبل الكتابة، فانهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسيح عنهم"². وقال آخر لمؤدّب ولده: "لا تُخْرِجْهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنْ اصْطَلَكَا الْعِلْمَ فِي السَّمْعِ وَازْدَحَامَهُ فِي الرَّهْمِ مَضَلَّةٌ لِفَهْمٍ"³.

سابعاً: الشَّيْخُ

إن مصطلح لقب 'الشَّيْخُ' قديم حديث، كثير الاستخدام، مختلف المعاني، متشعب الدلالات، فهناك من يستخدمه لمعناه ودلالته الاجتماعيّة المرموقة، كقوله: "فلان شيخ في أخلاقه، وعاداته، وسلوكياته" ومنهم من يستخدمه لمعناه ودلالته السياسيّة: كقوله: "فلان شيخ قبيلة شمر، أي رئيسها أو أميرها"، لكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى مصطلح "الشَّيْخ" الذي له صلة وطيدة، وعلاقة قويّة، بالعلم وعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ.

يطلق لقب 'الشَّيْخُ' - قديماً وحديثاً - على رجل الدِّين الذي يعمل في مجال تعليم النّاس تعاليم دينهم الخفيف، وفي الدعوة والإرشاد، وعلى نشر عقيدة التَّوْحِيدِ بالكلمة وبالقلم، من خلال وظيفة مأجورة أو غير مأجورة، سواء كان إماماً في مسجد أو معلّماً في مدرسة أو داعياً مستقلاً بنفسه.

كائنٌ قديماً مؤهلات الشَّيْخ تقوى الله، وعلم قال الله، قال الرّسول، قال الصّحابة، قال السّلف الصّالح، وكان يأخذ علمه وطريقة تفكيره وأسلوب دعوته عن شيخ أو عدة مشايخ معروفين في عصره، فعلى سبيل المثال وليس الحصر، تتلمذ الإمام العظيم ابن قيم الجوزيّة رحمه الله على يد أبي بكر بن عبد الدائم، والقاضي تقي الدِّين سليمان، وعيسى

¹ هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم النّقي، ولد في الطائف (41 - 95 هـ) وكان معروفاً بالمكر والدهاء والفصاحة والبلاغة، وعرف أيضاً بالظلم ومفك الدماء وتعدي حرّمات الله، ولّى على العراق من قبل عبد الملك بن مروان، اشتهر بحصاره لعبد الله بن الزبير بالكعبة ورميه بإيها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين. (انظر: سير الأعلام، ج4/ص343)

² كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

³ كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

المطعم، وغيرهم من علماء عصره، والجدير بالذكر انه لازم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله وأدخله الفردوس الأعلى ملازمة التلميذ لشيخه، فأخذ عنه كثيراً من العلوم.

أما حديثاً، وكثير من المشايخ يحملون درجات جامعية، والتي قد تكون أحياناً درجة الليسانس في الدراسات الإسلامية، أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة في تخصص له علاقة بالدين والشريعة الإسلامية. بعض هؤلاء المشايخ تناح لهم فرصة إعطاء دروس أو محاضرات أو حلقات علم في المساجد أو مؤخراً على بعض القنوات الفضائية التلفزيونية فيجتمع حولهم نفر من طلبة العلم لتلقي العلم، وربما الفكر والأسلوب عن غير تنظيم ونظام متابعة ليس من قبل الشيخ ولا من قبل طالب العلم، وبهذا تكون قد تلاشت ثقافة الشيخ وتلاميذه بالمعنى والشكل القديم. وأسباب هذا الانقراض لمثل هذه الثقافة العريقة المميزة في الحفاظ على جودة العلم وعمليّة التعليم والتعلم كثيرة ومتشعبة لا أريد مناقشتها في هذا المقام.

إن تسارع انقراض ثقافة "الشيخ وتلاميذه" بمعناه وشكله القديم في عصرنا هذا، واستبداله بمخرجين من أقسام الشريعة الإسلامية في كثير من الجامعات العربية وللأسف أدى إلى ظهور طائفة من "شيوخ القراء"¹، الذين يهتمون بالشهادة الجامعية والوظيفة واللقب أكثر من اهتمامهم بكسب أو نشر العلم النافع. كم من هؤلاء يحفظ القرآن والحديث! وكم منهم يعمل بعلم القرآن والحديث ويدعو إليهما في السر والعلانية! ففي هؤلاء قال هشام بن علي: "سمعت الأعمش يقول: إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفح له فانه من شيوخ القراء. قال أبو صالح: قلت لأبي جعفر: ما

¹ بمعنى أنهم يهمهم السمر في اللبالي القراء، بمتعته وخفته، ويؤثرونه على العلم الحقيقي الذي يحتاج معه طلب العلم، إلى المشقة والصبر والجلد. وربما غطوا بذلك على ما هم فيه من جهل ولداع. ولنل في عصرنا قراء كثيرون كثيرون!

شيوخ القمرء؟ قال: شيوخ دهرْيُون يجتمعون في ليالي القمر يتذكرون أيام النَّاس ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة¹.

وظهرت مؤخرأ طائفة من المشايخ أكثر جرأء ممن سبقها في العصور الماضية من حيث استعمالها للدين وسيلة للتقرب من السُّلطان من أجل الحصول على مال أو جاه أو مجلس اجتماعي يلتفت إليهم النَّاس إعجاباً بهم ويعلمهم، فهذا النوع من المشايخ باعوا دينهم واشتروا دنيا فانية، ففسحروا الدُّنيا والآخرة، وانقلب سعيهم حسرة ومزلة لهم، وأشد من هذا ما روي: "أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السَّلام فجعل يقول: حدثني موسى صفني الله، حدثني موسى نبي الله، حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله، فقده موسى عليه السَّلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خيراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه جبل أسود، فقال له موسى عليه السَّلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، قال هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخورك لم صنعت هذا به؟ لآته كان يطلب الدُّنيا بالدُّن².

لكن مازال يوجد طائفة من المشايخ الكرام في عصرنا هذا _ والحمد لله _ قد أخلصوا النية، وزهدوا بالألقاب الأكاديمية التي أحياناً لا يستحقها صاحبها، واكتسبوا العلم النافع، وعملوا ليل نهار على نشر كلمة الحق والدين، وابتعدوا عن القصور وأصحابها، واشتروا الآخرة وباعوا الدُّنيا وما فيها إرضاء لله عز وجل، هؤلاء ولو كان عددهم قليل فهم _ إن شاء الله _ تلامذة المشايخ العظام، والأئمة الموحدين، والعلماء الكرام السابقين، أمثال الإمام عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، والإمام ابن قيم الجوزية، وشيخ الإسلام تقي الدِّين أحمد بن تيمية، رحمهم الله أجمعين وأدخلهم برحمته فسيح جناته.

¹ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص205)

² إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ص87

ثامناً: العالمُ

إن لقب 'العالم' جميل وفخم معنًى ومضموناً، وكفى بصاحب هذا اللقب شرفاً وعزاً وفخراً أن الله سبحانه وتعالى قد ذكره في القرآن الكريم في مواقف عدة ليعطيه مكانة مُميّزة في سجل العمل البشري وأفضليته على غيره من العباد، حيث قال ﷺ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بَاقِسُطًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

يوجد خلاف واختلاف واضحان بين الغرب والشرق، وبين المسلمين وغير المسلمين، وبين العُلَمائيين، وأهل السنّة والجماعة على تعريف مصطلح 'العالم'، فالغرب وغير المسلمين والعُلَمائيين يعتقدون انه يمكن إطلاق لقب 'العالم' على الشخص الذي قدم مساهمة علميّة كبيرة للإنسانية جمعاء، ويكون ذلك من خلال كتابته لأبحاث علميّة كثيرة، ونشره لمؤلفات عديدة، وحصوله على براءة اختراع أو اكتشاف جديد أو إحداث نظرية جديدة يمكن تطبيقها في إحدى المجالات العلميّة من طب وهندسة ورياضيات وفيزياء وكيمياء، وغيرها من العلوم الكونية.

هذا التعريف أو المفهوم للقب 'العالم' الذي يحمله العُلَمائيون ومن والأهم هو تعريف ناقص ومشوه بل باطل إلى حد كبير، لأنّه لايعترف على أهمّ الخصال والشروط الّتي وضعها الله ﷻ في وصفه للعالم، وهي 'الخشية' من الله رب العالمين، لذلك نضع المعايير التالية الّتي توضح معنى ومفهوم مصطلح 'العالم' حتى يكون دليلاً لمن أراد أن يحصل على هذه المرتبة العلميّة العظيمة:

أ. المعيار الشرعيّ

هذا المعيار يحدد حقيقة من ادّعى بأنّه عالم، ويظهر لنا إن كان كذلك أم لا، لأنّ الجانب الدّينيّ أو الرّوحيّ من شخصيّة العالم يلعب دور 'الضابط' لآلية عقله وتفكيره،

1. فإذا كان تفكيره يتعارض مع ما جاء بكتاب الله والسنة الشريفة، أوقفه ومنعه من البت به، أما إذا لم يتعارض معها فعليه أن يدعه ويبارك في تفكيره وإبداعه، لذا يجب على العالم أن يتحلى بالخصال التالية، ويتقيد بها كشرط للحصول على لقب 'العالم'، فيجب عليه :
1. أن يخلص النية بأن كل علمه وما يسعى إليه هو لله وحده ومرضاة له ﷻ .
2. أن يتقي الله ويخشاه في كل ما يقول أو يكتب سرّاً وعلانية.
3. أن يتحلى بحسن ومكارم الأخلاق، ويتحلى عن كافة آفات العلم المبغضة.
4. أن يكون عالماً عاملاً معلماً عابداً لله وحده، وزاهداً بحطام هذه الدنيا الفانية.
5. أن يتأكد أن علمه فيه منفعة له وللعباد وخالٍ من أية ضلالة أو مضرة.
6. أن يكون ذا مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصالح والإيثار.

ب. المعيار العلمي

هذا المعيار يحدد طبيعة وقيمة المادة العلمية، ومقدار النتائج العلمي والأكاديمي، وعمق وفعالية تحيّل وتفكير وتحليل العالم للمعلومة، وجودة عملية عرضه للمعلومة، لذا يجب التأكد مما يلي:

1. نوع العلوم المبتدع فيها، هل هو من العلوم العليا (علم قال الله، قال الرسول)، أم هو من العلوم الوسطى (كعلم الطب والهندسة، والعلوم الاجتماعية، والأدبية الأخرى)، أم هو من العلوم السفلى (كالعلوم المهنية والحرفية وغيرها من العلوم).
2. لا بد للكم العلمي والمنتج الأكاديمي الذي ينتجه العالم أن يلعب دوراً في تأهيل العالم للقب العالم، فليس كل من كتب مجموعة من الكتب والمجلدات، ونشر عشرة أو عشرين أو حتى ثلاثين بحثاً علمياً يمكن أن يقال له عالم، فلو نظرنا في الكم الذي قدمه العلماء السابقون الأولون، لوجدنا من يسمون بـ "علماء هذا العصر" بأنهم أقزام أمام عمالقة العلوم العليا، أمثال الإمام أحمد بن

حنبل في الحديث والفقه، وشيخ الإسلام في العقيدة والتّوحيد، وابن عساكر في التاريخ، وغيرهم من العلماء العظماء المتقدّمين.

3. كما لا بدّ من التّطرّف في جَوْدَة علم العالم، فقد كثّر الكلام مؤخّراً، ولاسيّما في عصر تكنولوجيا المعلومات، عصر الحواسيب والأزّار، عصر كلام وثرثرة مواقع الإنترنت، عصر كثّر فيه الثّرثارون المتشدّقون، وقُلّ فيه العلماء الوقورون، عصر كثّر فيه "المسح والقص واللصق"، وقُلّ فيه العمل والصدق، لذا يجب التّأكّد من أن علم العالم، فيه إبداع وليس ابتداع أو سرقة من هنا وهناك، وفيه اعتراف واضح واستخدام متوازن لمبدئي "النقل والعقل"¹، وفيه عمق ووضوح في التّفكير والنقد والتحليل.

4. وينجب أيضاً التّأكّد من جَوْدَة عرض العالم لعلمه، وطريقة طرحه لنقاط النقاش، وأسألُوب مناقشته لنقاط الموضوع، هل عرضه لعلمه جميل سهل واضح مريح، هل طرحه لنقاط التّقاش فيها يعتمد على قواعد وأسس البحث العلميّ: من (توازن في استخدام مبدئي النقل والعقل، والموضوعيّة، والاستقرائيّة، والالتزام بمسار منطقيّ واحد، وغيرها من الأسس).

ت. المعيار العمليّ

إن الجانب العمليّ لأيّ علم تطبيقيّ أو نظريّ، ومدى أثره أو تأثيره على الواقع، ومنفعته للعباد، له أهميّة عظيمة، ويلعب دوراً أساسيّاً في تقديم وتحضّر البشريّة، ويرفع من

¹ مبدأ النقل هو مبدأ يقوم على تحكيم كتاب الله والسنة الشريفة والرجوع إليهما في كافة الأمور الإنسانيّة، ورفض أيّ تحكيم عقليّ إذا تعارض مع النصّ القرآنيّ أو ما صحّ نقله عن النبيّ محمد صلوات الله وسلامه عليه، فالمعرفة تكون معرفة نقلية عقلية. أما مبدأ العقل هو تحكيم العقل دون الرجوع إلى ما صحّ نقله عن الرسول ﷺ، وتكون المعرفة معرفة عقلية نقلية.

أخلاقيّات وسلوكيات الإنسان اتجاهاً نفسه واتجاهاً أخيه الإنسان، لذا يجب أن يتحلّى علم العالم بمائلي حتى يمكن أن يتّصف بـ 'العالم' عن حق وجدارة:

1. يجب أن يكون علم العالم قابلاً للتطبيق على أرض الواقع، سواءً كان علماً نظرياً كما هو الحال في العلوم الإسلاميّة، والعلوم الاجتماعيّة، والعلوم التاريخيّة، وغيرها من العلوم النظريّة النافعة، أم علماً تطبيقياً كما هو الحال في علوم الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم التطبيقية الأخرى.

2. لا يكفي للعالم أن يكون قابلاً للتطبيق فقط، بل يجب أن يكون له تأثيره وأثره على حياة الإنسان في كافّة مجالات الحياة، في مجاها الدينيّ، والأخلاقيّ، والنّفسي، والاجتماعيّ، والاقتصادي، والسّياسيّ، وغيرها من الجوانب التي تساعد على عبادة الله بحق.

3. من أهمّ شروط علم العالم أن يكون في علمه منفعة عمليّة تطبيقية تساعد العبد في تادية واجبه اتجاهاً ربه عز وجلّ أولاً، ثم اتجاهاً نفسه وأهله ومجتمعه ككلّ، فلا قيمة للعلم إن لم يكن علماً نافعاً يرضاه الله ورسوله ﷺ.

لذا على كل من يريد أن يصبح عالماً بحق عليه أن يستفيد مما ذكرته أعلاه في تعريفه للعلم، ويعمل جاهداً كي يتحلّى بأهمّ الخصال التي تميّزه عن كثير ممن يعلم، ولا يكون عالماً بحق إلا أن يكون الاستماع أحب إليه من الكلام، وما أقلّ هؤلاء!

إن التسميات والستعاريف التي ذكرتها في هذا الجزء من البحث تشترك فيما بينها بخصال وعوامل عدة، أهمّها العلم والتّعليم، فكل من المستلّم أو المدرّس، والمعيد، والمحاضر، والمشرف، والأستاذ الجامعيّ، وحتى المؤدّب، والشّيخ، والعالم، لديه 'علم' ماء، ويقوم بمهمّة ووظيفة 'التّعليم'، ويشارك في تعزيز عمليّة 'التّعلّم' عند الطالب.

سأستخدم مصطلح 'المُعلِّم' أو 'المدرس' خلال مناقشتي في هذا الكتاب لأنه يشترك مع بقية التسميات والتعاريف بعوامل كثيرة، كما سأستخدم بقية التعاريف في المقام المناسب وعند الحاجة، إن شاء الله.

المُعلِّم ومكانته في الإسلام

لو نظرنا في مكانة المُعلِّم في بعض المجتمعات التي تدعي التحضر، واحترام حقوق الإنسان، والعمل بقانون العدل والمساواة، أمثال بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية، لوجدنا أن مرتبة المُعلِّم أو المدرس - سواء كان يعمل في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية - هي في أدنى درجات السلم الوظيفي اجتماعياً ومالياً مقارنة مع مكانة الطبيب أو المهندس أو المحامي.

ولو نظرنا أيضاً في مكانة المُعلِّم في مجتمعات الدول العربية التي بدورها تقلد الدول الغربية في كثير من الأمور، منها كيفية النظر والتعامل مع المُعلِّم وأين موضعه في السلم الاجتماعي الطبقي من جهة، ومكانته في السلم الوظيفي تعليمياً وتربوياً ومالياً، لو جدنا أن المُعلِّم العربي ليس بأفضل حالاً من المُعلِّم الغربي.

يعاني المُعلِّم العربي حالياً - وللأسف - من عقدة النقص والشعور بالصغار والقصور أمام الطبيب أو المهندس أو المحامي، فهو يعتقد أن الطبيب - على سبيل المثال - وليس المحصر - أفضل منه علمياً واجتماعياً ومالياً، وهذا ما يجعله - إلا مارحماً ربي - عرضة لوساوس الشيطان، وضحية للجهل والجشع، ومطية لارتكاب الخطايا والذنوب، فتارة تراه مغموماً مهموماً، وكأنه فقد الأهل والأحلاء، وتارة تراه ناقماً منتقماً، وكأن الطلاب قد أكلوا أكله، وشربوا شربه، فهو يذهب إلى المدرسة على مضض منه، ويدرس الطلاب بدون مبالاة وشبهة، وإذا فكر في تحسين وضعه، ذهب عقله وتفكيره لتدريس الطلاب دروساً خصوصية، فهي سهلة سريعة، تعطيه الجاه والمال، لكن تفقده السعادة والطمأنينة.

هذا الوضع المحزن لكثيرين من المُعلِّمين في معظم البلاد العربيَّة سببه الجهل وقلة السدِّين، وجور العرف الاجتماعيِّ، وفشل وقصور في نظام التَّعلِيم والمتابعة في المؤسسات التَّعلِيمِيَّة، فلو علم المُعلِّم أن 'بضاعته'¹ هو رزق ساقه الله له، ورضي به وعمل به علماً وتعليماً، لعرف انما أفضل وأشرف من 'بضاعة' طبيب لا يخاف الله في علمه وعمله وتعامله مع زبائنه، وما أكثرهم هذه الأيام! تجد أحدهم، حديث التخرُّج، حديث المهنة، لامؤهلات بجدارة، ولاخيرة تُذكر، ولا أبحاث تُنشر، يتصدر المجالس الاجتماعيَّة المناقشة، وتحتل لائحة عنوان عمله المنقوشة والمزخرفة بأسماء ورموز شهادات ما أنزل الله بها من سلطان الشوارع الرُّئيسة في المدينة، وبها يبدأ هممه وجشعه وعنجهيته، فتراه على سبيل المثال يطلب إحرة باهظة لبضع دقائق يقضيها على عجل مع مريض لا يتجرأ على أن يستفسر عن مرضه وحالته الصحيَّة إلا ويصيح به هذا الطبيب الفظ الجاهل الأهوج² الرطبيُّ³ : ما بك؟ لماذا هذه الأسئلة؟ هل تشك باستشارتي؟ إذا لم يعجبك الأمر، بابي ما زال مفتوحاً؟ فبئس الطبيب هو، وبئس الاسشارة هي، وبئس الوظيفة هي، وبئس الباب بابه.

إن الحماسة والكبرياء والعجب والفخر والخيلاء أمراض قلبيَّة يعاني منها كثير من السَّناس وعلى رأسهم أمثال هذا الطبيب الجاهل الأهوج الرطبيُّ، وسبب هذه الأمراض الجهل ودواؤها العلم، فبعلمه النافع يعالج المُعلِّم الناجح مرضى القلوب، وبعلمه النافع يجلب لنفسه ولطلابه سعادة نفسيَّة وروحيَّة قلبيَّة.

اعلم أيها المُعلِّم الفاضل أن بضاعتك خير من أي بضاعة دنيوية أخرى، فلا يغرنك تقلب أصحاب هذه الدُّنيا الفانية فيها، ولا تيأس من روح الله، فبضاعة العلم والمعرفة خير

¹ المقصود هنا كل ما بحوزته من علم وعمل ومهنة

² الأهوج: هو من كان طويلاً في حلق وطيش وتسرُّع

³ الرطبيُّ: الأحمق الغليظ الكلام

من بضاعة المال والجاهل، فقد روي أن أبا جعفر الطحاوي قال: "كنت عند أحمد بن أبي عمران فمرّ بنا رجل من بني الدنيا فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة، فقال لي: كأني بك قد فكرت فيما أعطي هذا الرجل من الدنيا، قلت له: نعم، قال: هل أدلك على خلة؟ هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال، ويحول إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنياً جاهلاً، ويعيش هو عالماً فقيراً؟ فقلت: ما أحتار أن يحول الله ما عندي من العلم إلى ما عنده، فالعلم غني بلا مال، وعزّ بلا عشيرة، وسلطان بلا رجال. وفي ذلك قيل¹:

العلم كنز وذخر لا نفاد له	نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يجرمه	عما قليل فيلقى الذلّ والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً	ولا يخاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نغم الذخر تجمعه	لا تعدلنّ به دراً ولا ذهباً

إن الإسلام أجلس صاحب العلم النافع مجلس عزّ وشرف ورفعة وقوة يغطيه عليه كثير من العقلاء الأفاضل، فقد أثنى الشرع على المُعَلِّم ووضعه موضع حمد وثناء، وهذا حقّق مكانة دينية، وعلمية، وتربوية، واجتماعية، أما وضعه الاقتصادي والسياسي ففيها نظر كما سنرى في الصفحات التالية، إن شاء الله:

أولاً: وضع المُعَلِّم الدينيّ

أول من تقلّد وسام لقب 'المُعَلِّم' هو جبريل عليه صلوات الله وسلامه، وذلك عندما كان يعلمّ رسولنا محمّداً، الإسلام، وما أوحاه الله لرسوله من تعاليم وشرائع، قال الله تعالى في وصفه للمُعَلِّم الأول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ وَخِي يُوحِي * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: 4-5]

¹ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص206)

فوصفه الله بحبريل صلوات الله وسلامه عليه بالعلم والقوة، فيكفي المعلم شرفاً ومكانة أن يسعى لكي يتحلى بهاتين الخصلتين الجميلتين.

وهل هناك مكانة أو عمل أنبل وأفضل من مكانة النبوة وعمل الأنبياء، فمحمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسوله للعالمين أجمعين، جاء رسولاً معلماً يعلمنا ديننا وشريعتنا، فكان الرسول المعلم المرشد الهادي، وكان القمر يستنير بنور علمه أناس يسرون في ظلمات الجهل والضياغ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِخَلْقَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى، وَالْأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ، هَؤُلَاءِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ يُعَلِّمُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا، فَجَلَسَ مَعَهُمْ"¹.

ألا يرضى المعلم في هذا العصر، ويكفيه شرفاً وعزاً أن يعلم أن حبريل صلوات الله وسلامه عليه كان معلماً، وأن محمد رسول الله ﷺ جاء معلماً، وأن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين كانوا معلمين للناس دينهم، وأن التابعين والسلف الصالح كانوا أيضاً معلمين! قال سفيان بن عيينة: "أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الرسل والعلماء"².

لا شك أن المعلم الذي يدرس علماً ينتفع به المسلمون، وكان مخلصاً لله في عمله، ينتظره أجر عظيم من الله عز وجل، ويستغفر له من في السموات والأرض جزاءً لعمله

¹ سنن ابن ماجه، رقم 229 (ضعيف)

² مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص149)

وتقديرًا لمكانته، فعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وإنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحَبِثَانِ فِي الْمَاءِ"¹.

وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ انه قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"².

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنهم؛ أن النبي ﷺ انه قال: "من عِلَّمَ علماً، فله أجرٌ من عَمَلٍ به، لا يُنْقَصُ من أجرِ العاملِ شيءٌ"³.

هذا قليل من كثير مما ذكر في أجر المُعَلَّم المخلص لله في عمله، وما أعدّه الله له من ثواب عظيم في اليوم الآخر.

ثانياً: وضع المُعَلَّم العلمي والتربوي

إن مكانة المُعَلَّم العلمي والتربوي في الإسلام رفيعة المقام، فيها الكمال والجمال، كمال العلم وجمال العمل، لهذا بُعِث المُعَلَّم بأنه عالم رباني لما لديه من علم نافع وعمل صالح، فقد قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما: إن العالم الرباني هو المُعَلَّم، لأنه يربي الناس بالعلم ويبرهم به كما يربي الطفل أبوه⁴، لكن لا يمكن أن يُوصف أي مُعَلَّم بكونه عالماً ربانياً إلا إذا حقق الشروط والمعايير المذكورة أعلاه في تعريفنا للعالم.

وحتى يكون المُعَلَّم قدوة لطلابه في كسب العلم النافع، وفعل الخير، طلب الشرع منه أن يشتغل في تحصيل العلم من قراءة وكتابة وتفكير وتعليق وبحث، محاولاً قدر المستطاع أن لا يضيع شيء من أوقات عمره إلا في العلم والعمل، وأن لا يستكف أن يستفيد من

¹ صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (ج1/ رقم 70).

² صحيح مسلم، رقم 1631.

³ صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (ج1/ رقم 80).

⁴ مفتاح دار المعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ ص158).

طلابه وممن هم دونه منصباً أو سنّاً. قال سعيد بن جبير رحمه الله: " لا يزال الرجل عالماً ما تعلّم، فإذا ترك التعلّم وظن انه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون"¹.
إن المُعَلَّم في الإسلام يربي طلابه على تقوى الله وطاعته قولاً وعملاً، سرّاً وعلانيةً، وعلى حب رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وتقليد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين في أقوالهم وأفعالهم، ويغرس فيهم مكارم الأخلاق، ويُعزّز فيهم حب وفعل الخير، وينهاهم عن فعل المنكرات، وبهذا يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، فعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "مُعَلَّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَيَتَانُ فِي الْبَحَارِ"².

وبهذا يُخرّج المُعَلَّم الصالح جيلاً صالحاً نافعاً من طلاب العلم والمعرفة يعمل على بناء مجتمع مسلم صالح قوامه مخافة الله، وأساسه العلم النافع والعمل فيما يرضى الله ورسوله ﷺ.

الثالث: وضع المُعَلَّم الاجتماعي

إن الجهل عدو العلم، والجهل صفة الحمقى والمغفلين، والعلم صفة العقلاء والمنطقيين، والجهل يجلب الذل والهوان، والعلم يجلب الاحترام والتقدير، والجهل يجعل الأمير سوقياً، والعلم يجعل السوق أميراً. فقد روي انه " كان بعض خلفاء بني العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمّه فأذن له وغطّى الرقعة فلما جلس قال له: يا عمّ هل قرأت القرآن؟ قال: لا، قال: هل كتبت شيئاً من السنّة؟ قال: لا، قال: هل نظرت في الفقه واختلاف النّاس؟ قال: لا، قال: فهل نظرت بالعربيّة وأيام النّاس؟ قال: لا، فقال الخليفة: اكشف الرقعة ثم

¹ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة للكناني، ص 37

² المسلسلة الصحيحة، رقم 3024

أتم اللعب وزال احتشامه وحيأوه منه، وقال له مُلَاعِبُهُ: يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه، قال: اسكت فما معنا أحد¹.

لا شك أن علو مقام المُعَلَّم بين الخواص والعوام من النَّاس هي ثمرة رفعة مكانته الدِّينِيَّة والعلمِيَّة والتَّربويَّة في الإسلام. فبالعلم النافع، وبالعَمَل الصالح، وينشر علمه بين طلاب العلم وبين الخواص والعوام من النَّاس يحصل المُعَلَّم على الاحترام والتقدير، ويجلس مجلس أكابر القوم، ويستمتع لقوله الصغير والكبير حتى ولو كان فقيراً لا نسب ولا حسب له، يقول الإمام الشافعي رحمه الله في فضل العلم على صاحبه:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيمٌ	وَكُنْتُ وَلَدْتُهُ أَبَاءَ لِمَامٍ
وَكَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ	يُعْظَمَ أَمْرُهُ الْقِسْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ	كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ	وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ ²

فهذه المكانة الإِجْتِمَاعِيَّة المحمودة تأتي نتيجة معاملة المُعَلَّم النَّاس بمكارم الأخلاق من صدق في القول والعمل، وطلاقة في الوجه، وإفشاء السَّلام، والرفق بالطلبة، وغيرها من محاسن الأمور، ونتيجة لابتعاده وتجنُّبه مساوئ الأخلاق من كذب وخداع ونفاق ورياء وحسد ومماراة وحب للسُّمعة والجاه، وغيرها من الأخلاق السيئة والصفات الرديئة المذمومة، وفي هذا روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِنَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِنَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا تَخْشَوْا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَالَ النَّارُ"³.

لذلك ينبغي على المُعَلَّم أن يتحلَّى بأفضل الخصال الحميدة التي تقرِّبه من الله عزَّ وجلَّ ومن العباد الصالحين في هذه الحياة، وأن يحذر أشدَّ الحذر من الخصال الخبيثة

¹ مفتاح دار السعادة لأبن قيم للجوزية (ج1/ص205)

² شرح ديوان الإمام الشافعي، ص83

³ رواه ابن ماجه، صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (ج1/رقم107)

والأخلاق السيئة التي تقر به من النار في اليوم الآخر ومن أصحابها في هذه الدنيا الفانية. يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا لم يَزِدْ عِلْمُ الْفَتَى قَلْبَهُ هَدًى وَسِرَّتَهُ عَدْلًا وَأَخْلَاقَهُ حُسْنًا
فَبَشَّرَهُ أَنَّ اللَّهَ أَوْلَاهُ نَقْمَةً يَسَاءُ مَا مَثَلَ الَّذِي عَبْدَ الْوَثْنِ¹

رابعاً: وضع المُعَلِّمِ المالي

كما سبق الإشارة إليه أعلاه، أن المُعَلِّمَ في البلاد العربيَّة يجلس في أسفل السلم الوظيفي المالي مقارنة ببقية الوظائف كالطبيب والصيدلي والمهندس والمحامي وغيرهم من الموظفين، فهو يعاني من قلة الراتب الشهري، وقلة العلاوات المادية، وقلة الحوافز المالية، وهذا ما يؤدي إلى تقصيره في أداء واجبه العلميِّ والتَّربويِّ، وتشويش صفاء عقله عليه في التعامل مع طلابه، ودخول وساوس الشَّيطان إلى قلبه، فيتصرف تصرف الحمقى والمغفلين، فيخسر الدُّنيا والدِّينَ .

لذا لابدّ من نشر الوعي بين النَّاسِ حتَّى تتغيَّر مواقفهم من المُعَلِّمِ ومكانته في المجتمع، وينبغي على المؤسسات والأنظمة التَّعليميَّة أن تعيد النَّظَرَ في وضع المُعَلِّمين المالي وتعمل على تحسين أوضاعهم الماديَّة ورفع رواتبهم الشهريَّة، وفي الوقت نفسه ينبغي على المُعَلِّم أن يعمل على تطوير قدراته العلميَّة حتَّى يستحقَّ التحسين في وضعه المالي، وأن يربي نفسه على حب عمله، الذي هو أفضل من أي نوع من التجارة ولاسيَّما إذا كان يبتغي في علمه وعمله وجه الله ﷻ ومرضاته.

اعلم أن التجارة في العلم تجارة رابحة في الدُّنيا والآخرة، وهي باقية مع صاحبها أينما حل وارتحل، وفيها الخير المعنوي والمادي لصاحبها. فقد حُكي عن بعض العلماء "أنه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة، فأصبحوا بعد عزِّ الغنى في ذلِّ الفقر، ووصل

¹ شرح ديوان الإمام الشافعي، ص96

العالم إلى البلد فأكرّم وقُصِدَ بأنواع التحفِ والكرامات، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له: هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة؟ فقال: نعم؛ تقولون لهم: إذا اتخذتم مالاً فانخذوا مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة فانخذوا العلم بحجارة¹.

خامساً: وضع المُعلِّم السياسي

منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر ونحن نعاني كمجتمع عربيّ مسلم من وجود فئة من المُعلِّمين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فباعوا دينهم بديناهم، وفضلوا إرضاء السُلطان على إرضاء رب السُلطان، فقتل قلوبهم وانتعشت نفوسهم الضالة، فأصبحوا أفة تأكل الأخضر واليابس، وترمي بالعلم ورواده في مزبلة الجهل والضياع، ضاربة عرض الحائط مصلحة الفرد والمجتمع.

هذا النوع من المُعلِّمين حذر منه الشرع، وزجر مساعي من يركض وراء الجاه والإمارة على حساب دينه، وذم من سكت عن ظلم السُلطان، سواء كان متمثلاً بمدير مدرسة أو عميد كلية أو أمير بلد من البلدان، فقد روي عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه قال: 'إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص'²، لذلك أثنى الرسول ﷺ على من يقول كلمة الحق عند السُلطان الجائر وعده جهاداً في سبيل الله، فعن أبي سعيد الخدري، أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"³.

لا يعني هذا أن الاهتمام بالشؤون السياسية للبلد أو العمل فيها مذموم ومحظور على المُعلِّمين، بل هو محمود شريطة أن لا يكون ذلك على حساب عقيدة التَّوْحِيد لدى المُعلِّم، فلا بد من الموازنة بين مصلحة الدِّين ومصلحة الدُّنيا، فإذا تعارضت المصلحتين

¹ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص136)

² إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج1/ص85

³ سنن أبي داود، ج4/رقم4344

في الغرض والوسيلة، عندها تفضل مصلحة الدِّين على مصلحة الدُّنيا، لما في ذلك من خير وبركة في دنيا العبد وآخرته.

صفات المُعَلِّمِ العاقل النَّاجح

تختلف صفات المُعَلِّمِ الناجح من بلد إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، فما هو جميل في بلد قد يكون قبيحاً في بلد آخر، وما هو مقبول في ثقافة يكون مرفوضاً في ثقافة أخرى، وما هو ممدوح في مجتمع قد يكون مذموماً في مجتمع آخر، فخصال المُعَلِّمِ الناجح في المجتمع العَرَبِيِّ تختلف إلى حد ما عن خصال المُعَلِّمِ الناجح في البلاد العربيَّة.

لكنَّ هناك خصال مشتركة ينبغي على المُعَلِّمِ الناجح أن يتحلَّى بها سواء كان من بلاد الشرق أو من بلاد الغرب، سواء كانت ثقافته عَرَبِيَّةً عُلَمَانِيَّةً أم عَرَبِيَّةً إسلامية، نذكر منها مايلي:

أولاً: الإخلاص

كثير من المُعَلِّمِينَ في البلاد العربيَّة ولاسيَّما في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّة الحكومية لا يبالون في أداء عملهم الوظيفي، فمنهم من يتأخر خمسة أو عشرة دقائق عن موعد بدء الدرس بدون سبب وينتهي الدرس قبل خمس أو عشر دقائق، ومنهم من يقضي حصة الدرس ضحكاً ولعباً، ومنهم من يمضي وقت الدرس ثرثرة وتشدقاً بمواضيع لا علاقة لها بالمسئله الدَّرَاسِيَّة، ومنهم من يمارض في قاعة الدرس فيقضي الوقت جالساً أو نائماً مستعطفاً مشاعر طلابه. من كان يفعل هذا من المُعَلِّمِينَ فهو مُعَلِّمٌ غشاش منافق.

إن هذا النوع من المُعَلِّمِينَ بدون مغالاة لا وجود له في بلاد الغرب عامة ولا في بريطانيا خاصة، لا في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّة الحكومية ولا في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّة الخاصة. تجدد المُعَلِّمُ يدخل القاعة الدَّرَاسِيَّة قبل نصف ساعة من موعد دخول الطلاب ليتجهَّز

للمدرس، ويستقبل الطالب، يعطي الدرس بإخلاص وصدق، ويتّصف أدائه الوظيفي سواء في عمله أو تعامله مع طلابه بالجديّة والجوّة والمسؤولية.

لذا أقول: إن أهمّ صفة يتحلّى بها المُعَلِّم الناجح في عمله الوظيفي وفي تعامله مع زملائه المدرسين، وطلابه المساكين، الصدق وإخلاص النية في العمل، فعندما يخلص المُعَلِّم في نيته قولاً وعملاً ويجعلها لله خالصة، تعم المنفعة على المُعَلِّم وعلى طلابه من جهة، ويكون قدوة لغيره من المُعلِّمين والإداريين في المؤسسة التعلّيمية من جهة أخرى، فالإخلاص مطلب شرعيّ أكّد عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيكِ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبِدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2]. وعن زيد بن ثابت¹ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نظر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه غيره، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه، ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم. ومن كانت الدنيا نيته، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتّب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"³. وفي الأثر أيضاً، قال مكحول في الإخلاص: "ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"⁴.

¹ هو الإمام الكبير، شيخ المقرئين، والفرضيين، مقتي المدينة أبو سعيد، وأبو خارج، الخزرجي، النجاري الأنصاري، كاتب الوحي، وحدث عن النبي ﷺ، وعن أصحابه، وقرأ عليه القرآن بعرضه أو كله، ومناقبه جنة. مات سنة 45 هـ عن عمر يناهز 56 سنة (انظر: سير الأعلام، ج2/ص426)

² لا تغلّ: لا يفتقد، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق.

³ صحيح الترغيب والترهيب، ج1/رقم90

⁴ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج2/418

ثانياً: التحلي بمكارم الأخلاق

كثيراً ما قيل وكُتب في مكارم الأخلاق، لكن أجملها ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه في الأبيات الشعرية التالية¹:

فَالْعَقْلُ أَوْلُهَا وَالِدَيْنِ ثَانِيهَا	إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ
وَالْجُودُ خَامِسُهَا، وَالْعُرْفُ سَادِيهَا	وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا، وَالْعِلْمُ رَابِعُهَا
وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا، وَاللِّينُ عَاشِيهَا	وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا
وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أُعْصِيهَا	وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَصْدَقُهَا
مَنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا	وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنِي مُحَدَّثُهَا

إن الأخلاق نوعان: أخلاق كريمة حميدة، وأخلاق رذيلة مذمومة، والمُعَلِّمون نوعان: مُعَلِّمون أخلاقهم الحمد والشكر، التواضع والصبر، الصدق والعدل، الحلم والرفقة، الزهد والعفة، ومُعَلِّمون أخلاقهم النهي عن المعروف والأمر بالمنكر، التكبر والتذمر، الكذب والظلم، التعنت² والمحابة³، الطمع والاستغلال، الغيبة والنميمة، الحسد والبغض والكرامية، عافاني الله وإياكم من كافة خصال السوء والرذيلة.

للفائدة أذكر بشيء من التفصيل أهم مكارم الأخلاق التي يجب على المُعَلِّم أن يتحلى بها ويعمل بمضمونها إذا أرد النجاح في عمله وتعامله مع طلابه وزملائه المدرسين، فيها يكون قد تخلّى عن خصال السوء والرذيلة، وبها يكون قد تقرب إلى الله عز وجل:

أ. الحمد والشكر

كثيراً ما نسمع أن المُعَلِّم فلان يعني قلة الرزق وضيق العيش، وآخر يتزمر من كثرة الأعمال والأشغال، ومُعَلِّم يشكو مساوئ أخلاق طلابه، وآخر يغتاب بيبغض

¹ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ص25

² التعتن: التعصب والمكابرة والعناد في الرأي أو الموقف.

³ المحابة: ميل خالص فيه تحيّر ظاهر.

وكراهية، زملاءه المدرسين، هذا وضع يُرثى له، وحالة مرضية لا دواء ولا شفاء لها إلا بالعودة إلى الله سبحانه وتعالى.

لنا حتى يتميز المُعَلِّم الناجح السعيد عن غيره من المُعَلِّمين الفاشلين التعساء، عليه أن يكثر من ذكر الله والثناء عليه في السراء والضراء حتى يبقى ضميره مرتاحاً وقلبه مطمئناً قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَطَعْنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

ومن خصال المُعَلِّم الناجح السعيد شكره المستمر لله ﷻ على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، فبالشكر تدوم النعم بل تزداد بفضل الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنُكُمْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7]. وبالشكر يرضى الله ﷻ على العبد إذا حمده وشكره على لقمة طعام أو شربة ماء، فعن أنس بن مالك¹ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا"².

ما أجمل ثناء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على الصبر والشكر عندما قال: "لو كان الصبرُ والشكرُ بعيرين، ما باليتُ أيهما ركبت"³.

¹ هو الإمام الملقب بالمقرئ المحدث أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله وقرابته من النساء وتلميذه وتبعه وآخر أصحابه موتاً، ولد بعشر سنين قبل الهجرة. روى عن النبي علماً جماً وعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاذ وكثير غيرهم وعنه روى عنه خلق كثير من التابعين منهم الحسن البصري وابن سيرين وعمر بن عبد العزيز وغيرهم الكثير، توفي سنة 91هـ.

² صحيح مسلم، رقم 2734

³ عِدَّةُ الصَّابِرِينَ وَخَيْرَةُ الشَّاكِرِينَ، لِإِبْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيَّة، ص 133

ب. الصبر والتواضع

الصبر والتواضع صفتا الأنبياء والمرسلين، وسمتان يحبهما الله سبحانه وتعالى، والتكبر والعجب والتذمر صفات الشياطين والغاوين من الناس، سمات يكرهاها الله سبحانه وتعالى، ففي مدح الصبر والثناء على الصابرين، يقول الله تعالى: ﴿وَكَبُلُواْكُمْ بِسَبِيٍّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُودِ وَقَصِّصْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَكَاتِ وَشَرِّ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]. وقال الله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]. وفي ذم الكبر والتكبر وأصحابه، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تُصْعِقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَمَا تُنْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحَاتٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

أما في التواضع، فكان رسول الله ﷺ الرسول المعلم، عظيمًا في تواضعه، قدوة في صبره، فكان يتواضع السائل مهما كان من جفاء في نطقه، وغلظة في كلامه، وخشونة في سؤاله، حتى أنه كان يقطع خطبته ليحجب على سؤال أعرابي من البداية من أجل أن يعلمه دينه، فعن حميد بن هلال، قال: "قَالَ أَبُو رِفَاعَةَ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، لَا يَذَرِي مَا دِينُهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأَتَنِي بِكَرْسِيِّ، حَسَبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ فَقَعَدَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُلْعِمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَنِي خُطْبَتُهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا"¹.

وفي هذا المقام، ذكر الإمام أبي حاتم البستي رحمه الله الأبيات الشعرية التالية² يحثنا فيها على لزوم التواضع ومحاربة العجب والكبر:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكُم تحتها قومٌ همُ منك أرفعُ
فإن كنتَ في عزٍ وخيرٍ ومُنعةٍ فكُم مات من قومٍ همُ منك أمنعُ

¹ صحيح مسلم، رقم 876

² روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص 52

هذا قليل من كثير مما قيل في أهمية الصبر والتواضع في التعامل مع بعضنا البعض بشكل عام، وفي تعامل المُعَلِّم مع تلاميذه بشكل خاص، فما أجل والطف من المُعَلِّم الذي يطيع الله ورسوله، ويكون مُعَلِّماً صبوراً متواضعاً في عمله وتعامه مع طلابه، لعله يفوز برضى الله سبحانه وتعالى، وبخير الدنيا والآخرة، إن شاء الله تعالى.

ج. الصدق والعدل

إن الصدق والعدل من أهم المبادئ التي حثَّ عليهما وحُبَّ فيهما الإسلام، ومن أهم مستلزمات النجاح في العمل مهما كان نوعه أو طبيعته، سواء كان عملاً سياسياً، اقتصادياً، اجتماعياً، تربوياً أو تعليمياً. وعلى خلاف ذلك، فقد ذمَّ الشرع الكذب والظلم، وحذَّر منهما في كافة أشكالهما ومجالاتهما، ففي الصدق يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]. وفي العدل يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايُنْ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]. وفي الكذب وأصحابه، يقول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ بِمُذِّبٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: 11]. وفي الظلم وعاقبة الظالمين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَنُيَعِّظَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: 39].

وفي لزوم الصدق ومجانبة الكذب، روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِلَّا كُفَّ وَالْكَذِبُ، فَإِنَّ الْكَذِبَ

يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا¹.

وفي الكذب ومصير الكذّاب بين الناس، ينشدنا الشاعر الكرزي الأبيات الجميلة التالية²:

كذبتَ ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أن لا يُصدقًا
إذا عُرف الكذاب بالكذب لم يزل لدى الناس كذاباً، وإن كان صادقاً

بالرُّغم من الحث والثناء الشديدين على الصدق والعدل، وتحريم الكذب والظلم، نجد الكثير من العاملين في قطاع التربية والتعليم، ولاسيما المعلمين منهم، يمارسون المماراة والكذب، والظلم في تعاملهم مع بعضهم بعضاً بشكلٍ عام، ومع طلابهم وأولياء الأمور بشكلٍ خاص. فمنهم من يجافي طالباً على آخر لقربه منه، أو لمعروف فعله معه، ومنهم من ينقص درجات طالب ما لآله لم يسلم عليه! ومنهم من يقبل طالباً ما في مجموعته لانتماه لفئة مُعينة من الناس، ومنهم من يعتبر الكذب والظلم 'شطارة' يمارسها على طلابه وغيره، ومنهم من يكون الكذب والظلم حصلتان ريباً معه منذ الطفولة، عافاني الله وإياكم من الكذب والظلم ومن صحبة الكاذبين والظالمين.

فقد رُوي عن مجاهد³ أنه قال: "يُوتَى مُعَلِّمُ الصِّبْيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ كَانَ عَدَلَ بَيْنَ الْغُلَمَانِ، وَإِلَّا أَقِيمَ مَعَ الظُّلْمَةِ"⁴.

¹ صحيح مسلم، رقم 2607

² روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص 43

³ مجاهد بن جبر، هو: الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، الأسود، مولى الصائب بن أبي السبب المخزومي؛ روى عن ابن عباس، وعن أخذ القرآن، والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن وقاص، وعبد الله بن عمر وغيرهم من الصحابة الكرام، بلغ مجاهد 83 سنة، مات سنة 104هـ (انظر سير أعلام النبلاء، ج 4/ص 449)

⁴ كتاب عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، ج 1/ص 84

فسممتا الصدق والعدل من أجمل وأحلى السمات التي يتحلى بها المُعَلِّم الناجح، فيها يرضى الله عليه، وبها يحبه ويرضى عنه طلابه، ثم رتقا ارتياح البال والضمير، والسعادة والسرور. فعلى المُعَلِّم الكذاب الظالم أن يتوب إلى الله عز وجل، ويتعهد بمارسة الصدق والعدل في عمله وتعامله مع زملائه المُعَلِّمين، وطلابه المساكين حتى تنضم إلى زمرة المُعَلِّمين الناجحين المُتميزين.

د. الحلم والرفقة

إن مهنة التعلُّيم شاقة وصعبة المسالك لمن أراد أن يتخذها وسيلة لكسب العيش، وجميلة حلوة لمن أحبها، وقبلها على ما فيها من منغصات، فهي مرّة مذاق على المُعَلِّم ذو القلب القاسي، والعقل المضطرب، والمزاج الكد التبعس، وعلى خلاف ذلك، فهي عذبة المذاق على المُعَلِّم ذو الصدر المنشرح، والعقل السوي، والحليم الرؤوف بطلابه.

إن الحلم والرفقة من أجمل خصال نبينا محمد ﷺ، الرسول المُعَلِّم الأول، الحليم الرؤوف بالمؤمنين، الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. وقال الرسول المُعَلِّم الأول عن نفسه، مؤكداً أهمية عنصر الرحمة والرفقة في شخصيته العظيمة، والحلم والحنان كعنصرين أساسيين في عمليّة التعلُّيم، فهو المُعَلِّم العالم يشبه نفسه بالأب الخنون الحريص على تعليم أولاده، ويضرب مثلاً بالحلم والرفقة للمُعَلِّمين في هذا العصر لعلهم يتعظون في تعاملهم مع تلاميذهم، فعن أبي هريرة انه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ"¹.

وفي هذا المقام، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَتَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟

¹ سنن النسائي، رقم 40. إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم. الألباني: حسن صحيح

وَالَّتِي ﷺ مَتَّحِي بَيْنَ ظَهْرَاتِهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكَيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ " قَدْ أَجَبْتُكَ ". فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَشَدَّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تُجِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: " سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ". فَقَالَ: أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". قَالَ: أَنَشُدُّكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ قَالَ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". قَالَ: أَنَشُدُّكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". قَالَ: أَنَشُدُّكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بَنِي نُعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ¹.

هكذا كان أسلوب الرسول المعلم الأول ﷺ، الحليم الرؤوف بطلبة العلم، فالأحرى بالمعلم الضائق صدره، المتكدر قلبه، المضطرب مزاجه من تعليم طلابه، أن يستعذ من الشيطان الرجيم، ويقبل على طلابه، قبول الوالد على أولاده من سفره، يعطيهم حقه من العلم والمعرفة، ويتقبل ثقل تصرفاتهم وأسئلتهم، ويشعرهم بأنه مثل الأب لهم في الحب والحنان والحلم والرفقة، فهذا يكون معلماً ناجحاً محبوباً بين طلابه، ومقبولاً بين زملائه، إن شاء الله.

هـ. الزُّهْدُ وَالْعِفَّةُ

لقد ازداد التكالِب على حطام الدنيا مؤخراً بين الناس عامة، وبين المعلمين خاصة، فإذا اجتمعوا في ليالي السهر والسمر تذكروا أخبار ارتفاع وانخفاض قيمة الدولار، فإذا انخفض تناوعوا أمرهم، وإذا ارتفع فرحوا وابتهجوا بدولارهم، وإذا عملوا واشتغلوا رضوا وفرحوا بزيادة راتب، ورفضوا وسخطوا إذا لم يزدوا، تبا هؤلاء وتعا لهم ولأحاديث سهرهم وسمهرهم، ففي هؤلاء، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ

¹ صحيح البخاري، رقم 63

اللَّهِ ﷻ: "تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينِ ارِ، وَالدَّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"¹.

ينبغي على المَعْلَم الناجح أن يتخلق بالزهد في الدنيا، ويتعد عن كل ما لا ينفع في الدار الآخرة، ولا يستخدم علمه في التوصل إلى الأغراض الدنيوية من مال وسمعة وجاه، ويتعفف عن سؤال الناس، فالزهد والعفة من مكارم أخلاق المَعْلَم الناجح التي يمجها الله سبحانه وتعالى، فيها يرضى المَعْلَم، ويسعد في الدنيا والآخرة، وبدونها يتعد عن الله وبغضبه. قال الحسن البصري²: "من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد على الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلّا بعداً، ولم يزد من الله إلّا بغضاً"³.

فمن يرد أن يستعفف ويقنع بما قسمه وكتبه الله عز وجل له يسرهما الله له، وأغناه بفضله عن سؤال الناس، وحرره من عبودية الدرهم، وجعله ملكاً في أعين الناس. فعن حكيم بن حزام⁴ رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "وَمَنْ يَسْتَعِفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ"⁵.

يقول الإمام الشافعي⁶ رحمه الله:

رَأَيْتُ الْفَتَاةَ رَأْسَ الْغِنَى
فَلَا ذَا بَرَانِي عَلَى بَابِهِ
فَصِيرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُتَمَسِكٌ
وَلَا ذَا بَرَانِي بِهِ مِنْهُمْكَ

¹ صحيح البخاري، رقم 6435

² الحسن البصري: تابعي عالم فقيه زاهد (ت 110هـ)

³ روضة العقلاء وفضة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص 28

⁴ هو ابن خُوَليد بن أُمْدٍ بن عبد الغزى بن قُصَيِّ بن كِلَاب، أبو خالد القُرشيّ الأُسديّ، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، وغزا حُنَيْنًا والطائف، كان من أشراف قريش، وعقلائها، ونبلائها، وكانت خديجة عمته، وكذا قبل عام الفيل ثلاث عشرة سنة ومات سنة 54 هـ عن عمر يناهز 120 سنة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج 3 ص 44)

⁵ صحيح البخاري، جزء من حديث رقم 1427

⁶ ديوان الإمام الشافعي، ص 64

أَمْرٌ عَلَى النَّاسِ شِبْهُ الْمَلِكِ

فَصِرْتُ غَنِيًّا بَلَا دِرْهَمٍ

ثالثاً: التحلي بالعلم كمّاً ونوعاً

ظهرت مؤخراً في بريطانيا ظاهرة تقويم الطُّلاب الجامعيين لمُعَلِّمِهِمْ، فمنهم من يعزّو¹ نجاح المُعَلِّم إلى الكم العلميّ والمعرفي لديه، ومنهم من يعزّوه إلى مدى قدرة المُعَلِّم في توصيل المعلومة للطلاب، وفعالية الأساليب التي يستخدمها في العملية التَّعْلِيمِيَّةِ، ومنهم يعزّوه إلى عمق وفعالية المعلومة التي يعطيها المُعَلِّم لطلابه.

أما بالنسبة إلى تقويم مُعَلِّمي طلبة المدارس في جميع مراحلها التَّعْلِيمِيَّةِ، وطلبة الكليات في جميع فروعها الأكاديميَّةِ والفنية والمهنيَّةِ، ليس الأمر واضحاً كما هو الحال في المرحلة الجامعيَّةِ، لكن غالباً ما نسمع، ولاسيّما في البلدان العربيَّةِ، أن فلان من مدرسي اللغة الإنجليزيَّةِ لا يعرف أو لا يقدر على التكلُّم باللغة الإنجليزيَّةِ أمام الطُّلاب أو كتابة رسالة بدون أخطاء عرجة! وغالباً ما نسمع أن فلاناً من مدرسي اللغة العربيَّةِ لا يعرف كيف يعرب جملة بسيطة أو يستطيع أن يتكلّم باللغة العربيَّةِ الفصحى لمدة ساعة تَّعْلِيمِيَّةِ أمام طلابه بدون أن يخلطها بكلام العامية! وكثيراً ما نسمع أن فلاناً من مدرسي الرياضيات لا يعرف جداول الضرب فوق الرقم "10"!

هذا وضع مخزٍ ومخزّن، لأنّه إذا دل على شيء، دل على ثغرات كبيرة، وفساد منتشر في أنظمة التَّعْلِيمِ لدينا في البلدان العربيَّةِ، التي تسمح بتخريج طلاب بدرجات جامعية بدون جدارة وأهليَّةِ، وتُعيّنهم في قطاع التَّعْلِيمِ بدون النُّظَرِ في أهليّتهم للتعليم أو للمرحلة التي يمكنهم أن يعلِّموا فيها، فيحصل إحباط واكتئاب لدى المُعَلِّم من جهة والطُّلاب من جهة أخرى، فينتج عن ذلك جيل جاهل مثل مُعَلِّمِهِم الجاهلين.

إن من أهمّ صفات المُعَلِّم الناجح، العلم كمّاً ونوعاً، فالمُعَلِّم العالم بمادة تخصّصه شكلاً ومضموناً، المتمكّن من فروعها، القادر على فهم مضامينها، الواثق من قدرته على

¹ عزّاهُ إلى أبيه، نسبته إليه، من باب عدا ورمى. (مختار الصحاح)

شرحها وطرحها على طلابه، هو المُعَلِّم حقاً، أما المُعَلِّم الضحل في علمه، الضعيف في قدرته على شرح مادته وطرحها بثقة وفعالية أمام طلابه، هو الجاهل حقاً، وهل يستوي العلم بالجاهل، صدق الله العظيم عندما قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9].

رابعاً: التحلي بالأمانة العلمية

إن الانتشار الواسع للمعلومة على مواقع الإنترنت وسهولة تحصيلها من جهة، وفشو القلم الظاهر من خلال كثرة دور طبع ونشر الكتب المفيدة وغير المفيدة من جهة أخرى، أدى إلى ظهور آفات علمية وتعليمية كثيرة، منها الخيانات العلمية، والسرقات العلمية، وفقدان الأمانات العلمية، فحصل فساد علمي وظلم إداري على مستوى العلم والعلماء.

لم تسج طائفة المُعَلِّمين من هذه الآفات العلمية أو التعليمية، فمنهم من يصور كتيباً في النجاح في مادة ما، ويضع اسمه على غلاف الكتيب مدّعياً أنه هو صاحب هذا العلم في الكتيب من أجل دراهم معدودات، ومنهم من لا يتحرج من استخدام وسيلة 'القص واللصق' في تحصيله للمعلومة بدون ذكر أي إيعاز لكاتبها الأصلي، ومنهم من لا يستحي من وصف ما لا يرى، وقول الزور العلمي إذا تطلب الأمر.

فالأمانة من أهم أخلاقيات المُعَلِّم الناجح، وهي شرط من شروط الإيمان، وخصلة تميز المؤمنين عن غيرهم، يقول الله تعالى في وصفه للمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ نَافَعَةٍ وَعَدَّهِمْ مِرَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8]، وعلى خلاف الأمانة، الكذب والخيانة صفتان من أخس صفات المُعَلِّم المنافق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ"¹.

¹ صحيح البخاري، رقم 2682

اتقِ اللَّهَ، أيها المُعَلِّمُ، وصن علمك بالأمانة، وبالابتعاد عن السرقة العلمية، ومعجانية الحيانة العلمية لأحد، فإنك مسؤول أمام الله جلّ جلاله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَالَ: "تناصحوا في العلم، فإن حياة أحدكم في علمه أشد من حياته في ماله، وإن الله مُسَائِلُكُمْ"¹.

خامساً: القدرة على نشر العلم النافع

إن الأصل في العلم أن يُبْلَغَ ويُنَشَرَ، فإذا حُفِظَ وَكُنِمَ فقد ماهيته وأصبح كالكثر المدفون لا قيمة له، فمثل المُعَلِّم الذي يكتُم علمه ولا ينشره، كمثل الكثر المدفون ينتظر من يُخرجه لِيُسْتَفَادَ منه، فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قَالَ: "مثل الذي يتعلم العلم ولا يُحَدِّثُ به كمثل الذي يكثر الكثر ولا يُنفق منه"². وروي أنه كان الإمام مالك بن أنس رحمه الله إذا ودّع أصحابه وطلابه يقول لهم: "اتقوا الله، وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه"³.

فإن قدر وقيمة المُعَلِّم العاقل الناجح ليسا فقط بما يحمله من علم نافع، وفكر سليم، ومعرفة صائبة، بل بقدرته على إخراج علمه إلى حيز الواقع بحلة جميلة، وتوصيله للمُتَعَلِّمين بأسلوب ممتع فعّال، ونشره إلى القريب منه والبعيد عنه. فعن أبي حازم، قَالَ أَخْبَرَنِي سَهْلٌ، رضي الله عنه، يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لِعَلِي رضي الله عنه: "انْفِذْ عَلَيَّ رِسَالَتَكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"⁴. هذا

¹ ضعيف الترغيب والترهيب للكنباني، ج1/رقم98

² جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص122 قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: 5835 في صحيح الجامع.

³ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص123

⁴ صحيح البخاري، جزء من حديث رقم3009

ثواب من يكون سبباً في تعليم وهداية رجل واحد، فكيف بثواب المُعلِّم الذي قد يهدي الله على يديه أفراداً وجماعات من المُتعلِّمين!

فمن الواجب على المُعلِّم العاقل أن يعمل جاداً في نشر علمه بالحكمة والموعظة الحسنة، مبتدئاً بأولاده، ثم بأقربائه، ثم بحيرانه، ثم بأصحابه، ثم بتلاميذه وغيرهم من طلبة العلم. فعندما ينشغل المُعلِّم بنشر العلم النافع بين هؤلاء الناس، يوحى الله سبحانه وتعالى إلى مخلوقاته أن استغفروا لمُعلِّمي الناس الخير، وذلك حتى يفوز برضى الله سبحانه وتعالى ويدخل الجنة، إن شاء الله، فعن أبي أمامة الباهلي قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَتَّى الثَّمَلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتُ، لَيَكْثُرُونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ"¹.

وأجر مُعلِّمي الناس الخير ليس مقصوراً على حياتهم وحسب بل يمتدُّ إلى ما بعد موتهم فقد قال رسول الله ﷺ: "إِنْ مَثَا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنُ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ"².

سادساً: القدرة على إدارة الفصل وضبط الطلاب

كثير ما نسمع أن فلاناً من المُعلِّمين ضعيف الشخصية، وفلاناً فاشل في إدارته للفصل، وفلاناً غير قادر على ضبط تلاميذه. هذا الوضع الحزن للمُعلِّم يشكل عائقاً منيعاً أمام سير العملية التعليمية، فهو لا يستطيع أن يلقي الدرس على طلابه بفاعلية من جهة، وطلابهم لا يجدون الفرصة أو الجو المناسب لكسب المعلومة من جهة أخرى، لذلك عُدَّت قدرة المُعلِّم على إدارة الفصل وضبط الطلاب خلال إعطاء الدرس من أهم معايير تقويم المُعلِّم الناجح في عمله.

¹ رواه الترمذي، رقم 2685

² أخرجه ابن ملجة وغيره، صحيح الترغيب والترهيب 74

فالقُدرة على إدارة الفصل بشكلٍ فعّال، وضبط الطُّلاب بشكلٍ إيجابي، تتولد نتيجة عوامل نفسية وعلمية وفكرية وإدارية، فيقدر ما يتمتع المُعلِّم بنفسية مؤمنة راضية، وثقّة شخصيّة مطمئنة، ومعرفة فاضلة في مادته التَّعليميّة، وحنكة إداريّة في إشغال الطُّلاب بما ينفعهم، يكون مُعلِّماً قادراً على إدارة الفصل بفعّالية وضبط الطُّلاب بنجاح.

السَّاجِب على المُعلِّم العاقل أن يعلم أن القدرة على إدارة الفصل وضبط الطُّلاب توفيق وتيسر من الله سبحانه وتعالى، أوله وآخره، فإذا حفظ جنب الله عزّ وجلّ، قولاً وعملاً، قبل وبعد إعطاء الدرس لطلابه، يكون قد حقق أهمّ عناصر التمكن من عمليّة التعلّم والتعلّم. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 2-3].

إن لكل مُعلِّم أسلُوبه وطريقته في إدارة الفصل وضبط الطُّلاب، ولا حرج في ذلك، شريطة أن يحقق الغرض والهدف من الدرس، وهو التعلّم الواضح، السهل، الماتع، المفيد، والتعلّم النافع والعميق الفعّال، لكن أذكر بعض الإجراءات التي يمكن أن يستخدمها المُعلِّم في إدارة الفصل وضبط الطُّلاب وبالأخص عند لقائه الأول بطلابه:

- أ) أن يبدأ يومه بصلاة ركعتين، ويسأل الله من خير يومه، ويستعيد من شره.
- ب) أن يدعو عند خروجه من بيته، بدعاء الرُّسول المصطفى ﷺ، فعن أمّ سَلَمَةَ، قَالَتْ مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أَضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أَظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ"¹.

¹ صحيح وضعيف من أبي داود (11/ 94): تحقيق الألباني: صحيح. راجع لتصحيحه، ابن ماجه بتحقيقه وتخريجه لكنه استثنى من التصحيح (رفع الطرف فقط).

(ث) قبل أن يدخل الفصل ليقابل طلابه، يقول بلسان ناطق، وقلب صادق: ﴿وَقُلْ رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الاسراء: 80]. ويقول أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ اَشْرَحْ لِيْ صَدْرِيْ * وَيَسِّرْ لِيْ اَمْرِيْ * وَاخْلُ عُنْدَكَ مِنْ لَّدُنِّيْ * يَبْقَءُ قَوْلِيْ﴾ [طه: 25-28].

(ث) أن يدخل على طلابه مُدَوِّع ولا يسلم عليهم حتى ينتهي إليهم، ويقوم في موضع مجلسه، فينتظر حتى يستقر كل طالب في مقعده، فذلك أسلم وأهدأ وأنسب لبدء الدرس، فقد روي عن سفيان، عن شقيق انه قال: "أتيت منزل أنس بن مالك، قال: فجلسنا في بيت ننتظره. قال: فلما دخل البيت لم يسلم حتى دخل، فقام في موضع مجلسه، قال: فاستقبلنا فقال: السَّلام عليكم¹. والجدير بالذكر أن يُمنع الطُّلَّاب إن كانوا جالسين من القيام للمُعَلِّم، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَا فَقَمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ " لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعْظِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا"².

(ج) أن يُعرِّف الطُّلَّاب بنفسه، ويعترف عليهم بالمقابل، وأن يشرح لهم أسئلتهم ونمطه في التدريس، وأن يبين لهم حقوقه وواجباته عليهم، وحقوقهم وواجباتهم عليه راجياً من الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم أجمعين.

(ح) أثناء إعطاء الدرس، يتجنب كثرة الضحك والمزاح مع الطُّلَّاب، فانه يذهب البهاء، ويقلل الهيبة والوقار، ويقضي على حاجز الحشمة. روي عن محمد بن المنكدر³ انه قال: قالت لي أمي وأنا غلام: " لا تمازح الغلمان، فتَهْوَنَ عليهم،

¹ الجامع لأخلاق الراوي، آداب السامع، للخطيب البغدادي، ج 1/ص 399

² سنن أبي داود، رقم 5230

³ أبو بكر محمد بن المنكدر القرشي التيمي، تابعي قارئ زاهد (ت 130 هـ)

أو يجترثوا عليك"¹. وروي عن الأحنف بن قيس² أنه قال: "قال لي عمر بن الخطاب: يا أحنف، من كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، ومن أَكْثَرَ من شيءٍ عُرِفَ به، ومن مَزَحَ أُسْتُخِفَ به"³.

خ) أن يُظهر الاحترام والتوقير للأفاضل والمجتهدين في الدرس، ويدلي بالثناء والمدح على المُميزين علمياً بينهم، ويُقبل على طلابه بوجه طلقٍ عليه علامات الحجة والحنان، لأن ذلك يُعزِّز احترام وتوقير الطالب لمُعَلِّمه، ويساعده في عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّم. روي أن أبا العالية الرياحي⁴ قال: "كان ابن عباس يرفعني على سريره وقريش أسفل منه، ويقول: 'هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس الملوك على الأسيرة'⁵،⁶.

سابعاً: استمرارية التَّعَلُّم وكَسْب العلم والمعرفة

من الفروقات المميِّزة بين ثقافة المُعَلِّم العَرَبِيّ وثقافة المُعَلِّم العَرَبِيّ استمرارية التَّعَلُّم. فعلى عِلاف المُعَلِّمين الإنجليزيين — على سبيل المثال — نسبة كبيرة من المُعَلِّمين العرب، وللأسف، تعتقد أن عَمَلِيَّة كَسْب العلم والمعرفة تنتهي بإنتهاء الدِّراسة الجامعية وبالحصول على الإجازة الجامعية، سواء كانت درجة باكالوريوس، أو ماجستير أو دكتوراه. هذه الثقافة المغلوطة أدت بالمُعَلِّم العربي إلى تأخره في علوم 'التَّعْلِيم والتَّعَلُّم'، ولاسيَّما في مادة تخصصه، وأصيب بمرض 'قناعة الكسلان'، فوقع في بئر عميق أسفل الجهل، وأوسطه الغباء والحمق، وأعلاه الخسران، والله أعلم.

¹ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام أبي حاتم البستي، ص 69

² أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية المري التميمي، سيد بني تميم (ت 72 هـ)

³ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ج 1/ص 404

⁴ أبو العالية الرياحي تابعي (ت 93 هـ)

⁵ لسان العرب (4/ 356) السَّرِيرُ المَضْطَجُّ والجمع أَسِيرَةٌ وسَرَرٌ

⁶ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن ماجه الكنايني، ص 42

فديننا الحنيف، ورسولنا المصطفى ﷺ، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ومن جاء من بعدهم من التابعين والسلف الصالح، أكدوا على استمرارية التعلم، وحثوا على الزيادة في طلب العلم، وأثروا على طالب العلم، سواء كان معلماً أو متعلماً. قال الله تعالى آمراً رسولنا الكريم ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:114]. وعن كثير بن قيس، قال: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَّاتُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيَارًا وَلَا دَرَاهِمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافٍ" ².

وجاء في الأثر عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: "لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم" ³. وروى أن المسيح عليه السلام: "قيل له إلى متى يحسن التعلم قال: ما حسنت الحياة" ⁴. وروى أيضاً أنه "سئل سفيان بن عيينة ⁵ من أخرج الناس إلى طلب العلم قال: أعلمهم لأن الخطأ منه أقيح" ⁶.

¹ يجوز كتابتها بالألف، على أن المصدر ممدود "رضاء" والعرب تجيز للقصر، بمعنى خذف الهمزة. كما تكتب بالألف المقصورة، لأن أصلها الياء. ولقد وجنتها في كتب الحديث مكتوبة بالألف، كما وجنتها بالياء. وكلاهما صحيح ولاضير على أن يفهم التعليل عند كل.

² سنن أبي داود، رقم 3641 تحقيق الألباني: صحيح، وانظر لهذا: ابن ماجه (223)

³ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص95

⁴ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص96

⁵ أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي (ت198 هـ)

⁶ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص96

لذا ينبغي على المُعَلِّم العاقل الناجح في عمله، والمهتم بالفائدة له ولطلابه أن يجتهد في فعل الأمور التالية:

- (أ) يُطَلِّع باستمرار على ما يُستجد في مجالات التَّعْلِيم والتَّعَلُّم بِشَكْلِ عام.
- (ب) يُطَلِّع ويُقرأ بانتظام مقالات وأبحاث وكتب في مجال مادته التخصصية.
- (ت) يحاول أن يكتب وينشر في مجال مادته التخصصية إن وُجد أن بحثه جديد جيد يستحق النشر.
- (ث) يناقش مع زملائه المدرسين المشاكل التَّعْلِيمِيَّة والتَّعْلِيمِيَّة الَّتِي قد يواجهها في عمله.
- (ج) يفكر ويحلل ويعيد التَّنَظَّر في أدائه المهني، محاولاً تحسينه وتطويره وتجنب أي شيء قد يؤثر عليه بصفته مُعَلِّماً وعلى طلابه بصفته مُتَعَلِّمين.
- (ح) يحضر مؤتمرات وورشات عمل لتطوير المُعَلِّمين في مجالات التَّعْلِيم والتَّعَلُّم والتقويم.
- (خ) يستمر في تطوير مؤهلاته العلمية وخبراته العملية ومهارات الإتصال لديه، بما فيها كيفية استخدام مواقع الإنترنت استخداماً نافعاً وعميقاً وفعالاً، باتباع دورات معتمدة، مثل الحصول على دبلوم تربية وتعليم أو درجة جامعية عليا.
- (د) ينضم إلى جمعيات مهنية تهتم بقضايا التربية والتَّعْلِيم والتَّعَلُّم.

ثامناً: حسن المظهر وأناقة اللبس

من الآثار السلبية للحرية الزائفة وغير المضبوطة في بلاد الغرب عامة وفي بريطانيا خاصة هو أن للمُعَلِّم حرية الدخول على طلابه في الفصل الدَّرَاسِي بالمظهر الذي يراه هواه ومزاجه، فمن المُعَلِّمين — سواء كانوا مُعَلِّمين في المرحلة الابتدائية أو في المرحلة الجامعية — يأتي إلى قاعة الدرس وكأنه لتوه خرج من الحانة، شعره منكوش، قميصه بدون ربطة عنق، نصفه فوق البنطال والنصف الآخر معلق داخل البنطال، وإن كان يرتدي ربطة

عنى فهي قديمة رثة ملفوفة وكأها جبل مشنقة، إذا اقتربت منه، شممت رائحة خمر معتقة في فمه منذ الليلة الماضية، فإن تكلم، تقول يا ليته لم يتكلم، فكلامه كلام أحمق، وإن تحرك، تقول ياليتيه لم يقم عن كرسيه، فحركاته حركات سكران!

ففي صباح يوم الإثنين من أيام شهر أيلول الممطرة من سنة ألفين وثمانية ميلادية استيقظ الطفل مصطفى وهو في الخامسة من عمره متحمساً ومتشوقاً للذهاب إلى المدرسة ولقابلة أول مُعَلِّمة له، قَبْلَه والده ودعا الله أن يجعله من الصالحين وأن يعطيه بسطة في العلم، ثم انطلق مصطفى مع أمه إلى المدرسة في يومه الأول من العام الدَّرَاسِي لكي يبدأ مرحلته الابتدائية في كسب العلم والمعرفة، هناك على باب الفصل الدَّرَاسِي بعد أن تركه أمه مطمئنة عليه، وقف مصطفى حائراً خائفاً يبحث عن مُعَلِّمته، فإذا بإمرأة شمطاء، شعرها أسود منكوش وقد دب الشيب في معظمه، بليدة الحركة في جسدها، جامدة التعابير في وجهها، تمف رائحة كريهة منها، تأتي لتدله على مقعده في الفصل، هنا بدأ الطفل مصطفى يبكي ويصيح "أريد أمي، أريد أمي، أريد أمي"، حتى اضطرت إدارة المدرسة أن تسدعي أم مصطفى من منزلها، فجاءت أم مصطفى مسرعة مرتبكة لتجد ولدها في حالة يرثى لها، استفسرت منه عن سبب امتناعه عن الدخول إلى الفصل، فقال لها وهو يبكي: "ماما انما ساحرة شريرة، انما تخيفني، لا أريدها أن تكون مُعَلِّمتي، أريد غيرها." هذا فصل من فصول قصة ولدي مصطفى مع مُعَلِّمته الساحرة، أعاذنا الله وإياكم منهم ومن أمثالهم.

إن الإسلام دين جميل أكّد على أهميّة حسن المظهر، وأناقة الملبس، فجاء رسول الله ﷺ قدوة لنا في جمال مظهره وأناقة ملبسه، روي عن أبي إسحاق انه قال: سمعت البراء يقول: "ما رأيت أحداً أحسن في حلّة حمراء من النبي ﷺ".¹ وفي هبة ووقار مجلس الإمام

¹ صحيح البخاري، رقم 5901

المُعَلِّمُ مالك بن أنس يقول قتيبة: "كنا إذا أتينا مالكا خرج إلينا مزيناً كحلاً مطيباً، قد لبس من أحسن ثيابه. فتصنَّع ودعا بالمرأوح فأعطى كل إنسان مروحة".¹

فأحرى بالمُعَلِّمِ الناجح أن يتحلى بحسن السمات وجمال المظهر وأناقة اللبس لأنها من أهم الخصال التي تساعد في كسب المحبة والقبول لدى الطُّلاب من جهة، وتساعد الطُّلاب على كسب العلم وحب المُعَلِّم واحترامه وتقديره من جهة أخرى.

تاسعاً: إقبال المُعَلِّم وبشاشة هيئته

هناك من المُعَلِّمين من يدخل على طلابه عاقداً حاجيه، محمر الخدين والعينين، حاملاً الشر في عينيه، كأنه سيشن حرباً ضروساً على طلابه، وهناك من المُعَلِّمين من يدخل على طلابه دخول السلفاة في الماء، مثاقلاً في خطواته، متردداً في إقباله، مرتبكاً في حركاته، أحمق في التفاتاته، أضحوكة في إقباله، وهناك من المُعَلِّمين من يدخل على طلابه بروح مشرقة، وبصدر رحب، وبقلب رقيق، في حركاته حيوية، وفي إقباله تفاؤل، وفي وجهه بشاشة، وفي نظراته الرفق والحنان، وفي هيئته السكينة والوقار، راجياً العلم والإيمان لطلابه.

والصنف الأخير من المُعَلِّمين هو المأمول من كل مُعَلِّم عاقل راشد أراد النجاح في عمله وتعامله مع طلابه ومع زملائه المدرسين، لأن الشرع حث على الرفق وحسب به وذم العنف القولي والفعلي، وأكد على أهمية سمات وحال من يؤخذ عنه العلم، روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله رفيق: يُحبُّ الرفق، ويعطي عليه مالا يعطي على العنف".² ورؤي عن إبراهيم النخعي أنه قال: "كانوا

¹ الموطأ للإمام مالك بن أنس، ص9

² سنن أبي داود رقم 4807 تحقيق الألباني: صحيح

إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه (العلم)، نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه".¹

وللفائدة، أقدّم للقارئ قائمة مختصرة لصفات المُعلِّم النَّاجح في عمله وتعامله مع الآخرين، سبق وذكرتها في كتابي "مهارات الإتصال"². فالمُعلِّم المتميّز في شخصيته وتفكيره ومعتقداته وأساليبه التعليمية والتربوية، يجب عليه أن يتحلّى -وذلك حسب الموقف التعليمي- بالصفات التالية:

1. أن يكون حيويّاً، متفائلاً، بشوشاً.
2. أن يكون جاداً ومخلصاً في عمله.
3. أن يكون واثقاً من معلوماته ومعرفته من المادّة العلميّة.
4. أن يكون مبدعاً في أفكاره وطرقه.
5. أن يكون مرناً في سلوكه، واضحاً في شرحه، وحيويّاً في حركاته.
6. أن يكون مبادراً في اقتراحاته، ومجدّداً في آرائه.
7. أن يكون متحمّساً لعمله، ودقيقاً في إعطائه للمعلومة.
8. أن يكون أنيق الملبس وحسن المظهر.
9. أن يكون منظماً في سلوكه داخل الفصل وخارجه.
10. أن يكون قاضياً عادلاً في حكمه على مساهمة وجهود الطّلاب، أي مقوِّماً جيّداً لأعمالهم.
11. أن يكون دليلاً للطّالب في كَيْفِيّة اكتساب المعرفة والمهارات.
12. أن يكون مصدرّاً للمعرفة وطرق اكتسابها.
13. أن يكون منظماً وضابطاً لنشاطات الفصل.

¹ الآداب الشرعيّة لابن مفلح المقدسي، ص 43

² مهارات الإتصال وأثرها في حياتنا العلميّة والعملية، د. أحمد حليمة

14. أن يكون طبيباً يُشخص احتياجات ورغبات ومشاكل التَّعَلُّمِ وأساليب اكتساب المعلومة عند الطُّلاب. فهو يقومُ تقدِّمُ الطُّلابِ إفرادياً أو جماعياً، ويساعدهم على إيجاد إستراتيجياتٍ إيجابيةٍ للتَّعَلُّمِ.
15. أن يكون مخطّطاً يضع خططاً لحل مشاكل تعلُّم الطُّلاب، ويختار نشاطات وموادَّ تعليميةٍ تساعد على تحقيق التَّعَلُّمِ العميق عند الطُّلاب.
16. أن يكون مديراً يُعزِّز مشاعر التعاون والعمل الجماعي والثقة والمحبة بين الطُّلاب، وذلك بتنوع نماذج التفاعل بين الطُّلاب داخل الصفِّ وفقاً لأهداف محدَّدة مناسبة لطبيعة ومشاعر الطُّلاب.
17. أن يكون مؤمناً بمبادئ التَّعليم والتَّعلُّم العميقين، ورافضاً لمبادئ التَّعليم والتَّعلُّم السطحيين.
18. أن يكون على اطلاع بما يستجدُّ في مجال تعليم وتعلُّم مادَّته العلمية.
19. أن يكون مهتماً بتطوير نفسه عندما تُتاح له الفرص.
20. أن يكون ذا صدرٍ رحبٍ في تقبُّله للنقد البناء وأن يعمل على تحسين وتطوير قدراته ومهاراته.
21. ولربما استكثر المُعلِّم العربيُّ هذه الصفات ووجد في اتصاف المُعلِّم بها جميعاً الكثير من الخيال، والبعد عن الواقعية. ومن ثمَّ ربما أسقطها جميعاً لهذا الإحساس! ولكني أسرع لأقول: إن الرجل الجدي والمخلص، يرى فيها دليلاً عملياً لاستكمال النقص عنده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نحن نرى أن الفضائل وحدة متكاملة، وكل فضيلة هي أخت لفضيلة أخرى، تتكامل معها في ميدانها. ولذا نحن نرشح هذه الصفات الفاضلة للزيادة كلما تبين لنا ما يحتاجه المُعلِّم، وذلك طالما رسمنا له دوراً ريادياً في المجتمع، وطالما رضي لنفسه هذا الدور، بل اعتر به. وعندها سوف يعترف المجتمع به، ويفخر بدوره

القيادي والريادي. ولعل في نقلنا عن ابنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيِّ ما يُعزِّز هذه الصفات، في تراثنا العظيم، ويلتقي مع أحدث الدراسات القرّية في رسم دور المُعلِّم. وكلُّ من منظوره.

فماذا قال ابنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيِّ، في "تذكرته"¹: "ينبغي أن يكون المدرّس بما، ذا رياسة وفضل، وديانة وعقل، ومهابة وجلالة، وناموس وعدالة، ومحبّة في الفضلاء، وعطف على الضّعفاء، يقربّ المحصلين ويرغب المشتغلين، ويبعد اللّغائين²، وينصف البهّائين، حريصاً على النّفع، مواظباً على الإفادة"².

فمن أهم شيم المعلم الناجح الإخلاص في العمل، والعلم النافع، والحكمة الصائبة، والعدل في الأمور، والقوة الحازمة، والحلم والوقار، والتواضع في علمه وعمله، والتعفف من المسألة، والإحسان في عمله، والسّمّت الحسن، والمظهر الأنيق الجميل.

دور المُعلِّم في العملية التَّعليمية

إن مصطلح 'الدّور' متعدّد الاستخدامات والدّلالات، فأحياناً يُطلق على الجزء الذي يقوم بأدائه ممثّل ما في فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني، وأحياناً يُستخدم للدّلالة على الوظيفة أو المهمّة الّتي تُؤكّل لشخص ما أثناء عمله أو ما يُتوقع منه القيام به خلال عمله.

هذا المعنى كل منا له دور يلعبه في المجتمع الذي يعيش فيه، لكن هذه الأدوار تختلف في طبيعتها وطرق أدائها، فهناك أدوارٌ صعب تجنّبها كدور 'الأب'، وهناك أدوار نقوم بها بحكم الظّروف الّتي تحيط بنا، كدور 'الطّالب في المدرسة'، وهناك أدوار نحن نختارها

¹ لسان العرب (15/ 250): قال الشافعي اللّغو في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه وجماع اللّغو هو الخطأ إذا كان اللّجاج والغضب والعجلة، وقال رؤية بن العجاج: وربّ أسرابٍ حبيبٍ كُظُم عن اللّغا ورقت النّكلم.

² تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمُعلّم لابن جماعة الكناني ص 177

لأنفسنا، فمنا من يختار أن يلعب دور 'طبيب في مستشفى' أو دور 'مهندس في شركة' أو دور 'مدرس في مدرسة'، مهما كان الدور الذي نأخذه، يتوقع الآخرون منا أداءً وتصرفاً يتناسباً مع طبيعة وأداء هذا الدور.

وكثير من المُعلِّمين في البلاد العربيَّة، لاسيما حديثي العهد منهم في مهنة التَّعليم، لا يعلمون خصائص وطبيعة الأدوار التي يلعبونها في العملية التَّعليميَّة، ولا يدركون أهميَّة توقعات المجتمع منهم كمُعلِّمين، ولا يبالون بآمال وتوقعات الطُّلاب منهم، لذلك تحصل مشاكل تَّعليميَّة وتعليميَّة بين المُعلِّم والمُتعلِّم، تؤدي بدورها إلى فشل العملية التَّعليميَّة على مستوى المُعلِّم والطالب والمؤسسة التَّعليميَّة.

إنَّ هذا الأمر ملتبسٌ على كثيرٍ من النَّاس لاسيما أولياء الأمور، فبسبب هذه الصُّورة الغامضة عن المُعلِّم ودوره في العملية التَّعليميَّة يتولد سوء تفاهم بين أولياء الأمور والمُعلِّم من جهة، والطُّلاب من جهة، والإداريين والمُعلِّمين من جهة أخرى، وبحصل هذا كثيراً في قطاع المدارس الخاصَّة لاهتمام أصحابها بتحقيق أرباحٍ ماديَّة ومكاسبٍ تجاريَّة على حساب جَوْدَةِ وجديَّة العملية التَّعليميَّة.

إن معرفة المُعلِّم لخصائص دوره وما يتوقعه الطالب والمجتمع منه بصفته مُعلِّماً للخير هي من أهمِّ عوامل نجاح العملية التَّعليميَّة، ومن أهمِّ الأسس التي تساعد لبناء جيل من المُتعلِّمين والعارفين لأهميَّة العلم والتَّعلُّم في بناء مجتمع مسلم مستقيم. من أهمِّ الأدوار التي يقوم بها المُعلِّم والتي تساهم في نجاح العملية التَّعليميَّة، وفي بناء شخصيَّة متزنة ومستقيمة ومتقفة ثقافة نافعة لدى طالب العلم، أذكر ما يلي:

أولاً: الدور التَّعليمي

لقد أقرَّ الشرع مبدأ التَّعلُّم ونشر العلم، واعتبره من أهمِّ دعائم وأسس الدِّين، فقد ثبت في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله المصطفى ﷺ لكي يعلم النَّاس

دينهم ويشرح لهم شريعة الله التي ارتضاها لهم، فكان معلماً بحقاً. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَلِكُلِّ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:2].

فالمُعَلِّم الصالح الناجح يلعب دوراً تعليمياً مهماً في العملية التعليمية، خاصة إذا كان مؤهلاً حقاً في مادة تخصصه، واسع العلم والفكر، وكثير التجربة والخبرة في التدريس والتعامل مع الطلاب. فإذا كان على ذلك من الصفات، يأخذ طلابه منه العلم والمعرفة بعمق وفعالية.

كما ينبغي على المُعَلِّم الصالح العاقل أن يستخدم كل ما أعطاه الله سبحانه وتعالى من علم وخبرة ومهارة في سبيل توصيل المعلومة الصحيحة النافعة بعمق وفعالية إلى طلابه حتى يحصل التعلُّم لديهم. وسأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل بعض طرق التعليم التي يمكنه أن يستخدمها في العملية التعليمية بشكل عام.

ونجد أحياناً أن المُعَلِّم العارف العالم يقوم مقام المنهج أو الكتاب، لاسيما إذا كان هناك ضعف في المنهج الدراسي، فأحياناً يزود الطلاب 'بمذكرة' قد أعدها لهم، وأحياناً يستخدم كتاب المنهج، لكن يختار منه المعلومة الصحيحة النافعة، ويبعد المعلومة المغلوطة، أو المعلومة غير النافعة أو الضارة منها، وما أكثرها في مناهجنا وكتبنا، سواء كانت معلومات دينية، أو علمية، أو أدبية، أو تاريخية، أو غيرها من المعلومات التي تحتويها كتب المناهج الدراسية لدينا.

ثانياً: الدور الإداري

كثير ما نسمع أحياناً أن المُعَلِّم فلان متمكن من مادته، وعالم بمحتوياتها، لكنه لا يعرف كيف يتعامل معها، ولا يعلم كيف يدير حصّة الدرس، ولا يستطيع ضبط الطلاب، فيكون مثله مثل الرجل الذي يقرر قرقرة الدجاج، فيختلط الأمر عليه وعلى طلابه،

فيخطئ بحق نفسه وبحق طلابه، فتعم الفوضى، ويضيع الجهد، وتلاشى فرصة تعلم الطلاب، فلا هو علم بحق، ولا هم تعلموا بحق.

ليس من المبالغة أن نقول أن دور المُعَلِّم الإداري في العملية التعليمية هو أكثر أهمية من دوره التعليمي، فلا يمكن أن يحصل تعليم فعال أو تعلم عميق فعال لدى الطلاب في بيئة تعمها فوضى الصياح أو الضحك أو الاستهزاء، لذا تلعب قدرة المُعَلِّم الإدارية دوراً مهماً للغاية في نجاح العملية التعليمية.

فينبغي على المُعَلِّم العاقل الناجح أن يحضّر الدرس، ويضع خطة تنفيذية للدرس، وينظم قاعة الدرس، ويرتب جلوس طلابه بأسلوب يساعد على ضبطهم حتى تتم العملية التعليمية بنجاح ويحصل التعلّم لدى الطلاب بعمق وفعالية.

هناك أساليب كثيرة واستراتيجيات متعدّدة تساعد المُعَلِّم في أداء دوره الإداري في العملية التعليمية سبق وقد ذكرت بعضها تحت عنوان "القدرة على إدارة الفصل وضبط الطلاب"، لكنني أريد أن أضيف عليها الأمرين التاليين لأهميتهما البالغين في إدارة الدرس وضبط الطلاب:

أ) أن يستعين بطالب عريف فطن كيس، يقوم بترتيب زملائه الطلاب كلاً في مكانه، ويأمر بالسماع للمدرس والإنصات له.

ب) أن يزرع من يسيء الأدب ومن يصدر عنه تصرفات تعيق سير الدرس من صياح، أو ضحك، أو استهزاء أو نوم، أو غيرها من التصرفات المذمومة في الدرس.

ثالثاً: الدور التربوي

إضافة لدور المُعَلِّم التعليمي والإداري في العملية التعليمية، فهو يلعب أيضاً دوراً تربوياً في تعليمه للطلاب. ومهما كان نوعية المادة العلمية التي يدرسها، فهو لا يقوم فقط بتوصيل المعلومة أو المهارة إلى الطلاب بشكل فعال، بل يقوم أيضاً - بقصد أو بدون

قصد على بث أفكار ومفاهيم وقيم ومعتقدات يتعلَّمها الطُّلاب شاعوا أم أبوا، وذلك يعود إلى طبيعة دور المُعَلَّم، الذي يعدُّه كثير من الطُّلاب، ولاسيَّما طلاب المرحلتين الابتدائية والإعدادية، انه مصدر موثوق غير قابل للشك أو القدح في مصداقية المعلومة أو صاحبها.

لذا ينبغي على المُعَلَّم العاقل أن يدرك أهمية دروه التربوي، ويستغل تعليمه للتربية النافعة والتوجيه السديد، ويعمل جاهداً على نشر الفكر السليم، وتعزيز القيم السامية والأخلاق الكريمة، وزجر المفاهيم والاعتقادات الفاسدة، وغير شاهد على ذلك مُعَلَّم البشرية الأول، محمد رسول الله ﷺ، حيث كان ﷺ ينتهز الفرص ليصحح المفاهيم ويذكر الخرافات والاعتقادات الجاهلية، والشاهد على ذلك عند اتفاق كسف الشمس مع وفاة ابنه إبراهيم، قال الناس إن الشمس كُسفت لوفاة ابن رسول الله ﷺ، عندها وكما روي عن أبي مسعود، انه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا" 1.

هكذا تُستغل الفرص في التربية والتعلُّيم، وتُصحح المفاهيم والقيم، وتُزجر الخرافات والعبادات الجاهلية، وهكذا تتم تربية النفوس على التوجُّه، وتنمية الشعور بالمسؤولية والجدية.

رابعاً: الدَّور التَّفْسي

إن الدَّور التَّفْسي الذي يلعبه المُعَلَّم في عمليَّة تعليم وتعلُّم الطُّلاب لا تقل أهمية عن غيرها، بل تُعتبر أهمُّها، فإذا كان المُعَلَّم من النوع العبوس القنوط، البخيل في هسه وبشه، الشديد في نقده وحكمه، يؤدي ذلك إلى حصول ردة فعل سلبية لدى الطُّلاب، ولاسيَّما الملتحقين الجدد منهم، فلا قبول لديهم للمُعَلَّم، ولا رغبة في الدِّراسة، وهنا لا يمكن لنا أن ننتظر نتائج إيجابية من العملية التعلُّيمية برمتها.

¹ صحيح البخاري، رقم 1057

أما عندما يظهر المُعَلِّمُ البشر والابتهاج للمُتَعَلِّم، ويعطيه شيئاً من الرفق والحنان، ويوفر له الطمأنينة وراحة البال، يحصل عند الطالب الشعور بقبول المُعَلِّم، فيعمل على إرضائه ونيل إعجابه من خلال دراسة الجادة، وعمله الدؤوب من أجل النجاح والتحصيل العلمي النافع، وبهذا يوتي تعليمه نتائج إيجابية.

هذا ما كان يفعله مُعَلِّمُنَا الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الكرام وكثير من السَّابِقِينَ والسَّلَفِ الصَّالِح. فعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت السَّيِّئَ ﷺ وهو في المسجد مُتَكَيِّئٌ على بُردٍ له أحمرَ فقلتُ له يا رسولَ الله! إني جئتُ أطلبُ العِلْمَ. فقال: "مرحباً بطالبِ العلم، إنَّ طالبَ العلمِ تُحَفُّهُ الملائكةُ بأجنحتِها، ثم يركبُ بعضهم بعضاً حتى يملغوا السماءَ الدُّنيا من محبتهم لما يطلبُ".¹

وفي هذا المقام، يقول الإمام ابنُ جَمَاعَةَ الْكِنَانِي رحمه الله في أهمية الدُّورِ التَّعْلِيمِيِّ الذي يلعبه المُعَلِّمُ في الطالب: "ينبغي أن يترحبَ بالطلبة إذا لقيهم، وعند إقبالهم عليه، ويكرمهم إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلَّق بهم بعد ردِّ سلامهم، وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البشر، وحسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة، لأن ذلك أشرح لصدوره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله، ويزيد في ذلك لمن يرجى فلاحه ويظهر صلاحه".²

انطلاقاً من مكانة المُعَلِّمِ المحمودة في ديننا، يجب على المُعَلِّم أن يعمل على توصيل المعلومة أو المهارة إلى الطُّلَّاب بشكْلٍ عميق وفعال، إضافة إلى زرع مخافة الله في نفوسهم، وتربيتهم على الأخلاق الحميدة، وتنمية الشعور بالمسؤولية والجدية والإخلاص عندهم.

¹ صحيح الترغيب والترهيب، للإمامي، ج 1/رقم 71

² تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص 70

دور معتقدات المُعَلِّم في العملية التعليمية

'المعتقد' جمع 'معتقدات' وهي كل ما يؤمن به الإنسان، ويوقن به في قلبه وضميره انه حق وصواب بدون أي شك.

والمعتقدات أنواع متعددة: أهمها المعتقدات العليا كالمعتقدات الدينية، ثم الوسطى كالمعتقدات العلمية والفلسفية، ثم الدنيا كالمعتقدات الخرافية التي تتعارض مع مبدأي العقل والنقل.

بالرغم من أن ماهية المعتقد نظرية، وبجردة، وعلمية، إلا انه يتبلور ويظهر عملياً على الجوارح من خلال القول أو العمل. وأجل مثال على هذا عقيدتنا الإسلامية السمحاء التي أمرنا الله ﷻ أن نعتقدا ونوقن بها ونعمل بها قولاً وعملاً والمذكورة في قوله تعالى: ﴿أَمَّا الرُّسُولُ فَإِنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكَتَبَهُ وَرُسُلَهُ نَافِرِينَ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. وحددها الرسول محمد ﷺ في الحديث المروي عن أبي هريرة، قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ. فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُعْطِيَ الزَّكَاةَ الْمَعْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: "أَنْ تُعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَانْه يَرَاكَ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَخْبُثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ النُّعْرَاءُ الْحَقَاءَ رُعُوسَ النَّاسِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِغَاءُ الْبُهَمِ فِي الْبُلْبَانِ فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فَمَنْ خَمَسَ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ". ثُمَّ تَلَا ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ

تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [لقمان: 34]. قَالَ: ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "رُدُّوهُ عَلَى الرَّجُلِ". فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ"¹.

لا شك أن معتقدات الناس تنجسد في حياتهم الدنيوية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية من خلال أفعالهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم بشكل مباشر أو غير مباشر. فمنهم من يوالي من يتفق معه في المعتقد ولو كان معتقده يخالف الشرع، ومنهم من يتأثر ويعادي من لا يتفق مع معتقده ولو كان معتقده يوافق الشرع، هذا الوضع — عافاني الله وإياكم منه — يعاني منه كثير من الناس وعلى جميع المستويات.

لو نظرنا في وضع المُعَلِّم على سبيل المثال والمعتقدات التي يحملها في عقله وقلبه، وكيف يتعامل معها، ويستخدمها في عمله كمُعَلِّم، وإلى أي مدى تؤثر في جَوَدَةُ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، ولوجدنا بجرأ من المعتقدات والمبادئ والأسس ووجهات النظر التي تحدد سير عمله وأسلوب تدريسه وطريقة تعامله مع طلابه.

شكى لي طالب يدرس في كلية كنفز، في جامعة لندن أن مُعَلِّمه كان يؤمن بنظرية 'داروين'² الخبيث، فكان يتعامل مع طلابه بمعتقدات داروين الجاهل الأنوك ونظريته الضالة

¹ صحيح مسلم، رقم 5

² تشارلز داروين (1809-1892) كاتب إنجليزي وصاحب نظرية التطور التي تقول بأن أصل الإنسان حيوان صغير، نشأ من الماء، ثم تطور عبر ملايين من السنين بفعل تغيرات بيئية ليحصل صفات أرقى أورثها للأنباء حتى وصلت بهذا المخلوق البدائي ليصبح قرداً والقرد أصبح إنساناً. بش الكاتب هو، وبش النظرية هي، وخس هو ومن والاه من الحمقى والمغفلين. وكفانا هنا أن نذكر قول الله سبحانه وتعالى، (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُنَبِّئُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا

الماتقة، فكان يرفض أحياناً البحث الذي يتعارض فكره مع فكر داروين، ويقلل من جودة البحث أحياناً إذا شم رائحة التوحيد عند كاتب البحث، حتى أن هذا المُعَلِّم الخبيث كان لا يعترف بشواهد يذكرها هذا الطالب من القرآن الكريم!

أما في البلاد العربية، ولاسيما في البلدان العلمانية في أنظمتها السياسية والثرورية، الأمر أعظم وأمر، إذ يقع الطالب المسكين ضحية وفريسة المُعَلِّم العلماني الذي لا يخاف الله في عمله وتعامله مع طلابه، فهو يحكم بالإعدام على مصير طلابه الدراسي، ليس فقط من خلال مايمثلونه من معتقدات دينية أو فكرية متعارضة مع معتقداته وفكره، بل أحياناً يسعى جاهداً لث سموم معتقداته، وزبالة أفكاره، وخساسة نفسيته بين الطلاب بشكل مباشر أو غير مباشر¹.

سواء كان المُعَلِّم ناجحاً أم فاشلاً في عمله، فإن مبادئه ومعتقداته وأفكاره ووجهات نظره تؤثر على العملية التعليمية بشكل عام، وعلى أسلوب توصيل المعلومات إلى الطلاب، ومعتقدات وفكر الطلاب بشكل خاص، لذا لا بد من التعرف إلى معتقداته، ومبادئه، وطبيعة فكره، ووجهات نظره في بعض القضايا قبل التعامل معه، فيجب على

أَنْتُمْ اسْكُنُوا أَيْمَانَ الْجَنَّةِ وَكُلُوا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ. وَلَقَدْ أَهْبَطُوا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَوًّا وَكُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. لَقَدْ أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَلَمَّا بَلَغَ نَحْمٌ مِّنْهُ هَدًى فَمَنْ تَبِعَ هَذَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: 30-39). وقال سبحانه وتعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: 4). هذا لمن له عقل سليم وقلب أراد الهدى والبراط المستقيم.

¹ صدقوا، نعم صدقوا! في بعض البلدان العربية ربما كان المُعَلِّم رجل أمن للسلطة، أو عميلاً متبرعاً لها. وربما كانت المُعَلِّمة أيضاً! ولم لا؟ اختياريه واختيارها لم يكن على أساس الكفاءة، بل على أساس الولاء لقائد المسيرة، ولالحزب القائد! وهذا من ذلك، وذلك من هذا! وش في خلقه شؤون! ولعلنا نلينا هذا في الحاشية، ولم ندخله للنص، لأنه خارج على النص، وخارج على كل مبادئ السماء والأرض! وخارج عن الحياة وطبيعتها! ولربما كانت مذابحه الثقافية والتعليمية أهون للمذابح لأنها بعيدة عن الدماء، ولكنها أكثر قرباً من الدمار!

مديري المدارس وعمداء الكليات ورؤساء الجامعات أن ينظروا في المبادئ والمعتقدات التالية عند تعيين المدرّسين في المدارس وأعضاء هيئة التدريس في الكليات والجامعات:

1. معتقداته الدّينية

هل يعتقد بعقيدة التّوحيد المذكورة في الكتاب والسّنة الشّريفة، أم يعتقد بمعتقدات وخزعبلات العلّمانية وزبانيته! فالفرق بين العقيدتين وأثرهما في العملية التّعليميّة كالفرق بين الجنة والنار وأثرهما كأثر بائع العطور والنافخ في الكبر. حذار من نافخي الكبر وعمّاله! وحذار من نافخي السموم في رؤوس الطّلاب الأبرياء بحجة التّعليم! وحذار من دغدغة الثّعلب الماكر بحجة مساعدة الطّلاب الضّعفاء! هذا النوع من المُعلّمين خيره من شر، وحبهم كره، وضحكهم مكر وخداع.

2. معتقداته الثّقافيّة والاجتماعيّة

هل يعتقد بثقافات تربية أو اجتماعيّة تنعارض مع الكتاب والسّنة أم تتوافق معهما؟ هل ثقافات تعامله مع النّاس بشكّل عام، والطّلاب بشكّل خاص، تقوم على مبدأ ائتلاف النّاس واختلافهم، ولزوم المداراة وترك المداهنة مع النّاس أو الطّلبة، ولزوم الرفق في أمور وكراهية العجلة فيها، وغيرها كثير.

3. معتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة

هل يعتقد بأولوية العلوم العليّاء، أي علم قال الله عزّ وجل، وقال الرّسول ﷺ، قال الصّحابة الكرام، وقال التابعون والسّلف الصّالح؟ هل يعتقد أن العلوم الوسطى كالطب والهندسة والحساب، وغيرها جعلت وسيلة لتمكين الإنسان من العيش على هذه الأرض لعبادة ربه الواحد الأحد؟ هل يعتقد أن العلوم السفلى كالسحر وغيرها من العلوم الملهية التي ضررها أكثر من نفعها والتي لا حصر لها في هذا المقام يجب الحث على تجنّبها لأنّها مضیعة للوقت، ومفسدة للعقل، ومصدأة للقلب!

4. معتقداته حول دور العلم والمعرفة في التعليم والتعلم

هل يعتقد أن أهم دور للعلم هو تعريف الجاهل بربه حتى يعبدّه ويخشاه سبحانه وتعالى على علمه وبقيه، ومخاربة الأمية بين أبناء المجتمع، وتعليم الطالب العلم النافع والمعرفة المفيدة؟ هل يعتقد أن دور العلم هو القضاء على الخرافات والخزعبلات التي تتعارض مع شريعة الكتاب والسنة، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وتعزيز القيم السامية، ونشر الأخلاق الكريمة؟ وغيرها كثير.

5. معتقداته حول طبيعة التعليم

هل يعتقد بمبدأ 'النقل قبل العقل'؟ هل يعتقد أن العلم الطبيعي يقوم على مبدأ التجربة والاستقراء، وعلى الأدلة والاستدلال؟ هل يعتقد بمبدأ رفض العواطف والاعتبارات الشخصية؟ هل يعتقد بمبدأ البحث العلمي ورفض الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين؟ هل يعتقد أن التعليم تلقين أم تعليم؟ هل يعتقد أن التعليم كمي سطحي أم نوعي عميق؟ هل يعتقد بمبدأ التدرج في التعليم؟ هل يعتقد بمبدأ الثواب والعقاب في التعليم؟ وغيرها كثير.

6. معتقداته حول طبيعة التعلم

هل يعتقد بمبدأ استمرارية التعلم؟ هل يعتقد بمبدأ رعاية الفروق الفردية لدى الطالب في تعلمهم؟ هل يعتقد بثقافة تساوي الفرص بين الطالب؟ هل يعتقد بمبدأ التعلم الكمي السطحي أم النوعي العميق؟
لاحرج في هذا المقام أن نذكر أن اللغوي طوني رايت¹ ميّز نوعين من المعتقدات لدى المعلم²:

¹ (Wright, T: 1987)

² انظر كتاب معايير لتقويم جودة التعليم لدى المدرسين في الجامعات والمعاهد العليا، د. أحمد حليمة، ص15

أ- مُعَلِّم (أ) يعتقد أن :

1. هناك تخصصات مختلفة مثل العلوم واللغات.
2. هناك حدود واضحة بين هذه التخصصات.
3. للتخصص مضمون محدد للدراسة والتعلم.
4. يتطلب من الطالب تحقيق مستوى معين من الإنجاز العلمي في هذا التخصص.
5. يمكن تقويم أداء الطالب حسب أسس محددة.
6. مهمة المعلم تقويم الطالب وفق معايير محددة.

ب- ومُعَلِّم (ب) يعتقد أن :

1. المعرفة هي القدرة على تنظيم الفكرة وشرح الحقائق والعمل بها.
2. الطالب بطبيعته متحمس لاكتشاف عالمه التعليمي.
3. المهمة الرئيسة للمعلم إجراء حوار، ومن خلال هذا الحوار يقوم الطالب بإعادة تنظيم معرفته السابقة.

تفرض معتقدات كل من المعلم (أ) والمعلم (ب) عليهما أن يتصرفا بشكل مختلف في الفصل الدراسي، فالمعلم (أ) يبذل جهداً كبيراً لإيجاد جو مناسب في الفصل حتى يستطيع أن يعطي المعلومة المقررة وعلى أساسها يقوم الطالب، فهناك من ينجح وهناك من يرسب، حسب مقدرة الطالب على استرداد ما حفظه. فهذا النوع من المعلمين يهتم بتوصيل المعلومة فقط دون الاهتمام بتنمية مشاعر المسؤولية عند الطالب. أما المعلم (ب) لا يحتاج أن يبذل جهداً كبيراً في ضبط الفصل الدراسي لأن الطالب مهتمين وراغبين في كسب المعرفة وتطوير شخصياتهم. لذا يكرس المعلم (ب) جهده في تعزيز وتطوير الشعور بالمسؤولية لدى الطالب حتى تحصل الجودة في التعلم بشكل تلقائي، لأن الفهم والاستيعاب والقدرة على التحليل والتفقد وإعادة تنظيم الأفكار

هم غرض التَّعلِيم عند المُعلِّم (ب) وغرض التَّعلُّم عند طلابه، وليس حفظ حقائق متفرقة واستردادها على ورقة الاختبار.

فعلى المُعلِّم العاقل أن يحمل معتقدات لاتعارض مع عقيدة التَّوْحِيد في الكتاب والسنة، وأن يرفض ويحارب ثقافات الفساد والاضلال الاجتماعي بكافة أشكالها وأنواعها، ويزجر ثقافات التَّقليد الفكري المشبوه بين الطُّلاب، ويُعزِّز ثقافات التَّفكير الحر، وينشر ثقافات التَّعلِيم النوعي العميق، ويشجع ثقافات التَّعلُّم العميق الفعال، ويحث على التحلي بمحاسن ومكارم الأخلاق.

بهذا يتم الحكم على المُعلِّم فيما إذا كان صالحاً لوظيفة التَّعلِيم أم لا، وبهذا نضمن جيلاً ربّي على عقيدة التَّوْحِيد، وتشبع بثقافات اجتماعية صالحة، وتعلّم ثقافات التَّعلُّم العميق الفعال، ونمت لديه مهارات التَّفكير الحر السليم، وتطوّرت لديه وسائل وطرق البحث العلمي الصحيحة، وأصبح الفرد فيهم ذو شخصية صالحة العقيدة، قويّة الثقة، عاملة، مرتاحة مطمئنة.

المُعلِّم والأساليب التعليمية

إن طرائق وأساليب التَّعلِيم كثيرة ومتعددة في شكلها ومضمونها، منها ما يتعلّق بتعليم الأطفال الحضانة والروضة، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الابتدائية، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الإعدادية، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الثانوية، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الجامعية، ومنها ما يتعلّق بطلبة الدراسات العليا، كطلبة دراسات الماجستير والدكتوراة.

إن المُعلِّمين يختلفون ويتميّزون عن بعضهم بعضاً بالطرائق والأساليب والاستراتيجيات التي يستخدمونها في تعليمهم لطلابهم، ويتبنونها من أجل توصيل المعلومة وتحقيق الأهداف السلوكية والنشاطات والمعرفة.

منهم من لا يستخدم طريقة أو أسلوباً محدداً في تعليم طلابه، إما لجهل فيه أو لعدم مسابلاته بأهمية الأمر، أو لكير في شخصيته، والله أعلم. هذا النوع من المعلمين مائل طائش يميل ويطيش بعقول طلابه شرقاً وغرباً لا يعرف كيف يبدأ الدرس أو كيف ينهي. يخرج طلابه من درسه كما دخلوا، بدون تحصيل علمي يُذكر، لأن عقولهم مشوشة، وقلوبهم مغلقة، ومشاعرهم نحو مُعَلِّم الدرس حيرى مرتبكة.

ومنهم من يفضل طريقة أو أسلوباً أو إستراتيجية سطحية تناسب مع شخصيته، ومعتقداته، والمؤاَدِّ التَّعْلِيمِيَّةِ المستخدمة، وترفعات الطُّلاب، وأوامر الإداريين، وشكل القاعة الدَّرَاسِيَّةِ، من أجل توصيل المعلومة _ فهذا مُعَلِّم سطحي يقتصر نشاطه على التلقين.

ومنهم من يفضل طريقة أو أسلوباً أو إستراتيجية عميقة فعالة تقوم على تخطيط وإعداد المواضيع والأفكار للطلاب، وإعداد نشاطات حول هذه المواضيع، وتقديم المادة التَّعْلِيمِيَّةِ بأسلوب يتحدى تفكير وتجربة الطُّلاب المسبقة، ويثير بهم حبَّ الاكتشاف والمعرفة- فهذا مُعَلِّم عميق فعال في تعليمه وتعامله مع طلابه.

وخير ما سنشهد به في هذا المقام، ما كان أفضل المعلمين، المُعَلِّم الرسول، محمد ﷺ يستخدم من أساليب وطرائق في تعليمه لأصحابه الكرام ولمن جاء يطلب العلم منه، وكيف كان يختار أحسنها، وأفضلها، وأوضحها، وأقربها إلى فهم، وعقل، ومدارك السُتَعَلِّم، حتى تثبت في ذهنه، ويدركها عقله، ويتقبلها قلبه عن حب ورضا، فتصبح المعلومة جزءاً لا يتجزأ من المعرفة الفطرية لديه.

لقد كُتِبَ الكثير عن أساليب وطرائق التَّعْلِيم في الدوائر الأكاديمية الغربيَّة والشرقية، فمنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ، ومنهم من فصل وأطال، ومنهم من اختصر وقصر، وأنا بدوري _ إن شاء الله _ سأقدم للمُعَلِّم العاقل، وللقارئ الفطن، مجموعة موجزة من

أهم الأساليب التعليمية التي يمكن استخدامها في تعليمه، وذلك حسب الموقف التعليمي الذي هو فيه:

أولاً: أسلُوبُ التَّعليمِ بالفعل والعمل

إنَّ أسلُوبَ التَّعليمِ "بِالفعل والعمل" قدَّم حديث لأهميته وفَعَالِيته في العملية التعليمية، حيث يكون المُعَلِّم في أخلاقه وسلوكه وأفكاره قدوةً لطلابه من جهة، ويستخدِم الطرائق والنشاطات والإستراتيجيات العمليَّة في شرحه وبيانه للطلاب من جهة أخرى.

يتعلَّم الطالب من مُعَلِّمه الكثير بدون أن يشعر المُعَلِّم بذلك، فعلى سبيل المثال، إذا كان المُعَلِّم ذو خلق حسن، ويهتم بالمحافظة على الصلوات الخمس أمام طلابه، ويمارس مهارة القراءة بقراءة كتاب نافع أسبوعياً، يكون أسوة لطلابه، فمنهم من يتعلَّم هذه الأمور، ومنهم من تُثار لديه حب التجربة والمحاولة، والعكس صحيح.

وخبر دليل نستدل به هنا أنَّ أسلُوبَ مُعَلِّمنا الأول، ورسولنا العظيم، مُحَمَّد ﷺ في تعليمه لأصحابه الكرام من خلال الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة لهم في كل أمر يقره أو ينهى عنه، أو فعل يأمر به أو ينهى عنه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]. فقد كان الصَّحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، يتعلمون ويأخذون كل شيءٍ نافع يرون الرسول المصطفى ﷺ يقولهُ أو يفعلهُ أمامهم، ويرفضون كل شيءٍ غير نافع يرون الرسول لله ﷺ يزجرهُ أو يتجنَّبهُ بقولهِ أو بفعلهِ، فكان صلى الله عليه وسلم قدوة لهم في عقيدته التَّوْحِيدية، وأخلاقه العظيمة، وسلوكه القرآني، وعبادته الروحانية، وجهاده في سبيل الله.

وقد ثبت أيضاً أنَّ الرسول ﷺ قد علم أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بِأسلُوبِ البيان الفعلي، فقد روي أنَّ مُحَمَّد بنُ سَلام، قَالَ أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ

رَجُلًا أَجَنَبَ، فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتِيمٌ وَيُصَلِّي. فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6] فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رَخَّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لَأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِدَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَارٍ لِعُمَرَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجَنَبْتُ، فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ¹ الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا". فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ، أَوْ ظَهَرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ تَمْ يَفْنَعُ بِقَوْلِ عَمَارٍ². يَتَبَيَّنُ لَنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَ عَمَارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّيَمُّمَ بِالْفِعْلِ وَبِالِإِهَانِ الْعَمَلِيِّ.

وقد ثبت علمياً أن الطالب يتعلم بسرعة، وبعمق، وبفعالية، إذا أستخدمت معه الأساليب العملية في تعليمه، فإذا قام المُعَلِّمُ بشرح كيفية زراعة نبتة البندورة، على سبيل المثال، بالبيان الفعلي والعلمي، يحصل التُّعَلُّمُ عند الطُّلَّابِ بفعالية وعمق. هذا الأسلوب متبع في المؤسسات التعليمية البريطانية في جميع المستويات التعليمية، ولاسيما المرحلة الابتدائية، حيث يُعطى كل طالب وعاءاً صغيراً فيه تراب أرضي، ويتم تعليم الطُّلَّابِ كيفية زراعة بذور مختلفة فيختار كل طالب بذوراً تختلف عن زميله وعلى فترة من الزمن تتم دراسة النباتات المزروعة في الأوعية الصغيرة، ويقوم الطُّلَّابُ بقياس أطوال النباتات ودراسة الفروقات بين الواحدة والأخرى، كما تخضع بعض النباتات لظروف مناخية مختلفة عند بعضها الآخر وتُدرس النتائج التي تطرأ على النبات، كما تتاح الفرص للطلاب لأخذ نباتاتهم للاعتناء بها في منازلهم، وبذلك يتولد عند الطالب شعوره بالمسؤولية تجاه نبتته فتراه

¹ حذفت منها ناء المضارعة، فهي في الأصل تتمرغ .

² صحيح البخاري، رقم 347

متشوقاً ومتحمساً كي تنمو نبتته بشكل أفضل من نباتات زملائه في الصف، وبذلك تثبت الفكرة عند الطُّلاب، وتصبح مفهومة وغير متلقنة شفهيًّا.

ثانياً: أسلُوب التعلُّيم بالتدرُّج

إن مبدأ الأخذ بالأولويات الأمور معمول به في الدول المتحضرة والمتقدمة بشكل أكثر وأجلّ منه في الدول العربية، بالرغم من أن شريعتنا السمحاء اعتمدته، ودعت إلى العمل به، وأكدت على الاعتناء بالأهمّ فالأهمّ في كافة مجالات الحياة، ولاسيّما في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فقد روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مَعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: " إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْسَتْ لَهُمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَزُكُّوا عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كِرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ " ¹. نجد في هذا الحديث الشريف أن الرسول ﷺ كان السِّبَاق في وضع نظام الأولويات، فقد وضع ﷺ لمعاذاً سلسلة من الأولويات في دعوته لأهل اليمن، ورتبها بالتدرُّج حسب أهميتها: أولها الدعوة إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثانيها: أن يخبرهم بأن الله فرض عليهم الصلوات الخمس، ثالثها: بأن الله فرض عليهم زكاة عن أموالهم.

إن أسلُوب التدرُّج في التعلُّيم جزء لا يتجزأ من مبدأ الأخذ بالأولويات، والاعتناء بالأهمّ فالأهمّ. فالمُعلِّم العاقل من يختار المادّة أو الموضوع الأهمّ فالأهمّ من حيث الكميّة التي يريد أن يعلمها للطلّاب، أو النوعيّة التي يريد أن يركّز عليها في تعليم مادته، لأن العلم بحر خِصَمٍّ، وعميق، وواسع، وملئ بالآلئ العلم وأسرار المعرفة، فالأفضل للفهم، والأثبت للحفظ أقلها كمّاً وأهمّها نوعاً، فقد روى ابن عبد البرّ القرطبي أن ابن شهاب قال ليونس بن يزيّد: "يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيتها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه،

¹ صحيح البخاري، 1458

ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي¹.

أما التدرج في التعلّم من حيث النوعية فهو أجدر وأولى، لما في ذلك من نفع وفائدة لطالب العلم، وهذا ما يؤكده الشرع، ويقبله العقل، ويألفه القلب، فقد روي عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَازِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا².

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّهُ كَانَ مِمَّا يُذَكِّرُ النَّاسَ كُلَّ حَمِيسٍ فَقَالَ رَجُلٌ: وَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ قَالَ: أَمَا أَنَّهُ مَا يَمْتَنِعُنِي ذَلِكَ إِلَّا مَخَافَةً أَنْ أَمْلِكُمْ إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَخَوَّنَا³ بِالْمَوْعِظَةِ بَيْنَ الْأَيَّامِ مَخَافَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا⁴. فكان عبد الله بن مسعود راوي الحديث نفسه، تطبيقاً لما روى ههنا لا يعظ إلا كل أسبوع مرة رغم مطالبة القوم له بالحديث يومياً، وتشوقهم لحديثه.

وقال أبو الحسن البصري الماوردي⁵ رحمه الله في التدرج في طلب العلوم: "إن للعلوم أوائل تسودي إلى أواخرها، ومداخل تقضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، ومداخلها لتقضي إلى حقائقها. ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أس لا يبنى، والشمر من غير غرس لا يجنى"⁶.

¹ جامع بيان العلم وفضله، لبن عبد البر القرطبي، ج1/104

² سنن ابن ماجه، رقم 61

³ والتخول التعمد أي من مرة إلى مرة دون استمرار يملُ ويسئم.

⁴ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (6/ 489) الألباني : صحيح

⁵ هو علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي المعروف بالماوردي، إمام من أئمة الفكر وواحد من كبار

فقهاء الشافعية صاحب كتاب أدب الدنيا والدين ولد في البصرة سنة 364هـ وتوفي سنة 450هـ

⁶ أدب الدين والدنيا للأبي الحسن الماوردي ص 53

وعلى هذا الأساس يجب على المُعلِّمين العقلاء، والمؤسسات التعليمية الواعية لمسؤولياتها، أن يضعوا المادة التعليمية، والمقرارات الدراسية، والمناهج والبرامج التعليمية والتدريسية منها، ما هو أنسب لقدرات الطالب، وأسرع لفهم المعلومة، وأثبت لحفظ الفكرة، وأنشط للذهن، وأحب للقلب. كل هذا يؤدي إلى تعليم وتعلم عميقين وفعالين، إن شاء الله.

ثالثاً: أسلُوب التعليم الفردي

يختلف الطلاب عن بعضهم بعضاً في كثير من الأمور، فهم غير متساوين ولاسيماً فيما يتعلق برغباتهم وقدراتهم ومهاراتهم التعليمية، فمنهم - على سبيل المثال - من يحب مادة اللغة العربية أكثر من مادة اللغة الإنجليزية، ومنهم من يجد مادة الحساب أو الرياضيات أصعب وأكثر تعقيداً من مادة الفيزياء أو الكيمياء، ومنهم من يكتسب مهارة القراءة قبل مهارة الكتابة.

هذا وضع طبيعي في العملية التعليمية، لكن ينبغي على المُعلِّم العاقل أن يدرك أهمية هذا الوضع، وأن يعمل جاهداً على مراعاة الفروق الفردية في طلابه عند تعليمهم وإرشادهم، فيخاطب كل واحد بقدر فهمه واستيعابه، فتعليم المبتدئ غير تعليم المتقدم، وتعليم الضعيف في اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، غير تعليم المتمكن منها.

إن أسلُوب مراعاة الفروق الفردية في عملية التعليم مطلب أساسي لنجاح العملية التعليمية، وأول من عمل بهذا الأسلوب مع تلاميذه مُعلِّمنا ورسولنا المصطفى ﷺ، حيث كان يخاطب كل من أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - ومن جاء يطلب العلم بقدر فهمه، وحسب منزلته، وبما يناسبه، وبما يلي من الأحاديث دليل واضح على ذلك:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بْنِ الْعَاصِي قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ شَابٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبَلْ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: لَا، فَجَاءَ شَيْخٌ فَقَالَ: أَقْبَلْ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَلِمْتُ لِمَ نَظَرَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ¹.

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مُبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَتَبْغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ: "فَهَلْ مِنْكَ أَلَدٌ حَيٌّ؟" قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: "فَتَبْغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَارْجِعْ إِلَى وَالِدِكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا"².

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ذُنُوبِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: "تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيُمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ". قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا. فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ سَرَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا"³.

هذه الأحاديث الشريفة قليلة من كثير مما قاله النبي الأمي ﷺ فيما يتعلق بمراعاة الفروق الفردية بين المستعلمين، والمُخاطَبين، والسائلين، لذا ينبغي على المُعَلِّمِ العاقل الساجح أن يراعي هذه الفروقات حتى يتحقق المبتغى من العملية التعليمية بعمق وفعالية، إن شاء الله.

رابعاً: أسلُوبُ التَّعْلِيمِ بِالمَسْأَلَةِ وليس بالتلقين

من إحدى الفروقات بين أساليب التَّعْلِيمِ في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ والمؤسسات التَّعْلِيمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، هي أن الأولى تستخدم أسلُوبَ المسألة وطرح الأسئلة، والأخرى تستخدم أسلُوبَ التلقين وإعطاء معلومات، ففي بريطانيا على سبيل المثال نجد المُعَلِّمَ سواء كان مدرساً في مدرسة ابتدائية أو جامعة يستعمل أسلُوباً يسمح له بطرح أسئلة من

¹ رواه الإمام أحمد في مسنده، ج 2/180

² صحيح مسلم، رقم 2549

³ صحيح البخاري، رقم 1397

جهة، ويسمح للطالب بالإجابة على ما طرحه المُعلِّم من جهة أخرى، فتتولد لدى المُعلِّم والطالب شراكة إيجابية فعّالة في ملكية المعلومة، وبالتالي يحصل التعلُّيم والتعلُّم بعمق وبفعّالة لدى المُعلِّم والطالب معاً.

أما في البلاد العربيّة—إلا ما رحم ربي— نجد أن أسلُوب التلقين أو ثقافة التلقين تُمارس على مستويات مختلفة في المجتمع، فالأب يمارس ثقافة التلقين المتسلط على أولاده، والزوج يعطسي أوامر وتعليمات إلى زوجته بدون سؤال يُطرح أو إجابة تُعطى، ومدير شركة أعمال يصدر تلقيناته بذكثاتورية عمياء، والمُعلِّم ليس ببعيد عن ممارسة ثقافة التلقين الفرعونية في تعليمه لطلابه، فتراه يدخل القاعة الدّرّاسيّة، ويبدأ يسرد المعلومات، وكأنه رشاش يريد التخلص من طلقاته سواءً أصاب الهدف أم أخطأه، بدون توقف أو استفسار عما كان الطلّاب على علم بما يلقنهم به أم لا.

ورسول ﷺ، التيّ الأمي، مُعلِّم البشريّة، قد سبق الغربيّ والشرقيّ في استخدام أسلُوب طرح الأسئلة على أصحابه—رضوان الله عليهم—وعلى من جاء يطلب العلم منه، فهو أسلُوب يثير انتباه السامعين، ويحضّهم على استخدام فكرهم في الجواب على السّؤال، ووسيلة للمعرفة إن كان هناك أحد من المُتعلِّمين لديه الإجابة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه—انه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِي؟". قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِي شَيْئًا. قَالَ: "فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا"¹.

وعن أبي هريرة، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ ". قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا ذَرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ أَتَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا،

¹ صحيح البخاري، رقم 528

فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ¹.

ينبغي على المُعَلِّمِ العاقل — أثناء تدريسه للتلاميذ في المدارس أولقاء محاضراته أمام طلبته الجامعين — أن يقوم بطرح الأسئلة ويسأل فيما إذا كان هناك أحد من الطلاب لديه الإجابة، وأن يتجنب تلقين الطلاب معلومات قد يعلمونها.

وينبغي عليه أيضاً أن يزودهم بمجموعة من الأسئلة للدراسة والبحث بحيث يحاولون الاجابة عنها قبل الدرس أو المحاضرة، ويثر لديهم حب طرح الأسئلة، ويطلب منهم تحديد أسئلتهم وصياغة أسئلة اختبارات، وإعداد نماذج تقويم، وذلك لمساعدتهم في تبني مبدأ المساءلة في التعلُّم وزجر مبدأ السكوت السلبي الذي يُنتج الجهل والحق عند المُتعلِّم، وفي هذا قال الشاعر بِشَّارُ بْنُ بُرْدٍ²:

شَفَاءُ الْعَمَى طُولُ السُّؤَالِ وَإِنَّمَا دَوَاءُ الْعَمَى طُولُ السُّكُوتِ عَلَى الْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلاً عَمَّا عَنَّاكَ فَنَمَّا دُعَيْتَ أَخَا عَقْلٍ لِنَبْحَثَ بِالْعَقْلِ

خامساً: أسلُوبُ التَّعْلِيمِ بالمناقشة والحوار

إن أسلُوبِي المناقشة والحوار أسلُوبان معروفان ومعمول بهما في الدوائر التَّعْلِيمِيَّةِ العالمية، ولاسيما الغَرْبِيَّةِ منها، وبالتحديد في بريطانيا، وذلك لأهميتهما في عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ، كتابةً وشفهياً. وربما يُعمل بهما في بعض البلدان العربيَّة، لكن على نطاق ضيق وفي المراحل الجامعيَّة فقط بطريقة الكتابة، أما أسلُوبُ الحوار الشفهي التَّعْلِيمِي بين المُعَلِّمِ والطالب نادراً ما يحصل نتيجة لثقافة المُعَلِّمِ التسلطية والدكتورية في طرح مسألة التَّقَاشِ التي لاتسمح للطلاب أن يأخذ دور الحوار أو أن يساهم في عَمَلِيَّةِ التَّقَاشِ.

¹ صحيح مسلم، رقم 2581

² أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي، ص 66

سواءً كان الأمر كتابة أم شفهيًا، يتضمن أسلوب النقاش طرح فكرة ما أو مسألة ما أو أمر ما للمناقشة وللحوار من أجل التوصل إلى المبتغى من خلال وصف وشرح الفكرة، وذلك بإعطاء معلومات وأمثلة وآراء تؤيد وجهة نظرة الفكرة من جهة، وتعارضها من جهة أخرى، ثم القيام بتحليلها وتقويمها. بهذا الأسلوب يحصل التعلُّم عند الطالب، ويقوم الطالب بتطبيقه في كتابة واجباته وأبحاثه، ويستخدمه في حوارهِ مع مُعلِّمه أو زملائه، كل حسب علمه ومزله.

فقد استخدم الرسول المُعلِّم صلوات الله وسلامه عليه أسلوب المناقشة والحوار والموازنة العقلية في شرح وتوضيح بعض المسائل الشرعية، وذلك ليحقق الحق، ويحق الباطل، وليغرس القبول والاطمئنان لدى السائل أو المستمع، فقد روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى، أَوْ فُطْرٍ، إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنْ أُرِيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ". فَقُلْنَ: وَيَمَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ". قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ". قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: "فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ". قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: "فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا"¹.

لذا ينبغي على المُعلِّم العاقل أن يقتدي بمُعلِّم الإنسانية، ويقبل هذا الأسلوب عن حب وقناعة، لما فيه من نفع له كمُعلِّم ولطلابه كمتعلِّمين، فأسلوب النقاش يوضح المعنى، ويقوي الفهم والاستيعاب، ويثبت الحفظ، ويثير الفطنة، ويحرك الذكاء، أما أسلوب الحوار يقرب القلوب، ويجلي النفوس، ويشحذ الأذهان، ويولد الأفكار، ويطور الآراء، فيحصل بذلك التعلُّيم الفعَّال، والتعلُّم العميق النافع.

¹ صحيح البخاري، رقم 304

سادساً: أسلُوبُ التَّعْلِيمِ بالمُقَايَسَةِ والمِشَابَهَةِ

المُقَايَسَةُ لغويّاً هي الموازنة بين أمرين، والمِشَابَهَةُ هي مماثلة الشيء بشيء آخر، وكلاهما يُستخدمان في العمليَّة التَّعْلِيمِيَّةِ من أجل توضيح أو شرح ما أشكل معناه أم مفهومه على السائل أو المستمع.

فقد كان رسول الله ﷺ يستخدم هذين الأسلوبين في توضيح وتعليل ما اشتبّه لأصحابه من أحكام الشريعة، وما غمض عليهم من أمور دينهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُثَيَّةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: "نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ ذَيْنِ أَكُنْتَ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا لِلَّهِ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِالْوَقَاءِ"¹.

وفي المِشَابَهَةِ وضرب المثل حتى يتيسر الفهم والاستيعاب لدى المُتَعَلِّمِ، روي عن أنس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُثْرَجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحُ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحُ لَهَا، وَمَثَلُ الْحَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصْبِكْ مِنْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِبْرِ إِنْ لَمْ يُصْبِكْ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ"².

لذا ينبغي على المُعَلِّمِ العاقل أن ينوع في أساليبه، فتارة يستخدم أسلُوبَ المقايسة، وتارة يستخدم أسلُوبَ التشبيه وضرب الأمثال، لما في ذلك من تيسير للفهم، وترويح للقلب، وشحذ للذهن لدى المُتَعَلِّمين.

¹ صحيح البخاري، رقم 1852² سنن أبي داود، رقم 4829

سابعاً: أسلُوب التعلّيم بالبحث والاستكشاف

يُعَدُّ أسلُوب البحث العلميّ في بريطانيا من أهمّ الأساليب التي تُستخدم في تعليم الطُّلاب في كافّة مراحلهم التعلّيمية، ابتداءً من المرحلة الابتدائية وانتهاءً بمرحلة الدراسات العليا، لما في هذا الأسلوب من نفع وفائدة للمُعلِّمين وللمُتعلِّمين.

يقوم مبدأ هذا الأسلوب على إعطاء الطالب فكرة ما أو موضوعاً ما، أو مسألة ما بحاجة لحل، أو مشكلة ما بحاجة لبحث ونقاش، فيذهب الطالب لكي ينفذ الواجب باتباع خطوات معروفة في مجال إجراء أي بحث علمي، منها: مرحلة التفكير والتخيل، ثم مرحلة التحضير والتخطيط، ثم مرحلة التنفيذ، ثم مرحلة التقويم، طبعاً هناك إجراءات عديدة يقوم بها الطالب خلال كل مرحلة من هذه المراحل تناسب مع طبيعة السؤال والمادة التعلّيمية.

يُمارَس أسلُوب البحث العلميّ في المدارس الابتدائية البريطانية على سبيل المثال بطريقة تناسب مع أعمار الطُّلاب، وقدراتهم العقلية، وميولهم العلمية، ورغبتهم التَّفَسُّع، وذلك لغرس حب البحث عن حقائق الأمور، وتنمية الرغبة في الكشف والاستكشاف عن المجهول، وتطوير مهارات البحث عن المعلومات، وكيفية جمعها وتصنيفها وإعدادها وتحليلها والتوصل إلى نتائج يستفاد منها في حياتهم العلمية والعملية.

لكنه لا يُمارَس في معظم البلاد العربية للأسف ولاسيّما في المراحل التعلّيمية التأسيسية بالرغم من أن بعض مَوَازٍ المناهج الدِّراسية المفروضة في المدارس تحتوي على أسئلة أو تمارين أو نشاطات أو حتى فعاليات تحت المُعلِّم على استخدامها، وتثني على الطالب الذي يطبقها. يعود هذا الوضع المخزي إلى عوامل وأسباب عديدة منها:

أ. عدم وجود ثقافة البحث العلميّ في المدرسة أو المؤسسة التعلّيمية، فلا مدير

يتابع ولا مفتش يسأل أو يفتش!

ب. عدم ممارسة الطلاب لثقافة البحث والتنقيب ومهارتي القراءة والكتابة منذ الصغر، بلدت عقولهم، وصدأت قلوبهم، ورضوا بالقليل الخسيس من العلم، لأنه سهل بسيط.

ت. إن المُعَلِّم لا يملك المعرفة العلمية والمهارت البحثية التي تؤهله لتبني مثل هذا الأسلوب في تعليم طلابه.

ث. عدم مبالاة المُعَلِّم بمثل هذه الثقافة المتحضرة، إما لكسل فيه، أو لجهل أصابه، أو لكبر فيه.

فقد كان رسول الله ﷺ تارة يُبهم الشيء أمام أصحابه حتى يثير لديهم حب البحث عن حقيقة الأمر والرغبة في الاستكشاف، فيكون أكثر تأثراً بهم لإتيانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً مع رسول الله ﷺ فقال: "يَطْلُعُ الْآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطَفُفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ عُلِقَ نَعْلُهُ بِيَدِهِ الشَّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلُ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلُ مِقَالَتِهِ أَيْضاً، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأَوَّلِ.

فلما قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَيَّ تَبِعَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِيتُ أَبِي، فَأَقْسَمْتُ أَنِّي لَا أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَنِي فَعَلْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قال أنس: فكان عبد الله ﷺ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثَّلَاثَ اللَّيَالِي فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَى¹ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ.

¹ المسمان العرب (4/ 91): ذكر ابن الأثير في كتاب النهاية من تعار من الليل في هذه الترجمة (أي ت ع ر) وقال أي هب من نومه واستيقظ قال والتاء زائدة وليس باب (أي هي من باب : ع ر ر)

قال عبدُ الله : غيرَ أني لم أسمعهُ يَقولُ إلَّا خيراً، فلما مَضَتْ الثلاثُ اللَّيالي، وكِدْتُ أن أَحْتَفِرَ عَمَلَهُ قلتُ: يا عبدَ الله لم يَكُنْ بيّني وبينَ أبي غَضَبٌ ولا هَجَرٌ، ولكن سمعت رسولَ الله ﷺ يَقولُ لك ثلاثُ مرَّاتٍ: يَطلُعُ عليكم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنة، فطلَّعتُ أنتَ الثلاثَ المرَّاتِ، فأردتُ أن أويَّ إليكَ، فأنظَرُ ما عَمَلُكَ، فأفتدي بِكَ، فلم أركَ تَعْمَلُ كثيرَ عَمَلٍ، فما السَّذي بَلَغَ بِكَ ما قال رسولُ الله ﷺ؟ قال: ما هو إلَّا ما رأيْتُ، فلما وُكِّيتُ دَعاني: فقال: ما هو إلَّا ما رأيْتُ يا ابنَ أخي غيرَ أني لا أَجدُ في نفسِي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا، ولا أَحسُدُ أحداً على خَيْرٍ أعطاهُ اللهُ إياه.

فقال عبدُ الله : هذه الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وهي الَّتِي لا تُطِيقُ¹.

يتبين من هذا الحديث أن الرسول ﷺ قد استخدم أسلوب إثارة حب المعرفة خلال التنبيه على أن فلاتاً من أصحاب الجنة بدون أن يصرح عن اسمه، استحق هذا الوسام العظيم، وماذا كان يفعل في نماره وليله، وكيف يتعامل مع الآخرين، بل ترك لمن عنده الرغبة في البحث والاستكشاف أن يقوم بذلك حتى يحصل على العلم ويتحقق لديه الحكمة من قوله ﷺ .

لذا ينبغي على المُعَلِّم العاقل أن يستخدم هذا الأسلوب مع طلابه سواء كانوا صغاراً أم كباراً، ولا يجد فيه حرجاً لأنه أسلوب يتيح للمُعَلِّم والمُتَعَلِّم الفرصة في كسب مزيد من العلم والمعرفة، ويصل لديهما مهارات البحث والتنقيب والتحليل والاستنتاج والتقويم.

ثامناً: أسلوب التعليم القصصي

إن أسلوب التعليم برواية القصص، وحكاية الحكايات، وتدارس أخبار الماضين، هو من أجمل الأساليب التعليمية، وأكثرها جذباً وفعالية في نفوس المُتَعَلِّمين، والمستمعين، لأن انتباه ونشاط عقولهم يكون في أعلى مستواه، كما تكون قلوبهم مشتاقة متعلقة،

¹ ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، ج2/رقم1728

وأذهانهم مشحونة استعداداً لتلقي الخبر، والتمتع بما يحمله من أحداث مثيرة، ووقائع مدهشة، ودروس وعبر نافعة مفيدة.

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَنَ هَذَا الْأُسْلُوبُ الْجَمِيلُ فِي شَكْلِهِ، وَالْعَظِيمُ فِي مَضْمُونِهِ، فِي تَعْلِيمِهِ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَلَّا قُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثَبَّتْنَا بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

وَالنَّبِيُّ الْأَمْسِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ اسْتَعْدَمَ الْأُسْلُوبُ الْقَصَصِي فِي تَعْلِيمِهِ لِأَصْحَابِهِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَفِي تَقْدِيمِ الْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ لِلنَّاسِ، فَمِنْ حِصَّةِ عَلَى الرَّافَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْحَيَوَانِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ تَعْذِيهِ أَوْ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ، رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بَعْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبَعْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَفَقَرَهُ لَهُ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا. فَقَالَ "فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ"¹.

يُسْتَخْدَمُ الْأُسْلُوبُ الْقَصَصِي فِي التَّعْلِيمِ بِكَثْرَةٍ فِي الْمَوْسُئَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَلَاسِيَّمًا فِي تَعْلِيمِ طُلَّابِ الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، حَيْثُ يَقُومُ الْمُعَلِّمُ بِقِرَاءَةِ قِصَّةٍ أَوْ بِرَوَايَةِ حِكَايَةٍ عَلَى طُلَّابِهِ بِشَكْلِ يَوْمِي، ثُمَّ يَبْنِي جُزْءًا مِنَ الدَّرْسِ عَلَى أَحْدَاثٍ وَوَقَائِعِ الْقِصَّةِ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الطُّلَّابُ مِنْ عِبَرٍ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَدُرُوسٍ إِنْسَانِيَّةٍ، وَمَعْرِفَةٍ عِلْمِيَّةٍ كَانَتْ أَمْ أَدَبِيَّةٍ. إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ يُعْطَى الْمُعَلِّمُ الطُّلَّابَ وَاجِبَاتٍ مَرْثَلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْقِصَّةِ نَفْسَهَا أَوْ بِالتَّحْضِيرِ لِقِصَّةٍ أُخْرَى يَرُويهَا الطُّلَّابُ أَوْ حِكَايَةٍ يَحْكِيهَا الطُّلَّابُ فِيهَا عِبْرَةً أَخْلَاقِيَّةً أَوْ دَرْسًا فِي الْعِلْمِ

¹ صحيح البخاري، رقم 6009

أو المعرفة. بهذا الأسلوب يُقبلُ الطالب على التعلّم بحب ورغبة، وعقولهم وأذهانهم مفتحة مستعدة، فيحصل التعلّم العميق الفعّال لديهم.

ينبغي على المتعلّم العاقل أن يسعى جاهداً في استخدام هذا الأسلوب، وأن يستثمره في تعليم طلابه في كافّة المراحل التعليمية، ولاسيّما الطلاب الذين يعانون من بطء في اكتساب المعلومة أو ضعف في تثبيت الفهم أو الحفظ.

تاسعاً: أسلوب التعليم "بالتالي المدرس"

يُعَدُّ استخدام فكرة الطالب المدرس في تعليم الطلاب من أشهر وأبجح الأساليب المستخدمة في المؤسسات التعليمية البريطانية، حيث يُعطى الطالب دور المدرس ليقوم بشرح ما يريد أن يتعلّمه أمام زملائه المتعلّمين، فهذا تُعطى الفرصة للطالب المدرس أن يفهم ويثبت المعلومة التي يريد أن يتعلّمها من جهة ويعلمها لزملائه من جهة أخرى، كما يكتسب الطالب المدرس ثقة بنفسه ويعلمه، ويشجع زملاءه لأخذ هذا الدور في الدروس المقبلة.

إن هذا الأسلوب قد سبق واستعمله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مع أصحابه الكرام، فكان يفوض أحدهم بالجواب عما يُسأل، وذلك من أجل تعليمهم وتدريبهم على الإجابة في أمور العلم، فعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يُحدّث: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفون منها، فآلمستكثراً والمستقل، وإذا سبب وأصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فاقطع ثم وصل. فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأي أنت، والله لتدعني فأعبرها، فقال النبي ﷺ: "اعبرها". قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، خلأوه تنطف، فآلمستكثراً من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله،

ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَجُلٌ آخَرَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ ثُمَّ يُوصِلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ، فَأَخْبِرَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَيِّ أَتَيْتَ، أَصَبْتَ أَمْ أَخْطَأْتَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا". قَالَ: فَوَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتُحَدِّثَنِي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ، قَالَ: "لَا تُقْسِمُ"¹.

وحتى يستطيع المُعَلِّمُ العاقل أن يستخدم هذا الأسلوب بحق وعمق وفعالية، عليه أن يقوم بعدة أمور أذكر منها ما يلي:

أ. أن يوضح أهداف التعلم المقصودة من الموضوع الذي سيشرحه الطالب المدرس، بحيث يتعرف هو والطلاب المُتَعَلِّمِينَ فيما إذا كان هذا النشاط ناجحاً أم لا.

ب. أن يوضح لطلابه أن شرح الطالب المدرس لطلاب آخر يعمق فهم الطالب المدرس ويثبت حفظ المعلومة لديه.

ت. أن يوضح لهم أن فكرة الطالب المدرس ليس نتيجة فشلهم أو رسوبهم في أداء عملهم بل هو جزء لا يتجزأ من عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّمِ العميق لديهم.

ث. أن يزود الطالب المدرس بموارد تَعْلِيمِيَّةٍ مفيدة (نشرات، مراجع، مواقع على الإنترنت، الخ...) تساعد في تصميم واعداد إستراتيجيات تعليمه لزملائه الطلاب.

ج. أن يعطي الطالب المدرس درجات على عمله، فمثلاً يُنصَّبُ جزءٌ من درجة التقويم الكامل للمادة لهذا النوع من العمل.

ح. ينفذ هذا الأسلوب بإجراء نشاطات جماعية كاملة بحيث يمكن مناقشة وحل أية مشكلات قد يواجهها الطلاب المدرسين والطلاب المُتَعَلِّمِينَ.

¹ صحيح البخاري، رقم 7046

هذا الأسلوب — والله أعلم — شبه مفقود في معظم المؤسسات التعلُّيمية العربية، ولاسيما في المراحل التأسيسية من التعلُّيم، لذا ينبغي على المُعلِّم العاقل أن يأخذ المبادرة في تطبيقه ولو كان على نطاق مجموعة من الطلاب، وأن يدرس المسؤولون في وزارات التربية والتعلُّيم إمكانية فرض تطبيقه واعتباره جزءاً من المناهج التعلُّيمية في المراحل الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، لما فيه من فرص ممتازة للتعلُّم العميق الفعال، وتطوير شخصية الطالب، وكسبه مهارات اتصال مطلوبة على الصعيد الأكاديمي، والاجتماعي، وفي سوق العمل أيضاً.

عاشراً: أسلوب التعلُّيم باستخدام وسائل التعلُّيم الإيضاحية

يُستخدم هذا الأسلوب في حال وجد المُعلِّم صعوبة عند طلابه في فهم أو استيعاب معنًى ما أو مفهوماً ما، أو مشكلة ما أو مسألة، أو أمراً ما بحاجة لإيضاح، فيلجأ إلى استخدام وسائل تعلُّيمية من أجل الإيضاح والتوضيح ليسهل عمليّة التعلُّيم والتعلُّم. منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وهذا الأسلوب يُستخدم في عمليّة التعلُّيم والتعلُّم، فقد كان رسول الله ﷺ يستعين على توضيح بعض المعاني بالإشارة تارة، وبالرسم على الأرض والأنراب تارة أخرى، فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُّطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: "هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ — أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُّطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا"².

لا شك أنه حصل تطور وتنوع في تصميم واستخدام وسائل التعلُّيم الإيضاحية، ابتداءً بتصميم شفافيات الكاشف الضوئي المستخدمة في محاضرات المجموعات الكبيرة من

¹ لسان العرب (7/ 287) : وجمع الخطِّ خُطَطٌ.

² صحيح البخاري، رقم 6417

الطُّلَّاب، مروراً بإعداد 'نشرات' توضح فيها المادَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ بواسطة وسائل الطباعة الإلكترونية الَّتِي تجعلها جذابة المنظر، وانتهاءً باستخدام برنامج مايكروسوفت 'بوربوينت'، الذي أحدث ثورة في صناعة وسائل التَّعْلِيمِ الإيضاحية.

إضافة لذلك هناك من يستخدم الوسائل الإلكترونية كالبريد الإلكتروني، ومواقع الإنترنت التَّعْلِيمِيَّةِ، ووسائل الدعاية والهيرتاكست وغيرها من الوسائل من أجل توضيح وتسريع عَمَلِيَّةِ التَّعْلُمِ عند الطُّلَّاب.

لذا ينبغي على المُعَلِّمِ العاقل أن يدرك أهمية وسائل التَّعْلِيمِ الإيضاحية، وأن يحسن استخدامها واستثمارها في تحسين وتطوير العملية التَّعْلِيمِيَّةِ، وتسريع عَمَلِيَّةِ التَّعْلُمِ عند المُتَعَلِّمِينَ. كما ينبغي عليه أن يكون على اطلاع مستمر على كل جديد يظهر في مجال وسائل التَّعْلِيمِ الإيضاحية، وأن يتعلم مهارات كَيْفِيَّةِ استخدامها، ولاسيَّما مهارة استخدام الكمبيوتر والبرامج التَّعْلِيمِيَّةِ.

حادي عشر: أَسْلُوبُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ فِي التَّعْلِيمِ

إن التَّعْلِيمَ بالخير والدعوة إليه، والتَّعْلِيمَ بالشر والتحذير منه مبدآن من أهمِّ المبادئ الَّتِي جاء بها الإسلام، وأمر بتطبيقهما في كافَّةِ مجالات الحياة، ولاسيَّما في مجال التَّحْرِيبِ وَالتَّعْلِيمِ.

إن أساليب التَّعْلِيمِ والتَّحْرِيبِ، وأساليب التَّحْذِيرِ وَالتَّكْرِيبِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّعْلُمِ كثيرة جداً لا يمكن حصرها في مثل هذا الكتاب المتواضع، لكن لمن أراد أن يطلع على ما روي عن النَّبِيِّ الْمُعَلِّمِ ﷺ من أحاديث صحيحة في التَّعْلِيمِ وَالتَّحْرِيبِ، فليراجع كتاب "صحيح التَّعْلِيمِ وَالتَّحْرِيبِ" للشيخ مُحَمَّدُ نَاصِرُ الدِّينِ الألباني رحمه الله تعالى.

للاستئناس أذكر كيف كان رسول الله ﷺ يثني على صحابته وتلاميذه إذا أصابوا عندما يسألهم عن شيء من العلم من باب الكشف عن ذكائهم ومعرفتهم، فيجلب لهم السرور والطمأنينة، ويؤثر تقديره وثناؤه عليهم تأثيراً عظيماً فيهم، فعن أبي بن كعب، قال:

قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أُنْذِرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟". قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أُنْذِرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟". قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: "وَاللَّهِ لَيَهْنِكَ الْعِلْمُ يَا الْمُنْذِرُ"¹.

وتارة كان صَلَّى الله عليه وسلّم يحذّر من كتم العلم، وتارة كان ينفّر ويحذر من كان تعلمه لغیر الله، يريد منه مناظرة العلماء، والمباهاة أمام الأقران، فقد روى أبو داود عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ"².

وروى ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا لِيُتَمَارَوْا بِهِ السُّفَهَاءُ، وَلَا لِيُتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالْتَأَرْ النَّارَ"³.

بالرغم من تأكيد الشرع على أهمية استخدام أسلوبي الترغيب والترهيب في التربية والتعليم، نجد أن كثيراً من المسؤولين والإداريين والمُعَلِّمين في وزارات التربية والتعليم في معظم البلاد العربية لا يلقون لهما بالاً، فبعض المُعَلِّمين في المدارس يجهل أو يتجاهل أساليب الثناء والتقدير في تعاملهم مع الأداء المُتميّز لطلابهم، وبعضهم يغالي في استخدام أساليب الترهيب والتخويف مع المقصرين من الطُّلاب، وبعضهم لا يجرأ على معاقبة الكسالى أو المشاغبين من المُتعلِّمين.

لذا ينبغي على المُعَلِّم في المدارس الابتدائية أن يستخدم أسلوبي الترغيب والترهيب باعتدال وتوازن وعقلانية، فهو يتبع نظام ترغيب معين في تعامله مع طلابه المجتهدين من

¹ صحيح مسلم، رقم 810

² صحيح الترغيب والترهيب للآلباني، ج/1، رقم 120

³ صحيح الترغيب والترهيب للآلباني، ج/1، رقم 107

جهة، ونظام زجر معين مع طلابه المقصرين أو المشاغبين من جهة أخرى، وفيما يلي مثال عن نظام مكافأة وترغيب أفرحه لمن أراد أن يستخدمه مع طلابه في المدارس الابتدائية:

أ. إذا تميّز الطالب في جوابه لمسألة ما، أعطاه المعلم 'لصيقة' عليها صورة ما فلتكن نخلة أو فراشة أو غيرها.

ب. إذا حصل الطالب على أربعة لصيقات تقديرية على الأقل في الأسبوع، رفع المعلم اسمه إلى مدير المدرسة لكي يذكره في اجتماع المدرسة الأسبوعي الذي يعقد في قاعة كبيرة في يوم الجمعة من كل أسبوع.

ت. عندما يتكرر ذكر اسمه في ثلاث اجتماعات أسبوعية، يُعطى هدية رمزية (فليكن قصة، دفتر، أقلام ... الخ)

ث. عندما يتكرر ذكر اسمه في تسعة اجتماعات أسبوعية كطالب متميّز، يقدم له مدير المدرسة "قميص المدرسة المخصّص للمتميّزين" عليه شعار المدرسة تقديراً لمثابرته في اجتهاده.

ج. عندما يصبح عدد الأسابيع المميّزة ثمانية عشر أسبوعاً، يقدم له مدير المدرسة 'وسام' عليه شعار المدرسة تقديراً لمثابرته في اجتهاده.

وما يلي مثال عن نظام عقوبات يمكن استخدامه مع طلاب المدارس الابتدائية:

أ. إذا أساء الطالب لأحد من زملائه، أو أساء التصرف في الفصل، أو أحدث ضحيجاً، أو أكثر من الحركة والثرثرة، يقرم المدرس تنبيهه، موضحاً له بأن هذا هو إنذاره الشفوي الأول.

ب. عندما يكرر الطالب إساءته ومشاغبته، يضع المدرس اسمه في قائمة المسيئين المشاغبين، ويكون ذلك هو تنبيهه الثاني.

ت. أما المرحلة الثالثة من العقوبة، تكون بإخراج الطالب من الصف، وإرساله إلى غرفة صف ثانية في المدرسة حتى يشعر بالخزي والحرج أمام زملائه، ويُعطى واجباً دراسياً لعله.

ث. عند عودة الطالب إلى فصله، وتكرار مخالفته لتوجيهات المدرس، يُؤخذ إلى مدير المدرسة، والذي يقوم بدوره بتنبيه الطالب، وإيضاح مساوئ المشاغبة والقوضى التي يحدثها عليه وعلى زملائه في الفصل وعلى مستقبله الدراسي بشكّل عام.

ج. يقوم المدرس بإعلام ولي أمر الطالب بكل ما جرى خلال اليوم الدراسي، ويوضح له وضع ولده السلوكي والدراسي، حتى تكون عملية حل مشكلة الطالب السلوكية وتوجيهه للصواب عملية مشتركة ومُتكاملة بين المدرسة وأهل الطالب، يسعى بها الطرفان للتعاون لحلها بأقصى وقت ممكن حتى تكون فعالة ومجدية.

إن ما اقترحته أعلاه بخصوص اتباع نظام في الترغيب والترهيب في التعليم هو من باب الاستثناس فقط، لأن تطبيق أي نظام مكافآت أو عقوبات يتطلب من المُعَلِّم العربي أن يأخذ بعين الاعتبار الثقافات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الذي يعيش فيه وعاداتهم وتقاليدهم في كيفية تربية أولادهم ومدى تقبل هذا المجتمع لهذا النظام. كما ينبغي على المُعَلِّم أن يدرك أنه يجب على نظام المكافآت والعقوبات أن يتناسب مع جنس الطُّلاب الذكر غير الأنثى. ومع أعمارهم، ومراحل تعليمهم، فما يُحفِّز ويزجر طلاب المرحلة الإعدادية غير ما يُحفِّز ويزجر طلاب المرحلة الثانوية، لكل منهم أساليب تختلف في عملية الترغيب والترهيب.

ثاني عشر: أَسْلُوبُ التَّعْلِيمِ بِالْكِتَابَةِ وَتَدْوِينِ الْمُلَاحَظَاتِ

إن مهارة الكتابة علامة مُبَيَّنَّة بين الأُمِّيِّ والمُتَعَلِّمِ، وبين الجاهل والعالم، والكتابة وسيلة لتقييد العلم والمعرفة، وأداة لتدوين وتوثيق الديون والعقود والمعاهدات بين الناس، ولأهميتها وعظمتها شاعها أمر الله سبحانه وتعالى عباده بكتابة الدين حفظاً له، ولعدم دخول الشك فيه، وضماناً لحقوق العباد، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَسْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بِيَمِينِكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَمَرَّبهُ وَلْيَحْضَرْهُ مِنْهُ شَهِيدًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَعِيًّا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ مِنْهُ فَلْيَمْلِكْ وَلْيَكْبُلْ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ نَرِضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ أُنْصَلِحْهُمَا قَدْ كَرِهَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَعْيُنُ وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا سَأَلْتُمُوهُمَا أَنْ يَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ فَلْيَكْتُبْ أَقْصَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنَى آتَا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: 282].

وفي أهمية استخدام الكتابة في تسجيل وحفظ العلم، روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: قلت: "يا رسول الله أقيّد العلم؟" قال: "نعم". قلت: "وما تقييده؟" قال: "الكتاب"². وعن عبد الله بن عمرو، قال: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَتَهْتِكُ فَرِيضٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ (تَسْمَعُهُ) وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْشُرُ بِتَكْلَمٍ فِي

¹ لسان العرب (3/ 372) قَدِّمَ الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ ضَبْطَهُ وَكَذَلِكَ قَدِّمَ الْكِتَابَ بِالشَّكْلِ شَكْلَهُ وَكِلَاهُمَا عَلَى الْمَثَلِ . والكتابة والكتاب كلاهما مصدر، وهما بمعنى واستعمال واحد .

² تقييد العلم، للاحتفاظ الخطيب البغدادي، رقم 113. في (السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة 1-9 (5/ 25))؛ مثله يستشهد به ويرتقي الحديث إلى مرتبة الصحيح لغيره.

الْعُضْبَ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكَتْ عَنِ الْكِتَابِ¹، فَذَكَرْتُ (ذَلِكَ) لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ بِأَصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ، فَقَالَ: "اَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ"².

وروي عن وهب بن منبه، عن أخيه، قال: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: "مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَانْهَكَ أَنْ يَكْتُبَ وَلَا أَكْتُبُ"³.

لذا يُعَدُّ استخدام أساليب الكتابة وتدوين الملاحظات في التعليم من أقوى الأساليب التعليمية التي تساعد الطالب في كسبه للمعلومة المطلوبة، وفهمها، وحفظها، وتثبيتها في مخزن علمه، ليستعملها متى شاء، وفي أي مكان شاء.

قال يحيى بن خالد⁴: "النَّاسُ يَكْتُبُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ، وَيَحْفَظُونَ أَحْسَنَ مَا يَكْتُبُونَ، وَيَتَحَدَّثُونَ بِأَحْسَنَ مَا يَحْفَظُونَ"⁵.

¹ لسان العرب (1/ 698) في الحديث لا تَكْتُبُوا عني غير القرآن قال ابن الأثير وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ أَنَّهُ فِي كِتَابَةِ الْحَدِيثِ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبِتَ لِفَنِّهِ فِيهَا أَنَّ الْإِنِّنَ فِي الْكِتَابَةِ نَاسِخٌ لِلْمَنْعِ مِنْهَا بِالْحَدِيثِ الثَّابِتِ وَبِلِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهَا .

² سنن أبي داود، رقم 3646

³ صحيح البخاري، رقم 113

⁴ يحيى بن خالد بن برمك (ت 190)، الوزير أبو الفضل: وهو مؤدب الرشيد العباسي ومُعلِّمه ومربيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعو: يا أبي ! لما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، واشتهر بحسن سياسته. واستمر إلى أن نكح الرشيد البرامكة فسجنه في ' الرقة ' إلى أن مات، فقال للرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. ومن كلام يحيى لابنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون، ولحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون. ويتضح من خلال هذا الهامش صلة خالد بن يحيى ببرمكي بالعملية التربوية والتعليمية. ولو تتبع كلامه متتبع لوجد لديه الكثير من شؤون التعليم والتربية . الأعلام

للزركلي (144 / 8)

⁵ كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص118

فعلى المُعلِّم العاقل أن يحرص على استخدام هذا الأسلوب في تعليم طلابه في كافة مراحلهم التَّعليميَّة، كل حسب مستواه التَّعليمي، وعليه أن يختار أفضل الطرائق والإستراتيجيات في أنسب الأوقات والأماكن.

كغيرها من الأساليب التَّعليميَّة، تتأثر بخلفية المُعلِّم العلميَّة، وخبرته العمليَّة، والمهارات التَّعليميَّة الَّتِي يتقنها، فمن المُعلِّمين في التَّعليم الأساسي من يطلب من طلابه:

- أ. أن يحل مسألة رياضيَّة أو معادلة فيزيائيَّة أو كيميائيَّة كتابة.
- ب. أن ينسخ آيات من القرآن الكريم، أو نصاً تاريخيَّاً أو جغرافيَّاً، أو غيرها ليتعلَّمه.
- ت. أن يملي عليهم نصاً مهماً ليتأكَّد من جودَة كتابتهم، ومدى حفظهم للمعلومة.
- ث. وغيرها من الطرائق والإستراتيجيات.

ومن المُعلِّمين، لاسيما في التَّعليم الجامعي، من يستخدم أسلوب الكتابة في تعليم طلابه كما يلي:

- أ. يطلب منهم تدوين أحسن ما يسمعون في محاضراته، وتلخيصه على شكل قائمة من النقاط المهمَّة.
- ب. يطلب منهم قراءة قائمة من العناوين المتعلقة بإحدى مقررات المنهاج وتدوين أحسنها إما على شكل نقاط مهمَّة أو على شكل نص شامل كامل.
- ت. يطلب منهم كتابة بحث عن موضوع، له علاقة بأحد مقررات المنهاج ليتأكَّد من جودَة تعليمه وجودَة تعلُّم طلابه منه.
- ث. وغيرها من الطرائق والإستراتيجيات .

إن أساليب التَّعليم بالكتابة والتدوين كثيرة، فينبغي على المُعلِّم العاقل أن يختار أفضلها وأقربها لحاجات المُتعلِّمين، حتَّى تكون فعَّالة، ويحني الطُّلاب ثمارها الطيبة.

ثالث عشر: أساليب تعلّيمية أخرى

إضافة إلى ماذكرته من أساليب تعلّيمية يمكن أن يستخدمها المُعلِّم حسب الموقف التعلّيمي، يوجد مجموعة أخرى من الأساليب التي تعتبر شخصية في طبيعتها، ومُميّزة للمُعلِّم في شكلها، فمن المُعلِّمين من هو معروف انه دائماً ينتهز الفرص والمناسبات في تعليمه، ومنهم من يستخدم أسلُوب الامتحانات اليومية، أو الأسبوعية أو حتى الشهرية في تعليمه حتى يتأكّد من جَوْدَة تعلم طلابه، ومنهم من يتبع أساليب الترفيه والتسلية لإيصال المعلومات، وغيرها من الأساليب الكثيرة التي لا يمكن حصره هنا.

رابع عشر: أسلُوب التعلّيم "الانعكاسي" البريطاني

لا شك أن هناك أساليب تعلّيمية أخرى مستخدمة في المؤسسات التعلّيمية الغربيّة، ولاسيّما البريطانية منها، تتناسب مع عقلية وثقافة المُعلِّم الغربيّ من جهة، وعقلية وثقافة المُتعلِّم الغربيّ من جهة أخرى. للفائدة أذكر منهج "التعلّيم الانعكاسي" الذي نادى به كلٌّ من ريتشاردس ولوكهارت في كتابهما "منهج التعلّيم الانعكاسي"¹. [لقد سبق وذكرت هذا المنهج في كتابي "مهارات الإتصال".²]

يقوم "منهج التعلّيم الانعكاسي" على مبدأ "إعادة النّظر" في كلّ عملٍ صغيرٍ أم كبيرٍ يقوم به المُعلِّم - سواء كان له علاقة بالطّالب أم بالمادّة العلميّة أم مع نفسه بصفته مدرّساً - وذلك بطرح أسئلة على نفسه تجعله ينظر بعين ناقدة لأساليب تدريسه في الفصل وطرق تعامله مع الطّلاب ومع ذاته بصفته مدرّساً.

فمبدأ "التّحقيق المستمر مع الذات" يُساعد المُعلِّم على تحسين وتطوير أساليب وطرق تدريسه، ويُشجّع على تغيير مبادئه ومعتقداته التّقليديّة في عمليّتي التعلّيم والتّعلُّم، ويجعله إنساناً ذا جَوْدَة في تفكيره وآرائه، وفي عمله وتعامله مع الآخرين.

¹ (Richards & Lockhart 1994)

² مهارات الإتصال وأثرها في حياتنا العلميّة والعملية، د. أحمد مصطفى حليم، ص 26-28

للتوضيح أذكر كيف يستطيع المُعلِّم أن يطبّق طريقة "الجورنال" - إحدى طرائق منهج التعلّم الانعكاسي - في عمله بصفته مدرّساً، فطريقة "الجورنال" عبارة عن "سجل" يسجّل المُعلِّم فيه بعد انتهاء الدّرس كلّ ما حصل من أحداثٍ وأفكارٍ وتفاعليّ - سواء كانت صغيرة أم كبيرة - أثناء إعطاء درسه، بعد ذلك ينظر فيما سجّله بعين ناقدة محلّلة مستفسرة مُغيّرة. فمن الأسئلة التي يمكن طرحها على نفسه في تحليله ونقده لما كتبه في سجّله ما يلي:

أسئلة تتعلّق بما يحدث أثناء إعطاء الدّرس:

أ. أسئلة تتعلّق بالتدريس:

1. ماذا أراد أن يدرّس؟
2. هل استطاع أن يحقق أهدافه؟
3. ما هي المادّة التعلّميّة التي استخدمها؟ وما هي فعّاليّتها؟
4. ما هي الأساليب التي استخدمها؟
5. ما هي الترتيبات التي أجراها داخل الفصل الدّراسي؟
6. هل ساد الدّرس دور المُعلِّم فقط؟
7. ما نوع التّفاعل بين المدرّس والطّالب؟
8. هل حصل أي شيء فكا هي أو غريب أثناء الدّرس؟
9. هل واجه أيّة مشاكل تتعلّق بالدّرس؟
10. هل فعل شيئاً مخالفاً للعادة؟
11. ما هي نوعيّة القرارات التي استخدمها؟
12. هل ابتعد عن خطّة درسه؟ إذا كان الجواب نعم .. لماذا فعل ذلك؟ وهل أحدث هذا التّغيير للخطّة أي تحسّن؟
13. ما هو الإنجاز الرئيسيّ للدّرس؟

14. أية أجزاء من الدرس كانت أكثر نجاحاً؟
15. أية أجزاء من الدرس كانت أقل نجاحاً؟
16. هل سيدرس المعلم الدرس بطريقة مختلفة إذا أراد تدريسه مرة ثانية؟
17. هل انعكست مبادئه ومعتقداته بالتعليم والتعلم في الدرس؟
18. هل اكتشف شيئاً جديداً في تدريسه؟
19. ما هي التغيرات التي يمكن أن يحدثها في تدريسه؟
20. إلى آخر الأسئلة المناسبة ذات العلاقة.

ب . أسئلة تتعلق بالطلاب:

1. هل درس كافة طلابه اليوم؟
2. هل ساهم الطلاب في الدرس بفعالية؟
3. كيف استجاب لاحتياجات الطلاب المختلفة؟
4. هل شعر الطلاب بالتحمُّد الفكريّ خلال الدرس؟
5. ماذا تعلم الطلاب في الدرس من جديد؟
6. ما هي جوانب الدرس التي أحبها الطلاب كثيراً؟
7. ما هي جوانب الدرس التي لم يستجيب لها الطلاب بشكلٍ جيّد؟
8. هل ارتفع مستوى الطلاب العلمي؟
9. إلى آخر الأسئلة ذات العلاقة بالطلاب.

ت. أسئلة تتعلق بالمدرس:

1. ما هي مصدر أفكاره عن الدرس؟
2. أين هو من التطوير المهنيّ لذاته؟
3. كيف يتطور بصفته مدرساً لمادته العلمية؟

4. ما هي نقاط قوّته بصفته مدرساً لمادّته العلميّة؟
5. ما هي العوائق الّتي تقف في وجهه بصفته مدرساً؟
6. هل هناك تناقض في تدريسه لمادّته العلميّة؟
7. كيف يمكن أن يُحسّن ويطوّر من تدريسه؟
8. كيف يمكن أن يساعد طلابه؟
9. هل هو راضٍ عن تدريسه؟
10. إلى آخره من الأسئلة الّتي تتعلّق بالمدرّس.

خامس عشر: أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة

أهميّة تعليم وتعلّم لغة أجنبية

لقد بعث الله سبحانه وتعالى محمّداً رسول الله ﷺ، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ليدعو النّاس أجمعين إلى عباد الله الأحّد، الواحد الصمد، لاشريك له ولا ولد، ولنشر دينه الإسلام بين كافّة النّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لذلك كان تعليم وتعلّم اللغات الأجنبيةّ أمر مطلوب، وحاجة ماسة لنشر الدّين الإسلام بين غير الناطقين باللغة العربيّة .

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَسْمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي يَأْمُرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَلَوَاتِكُمْ إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

حتى تتم عملية تبليغ الدعوة والتواصل بين رسول الله ﷺ وبين زعماء الأقوام الماضين، كان لابد من وجود مترجمين له يقومون بعملية الترجمة، فوجد عنده ﷺ من أصحابه من كان يعرف اللغات الرومية والفارسية والحشبية، ولكن لم يكن هناك من يعرف لغة اليهود التي كان اليهود يستخدمونها في عصره، حتى أمر صلوات الله وسلامه الصحابي الجليل، والحدق الذكي، زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلمها ويتقنها قراءة وكتابة، ويستغني به عن المترجمين من اليهود في ذلك.

فَعَنْ خَارِجَةٍ - يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودٍ، وَقَالَ: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي". فَعَلَّمْتُهُ، فَلَمْ يَمُرْ بِي إِلَّا نِصْفَ شَهْرٍ حَتَّى خَلَقْتُهُ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ، وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كَتَبَ إِلَيْهِ¹.

لا شك أن تعلم لغة أجنبية يفتح أبواباً أخرى لمعرفة علوم وثقافات الأقوام غير الناطقين باللغة العربية، فيها تعم الفائدة، وينتشر العلم النافع، وتعاون الأمم فيما بينهم لما فيه الخير للجميع في كافة مجالات الحياة.

أهمية تعليم وتعلم اللغة الإنجليزية

اللغات الأجنبية كثيرة ومتعددة، ومختلفة الوظائف والخصائص، كل منها يلعب دوره في بناء ثقافات وحضارات الشعوب على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ومن أهم هذه اللغات اللغة الإنجليزية، التي تعتبر اللغة الأولى لأكثر من خمسمائة مليون إنسان يعيشون في بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، واستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب أفريقيا، واللغة الثانية لمعظم سكان أهل الأرض.

¹ سنن أبي داود، رقم 3645. تحقيق الألباني: حسن صحيح

لا تأتي أهمية تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزية من كثرة عدد المتكلمين بها فقط، وإنما من المكانة العالمية التي تحتلها، فهي لغة السياسة والسياسيين في المحافل الدبلوماسية، ولغة العلوم والعلماء في المؤتمرات العلمية، ولغة التجارة والتجار في الصفقات التجارية والعقود المالية، ولغة التكنولوجيا والمعلوماتية والعاملين فيها، ولغة العلم والمُعلِّمين في معظم المؤسسات التَّعليمِيَّة في العالم، ولغة الاتِّصال بين معظم النَّاس المستخدمين للبريد الإلكتروني ونظام الإنترنت، وغيرها كثير - والله أعلم.

لذلك تسعى معظم المؤسسات التَّعليمِيَّة في العالم لتعليمها للطلاب ابتداءً من المرحلة الابتدائية وانتهاءً بالمرحلة الجامعية من جهة، ويعمل معظم الطُّلاب جاهدين وباذلين قصارى جهدهم لتعلمها ولإتقانها في مهاراتها الأربع: الاستماع، القراءة، الكتابة، التَّكَلُّم من جهة أخرى، لما فيها من فوائد عظيمة في دراستهم الأكاديمية، وحياتهم العلمية والعملية. لو سألنا عينة من الطُّلاب عن سبب تعلمهم للغة الإنجليزية، لانحصرت أجوبتهم بالأسباب التالية - والله أعلم:

1. نعتقد أن تعلم اللغة الإنجليزية مفيدة في الحصول على عمل جيد أو وظيفة مرموقة.
2. سيساعدنا تعلمها في فهم الناطقين باللغة الإنجليزية وطريقة حياتهم.
3. نحتاج اللغة الإنجليزية لننال احترام وتقدير الآخرين.
4. تساعدنا معرفة اللغة الإنجليزية في مقابلة أناس أجانب والتعرف والتحدُّث معهم.
5. نحتاج اللغة الإنجليزية في عملنا أو وظيفتنا.
6. يمكننا من التَّفكير والتصرف كما يفكر ويتصرف الناطقون باللغة الإنجليزية.

وللفائدة أذكر رأي فضيلة الشَّيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين رحمه الله في تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزية، فقال: "رأينا في تعلُّم اللغة الإنجليزية لها وسيلة لاشك، وتكون وسيلة طيبة، إذا كانت لأهداف طيبة، وتكون رديئة إذا كانت لأهداف رديئة، لكن الشيء الذي يجب

اجتنابه أن تُتَّخَذَ بديلاً عن اللغة العربية، فإن هذا لا يجوز وقد سمعنا بعض السفهاء يتكلم بها بدلا من اللغة العربية، حتى إن بعض السفهاء المغرضين الذين اعتبرهم¹ أذناً لغيرهم، كانوا يعلمون أولادهم تحية غير المسلمين، يعلمونهم أن يقولوا: "باي باي" عند الوداع وما أشبه ذلك، لأن استبدال اللغة العربية التي هي لغة القرآن وأشرف اللغات بهذه اللغة، هذا محرم، أما استعماله للدعوة فانه لاشك أن يكون واجباً أحياناً².

أساليب تعليم اللغة الإنجليزية

إن اللغة الإنجليزية ليست كغيرها من المَوَادِّ الدِّرَاسِيَّة من حيث عمليتي التَّعْلِيم والتَّعَلُّم، فهي تميَّز عن غيرها بخصائص لغوية مُعَيَّنَة، وخصال ثقافيَّة مُميَّزة، وعلاقات اجتماعيَّة محافظة لضرورة لحصرها هنا، لذلك نجد مُعَلِّمي مادة اللغة الإنجليزيَّة يختلفون في أساليب تعليمهم للطلاب غير الناطقين باللغة الإنجليزيَّة، نذكر منها _ وباختصار شديد _ مايلي³:

1- أُسْلُوب استخدام القواعد والترجمة The Grammar-Translation Method

ظهر هذا الأُسْلُوب في القرن التاسع عشر، وانتشر استخدامه في الأمريكين وأوروبا بكثافة بين عام 1840 وعام 1940، أي حوالي 100 عام. يميَّز هذا الأُسْلُوب بالخصائص التالية:

¹ جربنا في هذا الكتاب على استعمال الألفصح فيما علمنا، والأفصح ما هنا أن نقول : (نعذّم) لكن تركنا الألفصح، للحفاظ على أصل النص. واحتراماً لرأي الشيخ رحمه الله تعالى، فقد كان علامة بالعربية. قلل لها وجهاً عنده، لا نعلمه.

² كتاب العلم لأين العثيمين، ص101

³ اعتمدت في شرحي للموجز لأساليب تعليم اللغة الإنجليزية على كتاب Approaches and Methods in Language Teaching للكاتبين الإنجليزيين جاك ريتشرد وبيدور رودجرز، طبعة جامعة كامبردج 1986

- أ. يهتمّ مستخدمو أُسْلُوبِ القواعد والترجمة من مُعَلِّمي اللغة الإنجليزية في شرح وتحليل قواعد اللغة لتطبيقها في ترجمة بعض الجمل من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس.
- ب. ويُعدُّ مستخدمو هذا الأُسْلُوب أن الجملة هي الوحدة الأساسية في التَّعْلِيمِ، ويصوغون الواجبات الدَّرَاسِيَّةَ على هذا الأساس.
- ت. كما انهم يهتمّون في استخدام مهارتي القراءة والكتابة، ويهملون مهارتي التَّكَلُّمِ والاستماع.
- ث. يستخدمون اللغة العربية في تعليمهم للغة الإنجليزية، ولاسيّما في شرح مفردات أو لقيام بمقارنة بين اللغتين.
- ج. يؤكّدون على أهمية الدِّقَّة في الترجمة من حيث استخدام المفردات والقواعد الصحيحة.

2- أُسْلُوبُ التَّعْلِيمِ 'المباشر' The Direct Method

بدأ استخدام هذا الأُسْلُوب في نهاية القرن التاسع عشر وانتهت شعبية استخدامه بين المدرسين في العشرينيات من القرن العشرين، يقوم استخدام هذا الأُسْلُوب على المبادئ التالية:

- أ. استخدام اللغة الإنجليزية فقط في عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ داخل الصف الدَّرَاسِيّ.
- ب. تدريس المفردات والجمل المستخدمة يومياً.
- ت. تدريس مهارة التَّكَلُّمِ من خلال تمارين تقوم على تبادل الأسئلة والأجوبة بين المدرسين والطلّاب في مجموعات صغيرة.
- ث. تدريس الكلام والاستماع من خلال تمارين اختبار الفهم.
- ج. التأكيد على أهمية النطق الصحيح واستخدام القواعد الصحيحة.

3- أُسْلُوبُ التَّعْلِيمِ 'الشَّفَوِي' The Oral Approach

- ومنهم من كان يستخدم أُسْلُوبَ التَّعْلِيمِ 'الشَّفَوِي' في تعليمه لطلابه. هذا الأُسْلُوبُ ظهر في الخمسينيات من القرن العشرين، يقوم استخدام هذا الأُسْلُوبُ على المبادئ التالية:
- أ. استخدام مهارة التَّكَلُّمِ في تدريس اللغة الإنجليزية منذ البدء، بحيث تدرس المادة التَّعْلِيمِيَّة شفويًّا قبل أن تعرض بشكْلِها المكتوب.
 - ب. استخدام اللغة الإنجليزية فقط في عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ داخل الصف الدِّرَاسِيّ.
 - ت. تُطرح وتُمارَس النقاط اللغوية الجديدة حسب مقامها العمليّ بلغة الأم.
 - ث. تُختار المفردات وتُدرس القواعد بتدرج، بحيث يكون الأَبسط والأسهل قبل الأَصعب والأكثر تعقيداً.
 - ج. تُدرس مهارتي القراءة والكتابة فقط عندما يتكون لدى الطُّلَّاب أساس كافٍ من مخزون المفردات والقواعد.
 - ح. تدريس الكلام والاستماع من خلال تمارين اختبار الفهم.

4- أُسْلُوبُ التَّعْلِيمِ 'السمعي اللغوي' The Audiolingual Method

- ظهر هذا الأُسْلُوبُ في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين نتيجة الاهتمام الملحوظ الذي ناله تعليم اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية. يميّز هذا الأُسْلُوبُ بالخصائص التالية:
- أ. يقوم مبدأ هذا الأُسْلُوبُ على نظرية اللغويات التركيبية 'Structural Linguistics'، وكردة فعل لأُسْلُوبِ التَّعْلِيمِ بالقواعد اللغوية التَّقْلِيدِيَّة.
 - ب. يؤمن مستخدمو هذا الأُسْلُوبُ بأن الكلام أهمّ من الكتابة لأن الإنسان أولاً ما يتكلّم ثم يكتسب الكتابة فيما بعد، لذلك يهتمون بتعليم اللغة عن طريق الكلام قبل استخدام الكتابة في التَّعْلِيمِ.

- ت. يستخدمون أُسْلُوبَ المشاهدة والمقارنة في تعليمهم لأنه يُسهِّلُ عل المُتَعَلِّمِ عَمَلِيَّةَ التَّغْلِيْذِ والتعميم في استخدامه للغة. شرح القواعد يأتي فيما بعد، وتعلمها يحصل بشكلٍ استقرائي، وليس بشكلٍ استنتاجي.
- ث. يَعْلَمُونَ معاني الكلمات اللغوية الَّتِي يستخدمها الناطق الإنجليزي المواطن في مقام لغوي وثَّقَافِيٍّ وليس بشكلٍ منعزل، حتى يحصل تعلمها كما يتكلمها ويستخدمها أهلها.
- ج. استخدام اللغة الإنجليزية بقدر الإمكان في عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ داخل الصف الدِّرَاسِيّ، وتَجَنَّبُ استخدام الترجمة أو اللغة العربيَّة.
- ح. يَدْرُسُ المُعَلِّمُ المهارات الأربعة بالترتيب التالي: الاستماع، التَّكَلُّمُ، القراءة ثم الكتابة.
- خ. يَعْلَمُ اللغة بتمثيل النقاط اللغوية الَّتِي يريد الطُّلَّابُ تعلُّمها.
- د. يدرس مهارة التَّكَلُّمِ بطريقة الحوار.
- ذ. يدرس استعمال التراكيب اللغوية من خلال ممارسة نموذجية أمام الطُّلَّابِ.
- ر. يرشد الطُّلَّابِ في عَمَلِيَّةِ اختيار وتعلم المفردات اللغوية.
- ز. يَبْنِي للطلاب علاقة الكلمات بالمعنى في اللغة الإنجليزية.
- س. يكافئ محاولات الطالب بحيث يُعزِّزُ لديه عَمَلِيَّةُ التَّعْلُمِ.
- ش. يدرس القصة القصيرة وغيرها من الأعمال الأدبيَّة.
- ص. يدخل العنصر الثَّقَافِيَّ للغة في تعليمه للطلاب.
- ض. يوضح قواعد تدريسه للغة الإنجليزية من أول يوم في تعليمه للطلاب.

5- أُسْلُوبُ التَّعْلِيمِ "الصريح الوظيفي" Communicative Approach

ظهر هذا الأُسْلُوبُ في أوروبا الغربيَّة ولاسيَّما في المملكة المتحدة في بداية السبعينيات من القرن العشرين، وانتشر استخدامه بين معلِّمي وكتاب مقررات وبرامج تعليم اللغة

الإنجليزية، ولاقى قبولاً جيداً لدى متعلّمي اللغة في معظم بلدان العالم، وكغيره من الأساليب، يتميز هذا الأسلوب من التعليم بالخصائص التالية:

أ. يُعدّ "المعنى" أهمّ عنصر في تعليم وتعلّم اللغة الإنجليزية.
ب. في حال استخدام "الحوار" في التعليم، يكون التركيز في التعليم بشكل أساسي على تعليم الوظائف اللغوية التي تقوم بعملية الاتصال، وليس على حفظ نص الحوار.

ت. يؤمن مستخدمي هذا الأسلوب بأن الغرض من تعلم اللغة هو القيام بعملية "الاتصال الفعال" مع الآخرين، لذلك يشجعون المتعلّمين أن يمارسوا عملية الاتصال من خلال استخدام مهارات الاتصال: الاستماع، والقراءة، والكتابة، والتكلّم، منذ ابتدائهم لتعلّم اللغة.

ث. يؤكدون على أهمية الطلاقة في التكلّم واستخدام اللغة المستعملة، ولا يحكمون على دقة صحة استعمالها من الناحية القواعدية في شكلها المجرد، بل في مقام وبجال استخدامها الفعلي.

ج. يعلّمون الطّلاب كيف يستخدمون اللغة إما من خلال استخدامها على شكل حوار بين طالبين أو عمل في مجموعات صغيرة أو من خلال استخدام مهارات الكتابة لديهم.

ح. عند تعليم قواعد اللغة، يعلّمونها من خلال استخدام الوظائف اللغوية، كوظيفة "التعميم، والمشابة، والمقارنة، والوصف" وغيرها من الوظائف التي تساعد في عملية الاتصال من خلال مهارات الاتصال الأربعة: الاستماع، والقراءة، والكتابة، والتكلّم.

خ. يقوم المُعَلِّمُ بدور المشارك الميسر في عرضه للدرس وطرحه للأسئلة بحيث يجعل المُتَعَلِّمِينَ يشاركون ويمارسون اللغة ويتعلمونها كما يستعملها الإنسان الإنجليزي في بلده.

إضافة لما ذكرناه أعلاه، هناك من المُعَلِّمِينَ من يستخدم أُسْلُوبَ "الاستجابة الفعلية الكُلِّيَّة" 'Total Physical Response' في تعليمهم، حيث يستخدمون الكلمة ثم الفعل، حيث يعطي المُعَلِّمُ الأمر شفويًا والمُتَعَلِّمُ يفعل الأمر عمليًا، كقوله: "الأسنان: المس أسنانك، أر أسنانك لأحمد، أحمد يشير إلى أسنان محمد".

ومنهم من يستخدم أُسْلُوبَ التَّعْلِيمِ بالطَّرِيقَةِ الصامتة "The Silent Way"، والتي بصمت المُعَلِّمُ فيها قدر ما يستطيع، ويشجع المُتَعَلِّمُ أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ قدر ما يستطيع، على عكس المُعَلِّمِ الثرثارا

ومنهم من يستخدم أُسْلُوبَ التَّعْلِيمِ الفطريّ Approach The Natural الذي يقوم على عرض المُتَعَلِّمِ للعناصر اللغوية أكثر من ممارستها، فبقدر ما يسمع، ويقرأ، ويفهم، يتعلم اللغة، فهو يتعلَّمُها كالطفل الذي يتعلم اللغة بدون تحليل قواعدها أو ممارسة تمارين عليها.

يتبين مما ذكرناه من أساليب لتعليم اللغة الإنجليزية انها متعددة ومختلفة، ظهرت معظمها في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة في أوروبا الغربيَّة، وقد جاءت نتيجة تجارب عمليَّة كثيرة، وتطورت خلال فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً.

والجدير بالذكر أن ثورة تكنولوجيا المعلومات المعاصرة، وانتشار نظام الإنترنت في معظم أنحاء العالم، لهما تأثيرهما على عمليَّة تعليم اللغة الإنجليزية، فمن المُعَلِّمِينَ من يستخدم مواقع لتعليم اللغة الإنجليزية في تدريسه، ومنهم من يستخدم برنامج 'الباور بونت' في عرضه لمخطط الدرس، وغيرها كثير، والله أعلم.

فلا يوجد شيء أو حالة أو طريقة يقال معها الأسلوب الأفضل لتعليم اللغة الإنجليزية. لأن هذا يعتمد على عوامل كثيرة تتعلق بالمتعلم العربي الإسلامي وثقافته من جهة، وبالطالب العربيّ واندفاعيته، ومادة اللغة الإنجليزية وطبيعتها، والمؤسسة التعلّيمية وأولوياتها من جهة أخرى.

لذا ينبغي على المُعَلِّم العاقل أن يستخدم الأسلوب الذي يتناسب مع عقلية واندفاعية طلابه، وأن لا يتعارض أسلُوبه مع متطلبات منهاج اللغة الإنجليزية، وأولويات المؤسسة التعلّيمية، مُعتدلاً بأهمية التركيز في تعليمه على مهارات الاتصال الأربعة: الاستماع، القراءة، الكتابة، التكلّم، بحيث يُمكنُ الطُّلاب من استخدام مهارات اللغة الأربعة بفعالية ولأغراض متخصصة ومتعدّدة.

خلاصة

لو اجتهد كل مُعَلِّم - سواء كان مُعلِّماً في المدرسة أو الكُليّة أو الجامعة بأن يعتقد بعقيدة التّوحيّد، عقيدة أهل السُنّة والجماعة، ويتحلّى بمكارم الأخلاق، ويتسم بشيم العقلاء، ويُتّصف بخصال المُعَلِّم العاقل الناجح، ويعمل مجديّة وإخلاص في تطبيقه لأفضل أساليب التعلّيم في تعليمه لطلابه، لحصلنا على جيلٍ من المُتعلّمين يؤمن بالله وبرسوله ﷺ، ويوقر الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ويحب التّابعين وصلحاء السلف لِمَا أبقوه لنا من علم نافع، ويتميّز بعمق وجوّد في تفكيره، ويتمتع بغزارة ووفرة علمه ومعرفته، ويتقن مهارات تساعده في أدائه وقدرته على الفهم والاستيعاب والتّخيل والتّحليل والنّقد والتّطوير الذاتي لمهاراته وقدراته.

الفصل الثالث

الطالبُ ودوره في العملية التَّعليمية

الفصل الثالث

الطالب ودوره في العملية التعليمية

الواقع الحالي

عندما يُذكر العلم أو تُذكر عمليتي التعليم والتعلم في أية مادة من المواد التعليمية في أي مؤسسة تعليمية (سواء في المدارس أو المعاهد الحكومية أو الخاصة، أو حتى في الكليات أو الجامعات)، يُذكر معها الطالب كأهم المكونات الأساسية للعملية التعليمية، فيدون الطالب أو ما نسميه أحياناً المُتعلم لا وجود لعملية التعليم والتعلم من جهة، ولا وجود لبقية المكونات الأخرى كالمادة العلمية أو المؤسسة التعليمية أو حتى المُعلم نفسه من جهة أخرى.

فإنَّ المتأمل لواقع الطالب في كثير من البلاد العربية بشكل عام ودوره في العملية التعليمية، يجد أنه حتى في التسعينيات من القرن العشرين الماضي، كان يعتقد الطالب العربي أنَّ السُّعْلُم يحصل بتلقّي المعلومات من أيّ مصدر كان سواء من المُعْلَم أم من الكتاب، فدوره ينحصر بأخذ المعلومة وتخزينها في ذاكرته "عن ظهر قلب"، ثمَّ استردادها على ورقة الاختبار، وهذا يؤمّن نجاحه، ويحصل على الوثيقة ليعرضها على "الجدار متفخراً بإيجازه العلمي"!

ومنذ بداية القرن الواحد والعشرين، ومع ظهور تكنولوجيا المعلومات، وانتشار الإنترنت، وتوفّر أجهزة الحاسوب الآلي في كل منزل تقريباً، حصلت ثورة معلوماتية مفاجئة أثّرت تأثيراً سلبياً على أساليب وطرق التعليم والتعلم عند الطالب الأوروبي بشكل عام، والطالب العربي بشكل خاص. فمفهوم السُّعْلُم أنه تلقى للمعلومة، ثم حفظها وتخزينها، ثم عرضها على ورقة الاختبار، قد تغيّر واستُبدل بمفهوم أحسن، ليُصبح ثقافة

يعتقنها معظم الطُّلاب للأسف تُسمى ثقافة "القص والقص" ¹ في نشر العلم من جهة، وفي عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ من جهة أخرى.

هذه الثقافة ظاهرها البحث العلمي العميق، وباطنها النقل الروتيني السطحي، تُظهر اهتماماً كبيراً بشكْلِ وطريقة عرض المعلومة لتكون جميلة المنظر وجذابة للمشاهد، لكنها تُبطن الكم والإطناب والخلط في طرح ومناقشة المعلومة، تظن فيها وبصاحبها الجد والصدق والإخلاص في إيجاد المعلومة، وبعد التحقيق فيها وبصاحبها يظهر الكسل والكذب والخداع في عَمَلِيَّةِ تحصيل المعلومة، وللأسف لا يستنكر هذه الثقافة السيئة إلا من رحم ربي من طلبة العلم المجتهدين والمخلصين في دراستهم .

وعلى نقیض الطالب الغربي الأوربي، على سبيل المثال، يعاني حالياً الطالب العربي المسكين من عبء "الدروس الخصوصية" التي تُفرض عليه في كافة مراحلهِ الدِّرَاسِيَّةِ، ابتداءً من المرحلة الابتدائية، وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، بحجة تقويته ومساعدته في التحصيل العلمي.

هذه الظاهرة السيئة فشّت وانتشرت في جميع البلاد العربية للأسف، حتى أصبحت ثقافة ظاهرها التَّعْلِيمِ والتقوية والمساعدة من أجل التحصيل العلمي، وباطنها التَّجْهِيل والتَّضْعِيف والاتكالية. ظاهرها توفير الفرص التَّعْلِيمِيَّةِ للطلاب الضعفاء أكاديمياً فقط، وباطنها الاستغلال المادي لكافة الطُّلاب الضعفاء والأقوياء أكاديمياً، حتى ألما أصبحت سبيلاً صارماً بيد المُعَلِّمِ المحارب يهدد به ترسيب أي طالب من طلابه لا يأخذ دروساً خصوصية عنده، فالطالب مجبور للاستسلام له، والآباء والأمهات مضطرين خوفاً على مستقبل أولادهم أن يقبلوا بحكم هذا المُعَلِّمِ الجائر في حكمه والظالم لطلابه.

¹ ظهرت هذه الثقافة بشكل واضح بظهور الإنترنت وتوفر مواقعها لطلبة العلم، مما جعل الكسالى يستخدمونها على أنها طريقة سهلة لأخذ المعلومة من مصدر ما أو موقع ما على الإنترنت بدون ذكر اسم المصدر أو المرجع أو حتى الكاتب واستخدامها كجهد شخصي في إنتاجه للعلمي سواء كان واجباً دراسياً أو بحثاً علمياً أو غيرها من الأمور الأكاديمية، فهي السرقة بعينها وهو اللص بذاته.

لذا أقول: إن أية مؤسسة تعليمية تمارس هذه الثقافة، أو تروجها، أو لاتحاربها، فهي مؤسسة ظالمة لطلابها، ومستغلة لأولياء الأمور المساكين، وفاشلة في أداء مهمتها التعليمية والتربوية، وإن أي مُعَلِّم يفرض أو يروج بين طلابه "دروساً خصوصية" بالسر أو العلانية فهو مُعَلِّم فاشل، وظالم، ومستغل، لأنه لم يؤدي عمله بإخلاص في تعليم طلابه وهم على مقاعد الدراسة في المؤسسة التعليمية، ولأنه يستغل مكانته كمُعَلِّم لهذا الطالب المسكين.

إضافة لذلك نجد أن الطالب العربي يقضي معظم أوقاته في الدراسة - سواء داخل أو خارج المؤسسة التعليمية - ويعاني من كثرة المَرَاكِب العلمية، وأُسْلُوبِيَّة في اكتساب المعلومة يتسم بالسطحية، أي أن كل ما يتعلَّمه هو عبارة عن حقائق متفرقة "ثقص وتُلصق" أو تُحفظ غيباً ثم تُعاد أو تُكرَّر أثناء الاختبارات لتتبخَّر بعد انتهاء الاختبارات. وتعتبر ظاهرة إتلاف الطالب العربي لكتبه بعد انتهاء الاختبارات مباشرة، وعلى أبواب مدرسته - ليست بعيدة عن المراقبين المعنيين من عمليَّة التربية والتعليم في بلادنا - ردة فعل الطرِيقَة تلقّيه وتعامله مع العلم والمعرفة.

هذا الواقع الحزين والمشين لعمليَّةي التعليم والتعلُّم لدى الطالب العربي في مؤسساتنا التعليمية في عصر تكنولوجيا المعلومات، وإستراتيجيات التعلُّم العميق، يجعلني أقدم موجزاً عن مكانة طالب العلم في الإسلام، ودوره في عمليَّةي التعليم والتعلُّم، ثم أعرض أهم خصائص الطالب الناجح حتّى يستعين بها القارئ سواء كان طالباً أو مُعلِّماً، أو مشرفاً تربوياً أو إدارياً، أو حتّى أباً مهتماً بجودة تعليم وتعلُّم ولده.

مكانة طالب العلم في الإسلام

لقد اجلس الإسلام طالب العلم مجلساً يليق بشرف ورفعة المُتعلِّم، وكرَّم وأحسَن مثوى من يسعى من أجل كسب العلم النافع، وأثني عليه حتى أن الله ﷻ أخبرنا عن كليمة النبيّ موسى ﷺ، أنه سافر سَفْراً طويلاً من أجل أن يتلقَّى العلم والمعرفة من رجل عالم

صالح عامل، ليزداد علماً إلى علمه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَادَا أَبْرَحَ حَتَّىٰ أَلْبَحَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمَضِي حَقْبُ﴾ [الكهف: 60]. يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "وذلك حرصاً من النبي ﷺ على لقاء هذا العالم، وعلى التعلّم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المستعلّم مع معلّمه، وقال له: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَكَ﴾ [الكهف: 66]. فبدأه بعد السلام بالاستغذان على متابعتة، وأن لا يتعبه إلا بإذنه، وقال: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَكَ﴾ فلم يجبني ممتحناً ولا متعتاً، وإنما جاء متعلماً مستزيداً علماً على علمه، وكفى بهذا فضلاً وشفراً للعلم."¹

كما أن محمداً ﷺ رسول الله للبشرية كلها _ قد أعطى طالب العلم اهتماماً خاصاً، ورحّب به ترحيباً جميلاً، وبارك له في مسعاه، حتى انه بشر كل من يسلك مسلكاً يتغني به العلم النافع بالجنة، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ."² وعن صفوان بن عسال المرادي³ قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكئ على بريد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله! إني جئت أطلب العلم. فقال: "مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة، وتظله بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"⁴

¹ مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، ص73

² صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1، رقم 70

³ هو صفوان بن عسال المرادي الجملي غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وروى عنه، وسكن الكوفة، روى عنه زر بن حبیش، وعبد الله بن سلمة المرادي، وحذيفة بن أبي حذيفة، وأبو الغريف عبيد الله بن خليفة وغيرهم.

⁴ صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1، رقم 71.

وفي الترغيب في طلب العلم، وإظهار فضل وشرف المتعلم، بين رسول الله ﷺ أن من يأتي المسجد لتحصيل العلم النافع أو ليعلمه، فإن له أجر من ذهب إلى بيت الله الحرام حاجاً، حتى أنه أنزله منزلة المجاهدين في سبيل الله، فعن أبي أمامة¹ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يَرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ، تَامًّا حَجَّتُهُ"². وعن أبي هريرة³، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا، لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِيُخَيَّرَ يَتَعَلَّمُ، أَوْ يُعَلِّمَهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لِيُغَيِّرَ ذَلِكَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعٍ غَيْرِهِ"⁴.

وتشجيعاً لمن يكفل طالب العلم أو لمن يساعده في تكاليف دراسته أو يقبل عنترته، سواء كان غريباً أم قريباً منه، طمأننا النبي ﷺ وأكد لنا أن الله ﷻ قد يرزق السنفق بحسنة نفقته على طالب العلم لما لطالب العلم من بركة في تعلمه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ "لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ"⁵.

طوبى لطالب العلم الذي يتغنى في طلبه للعلم وجه الله وحده مخالفاً له النية والعمل، وطوبى له من زاد يتزود به لما بعد الموت، فالعلم إذا عمل به ونشر لتكون كلمة

¹ هو أبو أمامة الباهلي أحد الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، روى علماء كثيراً وحدث عن عمر ومعاذ وأبا عبيدة، توفي 86هـ.

² صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1، رقم 86.

³ هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله، عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة النوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات، أسلم أول سنة 7 هـ، علم خبير. قال البخاري: روى عنه، ثمان مئة أو أكثر، توفي سنة 57 هـ.

⁴ صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1، رقم 87.

⁵ سنن الترمذي، الصحيح الجامع، رقم 2345.

اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَّا لِحَقِّ ثَوَابِهِ بِصَاحِبِهِ وَزَادَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِمَّا يُلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمُهُ وَعِلْمُهُ"¹.

إِنْ كُلُّ مَذْكُورَتِهِ مِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ وَشَرَفِ تَحْصِيلِهِ يَخْصُ طُلَّابَ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءَ الْأَتَقِيَاءَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رِجْسَ فِي سِرِّهِمْ وَعِلَانِيَتِهِمْ، وَالَّذِينَ يَخْلَصُونَ نِيَّتَهُمْ وَعَمَلَهُمَا لَوَجْهِ اللَّهِ وَحْدَهُ، لَا يَتَتَوْنَ أَغْرَاضًا دُنْيَوِيَّةً مِنْ جَاهٍ وَمَالٍ وَقَرَبٍ مِنَ السُّلْطَانِ، لِذَا حَذَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمِمَارَاةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَذَمَّ كُلَّ مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لَغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، (وَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ)، وَفِيهِ رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَىٰ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَةً فَعَرَّفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"². وَرَوَى عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسَ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ"³.

وَفِيهِمَا رَوَى عَنْ لُقْمَانَ⁴ الْحَكِيمِ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ وَحُضَّتِهِ عَلَىٰ مَجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ، دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَىٰ الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا طَالِبُ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ، فَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَبِيبٍ الْحَضْرَمِيِّ قَالَ: "قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمِهِمْ بِرُكْبَتِكَ"⁵، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقُلُوبَ الْمُنِيَّةَ بِنُورِ الْحِكْمَةِ كَمَا يُحِبُّ الْأَرْضَ الْمُنِيَّةَ بِوَابِلِ السَّمَاءِ"⁶. وَعَنْ ابْنِ أَبِي حَسِينٍ قَالَ

¹ سنن ابن ماجه، رقم 242

² صحيح مسلم رقم 1905

³ صحيح الترغيب والترهيب للكاتباني، ج 1/ رقم 106

⁴ هو لقمان الحكيم كان عبداً حكيماً، ذكر في القرآن واطلق اسمه على سورة لقمان، وقد عاصر داود وعرف بالحكيم، عاش في بلاد النوبة.

⁵ كناية عن ملازمتهم والاقتراب منهم .

⁶ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي ص 106

بلغني أن لقمان الحكيم كان يقول: "يأبني لا تتعلم العلم لتباهي به العلماء وتمازي به السفهاء وتراثي به في المجالس ولا تدع العلم زهداً فيه ورغبة في الجهالة يا بني اختر المجالس على عينك فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك وإن تك جاهلاً تعلموك ولعل الله يطلع عليهم برحمة فتصيبك معهم وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك جاهلاً يزيدونك غياً ولعل الله أن يطلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم".¹

وقد حظي طالب العلم أيضاً على بركة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، إذ أثنوا عليه، وباركوا مسعاه، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضى للرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ يُكَذِّبُ﴾ أن مرأه استغنى ﴿العلق: 6-7﴾ قال: وقال الأعسر: ﴿لَمَّا خَشِيَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾ [فاطر: 28]²

وفي ترغيب طلبة العلم في كسب العلم والمعرفة، روي عن هارون بن رئاب³ أنه قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "اغدُ عالماً أو متعلماً ولا تغدُ فيما بين ذلك، فإنما بين ذلك جاهل أو جهل، وإن الملائكة تيسطُ أجنتها لرجل غدا يطلب العلم من الرضى

¹ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي ص 107

² رواه الدارمي بسند صحيح عن عون، ولم يسمع عن ابن مسعود، فهو منقطع. قال الشيخ الألباني في المشكاة: ج 1/ص: 261

³ هو هارون بن رئاب الإمام الرباني العابد أبو بكر التميمي الأسدي البصري، كان لجل أهل البصرة، حدث عن أنس بن مالك والأحنف بن قيس، قيل أنه عاش 83 سنة.

لَمَّا يَصْنَعُ.¹ وكان رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال: "مرحباً بكم، يناديكم الحكمة ومصايحُ الظُّلَمَةِ، خُلُقَانُ الثِّيَابِ، جَدُّ الْقُلُوبِ، رِياحِينُ كُلِّ قَبِيلَةٍ".²

وحسّر رضي الله عنه أيضاً من التكاثر في طلب العلم، وحثّ على كسب العلم والمعرفة قبل فوات الآوان، سواءً كان بذهاب العلماء أم بعدم استغلال الفرص المتوفرة لطلبة العلم، لاسيما في عصرنا هذا، فقد روي انه قال: "عليكم بالعلم قبل أن يُقْبَضَ وقبضه أن يذهب أصحابه، وإنكم ستجدون أقواماً يزعمون انهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نسبوه وراء ظهورهم، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر، أو يُفْتَقَر إلى ما عنده؟ وعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وعليكم بالعتيق".³

فلو لم يكن في طلب العلم حصلة تُحمد إلا انه مثل الجهاد أو أفضل من الجهاد في سبيل الله، لوجب على العاقل أن يغدو ويسعى في طلب العلم ليلاً ونهاراً، فقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه انه قال: "من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه".⁴ وروي عن الأزدي انه قال: "سألت عبد الله ابن عباس⁵ عن الجهاد فقال: ألا أدلك على خير من الجهاد فقلت بلى قال: تبني مسجداً وتعلم فيه الفرائض والسنة والفقه في الدين".⁶

مهما كان الظن عند بعض الناس أن طلب العلم صعب، وأن غايته بعيدة المنال، وأنه يتطلب حذاقة ذهن ويقظة فطنة، كما هو الحال في دراسة علوم الفقه والحديث

¹ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص29

² المستطرف في كل فن مستظرف، للأشبيهي، ص30

³ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص30

⁴ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج1/ص31

⁵ هو هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حبر الأمة وفقهها وإمام التفسير، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، توفي سنة 68 هـ بالطائف.

⁶ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج1/ص32

والرياضيات والطب والصيدلة، فعليهم أن لا يأسوا من نيل القليل من العلم الذي يخرجهم من أدنى حد الجهالة إلى أدنى درجات التخصص في أي علم يطلبونه، فقد روي أن رجلاً قال لأبي هريرة رضي الله عنه: "أريد أن أتعلّم العلم، وأخاف أن أضيعه. فقال: كفى بترك العلم إضاعة"¹.

وفي هذا المقام، نذكر أيضاً أن السلف الصالح قد حضّ كثيراً على طلب العلم، وأثني على المتعلّم، فأعطاه مكانة مرموقة، وأجلسه مقعد الشرف والرفعة، لما في العلم النافع من فوائد جمّة² يحصل عليها في حياته الدنيوية والأخروية، فقد روي أن ابن سفين الحاج بن نصر قال لرجل من العرب: "ويحكم اطلبوا العلم فإنّي أخاف أن يخرج العلم من عنديكم فيصير إلى غيركم فتذلون. اطلبوا العلم فإنه شرف في الدنيا وشرف في الآخرة"³.

وعن ابن وهب⁴ أنه قال: سمعت مالك بن أنس رحمه الله يقول: حتّى على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ، وسكينةٌ، وخشية، والعلم حسنٌ لمن رزق خبره، وهو قسم من الله تعالى، فلا تمكّن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يوفّق للخير، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ، وذلٌ وإهانة للعلم أن يتكلّم الرجل بالعلم عند من لا يُطيعه"⁵.

وروي عن وهب بن منبه رحمه الله أنه كان يقول: "من تعلم علماً في حق وسنة، لم يذهب الله بعقله أبداً"⁶. وقال أيضاً: "يتشعب من العلم؛ الشرف وإن كان صاحبه ذنبياً،

¹ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص46

² المعجم الوسيط - (1/ 137) (الجم) الكثير من كل شيء وفي التنزيل العزيز) وتحبون المال حبا جما .. (الجمعة) مؤنت الجم .. جاؤوا في جمعة في جماعة .

³ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص56

⁴ هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي المصري المولود في الفسطاط سنة 125 هـ، لزم الإمام مالكا أكثر من عشرين سنة، وقضى حياته كلها في طلب العلم.

⁵ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ج8/ص107

⁶ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص31

والعزُّ وإن كان مهيناً، والقربُ وإن كان قَصِيّاً، والغنى وإن كان فقيراً، والمهابةُ وإن كان وضيعاً¹.

وللّهِ ذرُّ الإمام الشافعي رحمه الله، وهو يَحْتُ السُّمْتُعْلَمُ على طلب العلم في هذه الأبيات الجميلة القافية الغنية المعنى والمقصد²:

والعلمُ مَغْرَسٌ كُلُّ فخرٍ فافتَحْهُ	واحذرْ يُفَوِّتُكَ فخرُ ذاكِ المغرِسِ
واغْلَمْ بأنَّ العلمَ ليسَ يَنَالُهُ	من هُمَةٍ في مطعمٍ أو ملبَسِ
إلا أَخُو العلمِ الذي يُعْنَى به	في حَالَتَيْهِ عَارِيّاً أو مُكْتَسِي
فاجعلْ لنفسِكَ مِنْهُ حظّاً وافراً	واهجرْ لَهُ طَيْبَ الرِّقَادِ وَعَبَسِ
فلعلَّ يوماً إِنْ حَضَرَتْ بِمَجْلِسِ	كنتَ الرَّئِيسَ وفخرَ ذاكِ المجلسِ

وقال أبو حسن الماوردي³ رحمه الله يرغّب في طلب العلم وإخلاص النية فيه:
 "فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه رغباً، ولمن رغب فيه أن يكون له طالباً، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثراً، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملاً، ولا يطلب لتركه احتجاجاً ولا للتقصير فيه عذراً. وأن لا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة وعيئها بانقطاع الأشغال المتصلة، فإن لكلِّ وقتٍ شُغْلاً ولكلِّ زمانٍ عُدْراً"⁴.

¹ تذكرة السمع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لإبن جماعة الكناني، ص21

² شرح ديوان الإمام للشافعي، ص60

³ هو الإمام العلامة، أفضى القضاة، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، صاحب التصانيف، ولد في البصرة سنة 364هـ وتوفي سنة 450 هـ.

⁴ أدب الدنيا والدين، لأبي حسن الماوردي، ص50

وذكر الأبيشي¹ في مستطرفه قول الشاعر صالح بن جناح اللخمي² بحث فيه إلى طلب العلم³:

تَعْلَمُ إِذَا مَا كُنْتَ لَسْتَ بِعَالِمٍ فَمَا الْعِلْمُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ التَّعْلَمِ
تَعْلَمُ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَزْيَسُ لِلْفَقِي مِنْ الْحِلَّةِ الْحَسَنَاءِ عِنْدَ التَّكَلُّمِ
فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ عَاشَ لَيْسَ بِعَالِمٍ وَلَوْ نَالَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ

اعلم أيها القارئ العزيز، انه لا يوجد دين، ولا عقيدة، ولا ثقافة، منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض، قد أعطت طالب العلم اهتماماً ومكانة مرموقة في كلا الدارين مثل ما أعطاه الإسلام، وعقيدة التوحيد، وثقافة السلف الصالح كما وضّحناه فيما سبق، لذا عليك بتقوى الله، وسلك الطريق الذي رسمه لنا نبينا الرسول المعلم ﷺ في طلب العلم، واتباع نهج الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم، وما جاء عن أساليب وطرق التعلّم عند السلف الصالح، لأنهم هم الأصل، ونحن الفرع، وهم المنبع الصافي الذي نشرب منه جميعنا، لله درُّ ابن الجوزي رحمه الله، إذ يقول: "فإن من ورد المشرب الأول، رأى سائر المشارب كدرة"³، فعليك يا طالب العلم، يا صاحب العقل الصحيح والقلب السليم، أن تسهل من علم الأوائل، وتكون ممن يرد للمشرب الأول، وليس ممن يرد بقية المشارب، حتى تتمتع بحلاوة العلم النافع في هذه الحياة الدنيا، وحسن ثوابه في اليوم الآخر.

¹ هو بهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبيشي، ولد في أبشويه، وهي قرية من قرى مصر سنة 790 هـ. وتوفي في أواخر سنة 854 هـ، من أشهر مؤلفاته: المستطرف من كل فن مستظرف، وأطواق الأنهار على صدور الأنهار، وتذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين.

² المستظرف في كل فن مستظرف، للأبيشي، ص30

³ صيد الخاطر لابن الجوزي، ص37

الطَّالِبُ ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّةِ

يُعَدُّ الطالبُ أو ما يطلق عليه أحياناً المُتَعَلِّمُ أهمَّ مكوِّنات العملية التَّعْلِيمِيَّةِ. فنبذونه لا وجود للمُعَلِّمِ، أو للمؤسسة التَّعْلِيمِيَّةِ، أو للمادَّةِ العلميَّةِ، فمن أجله نبني المدرسة، ونُعِدُّ المُعَلِّمَ النَّاجِحَ، ونكتب المادَّةَ العلميَّةَ المناسبة. فانطلاقاً من أهمِّية عنصر الطَّالِبِ ودوره في العملية التَّعْلِيمِيَّةِ، يمكننا أن نقول إذا حصلنا على طالب ذو جَوْدَةٍ في تعلُّمه، وتفكيره، وتحليله، ونقده، وحلِّه للمشاكل التي يتعرَّض لها، نستطيع عندئذ أن نعتبر أنَّ العملية التَّعْلِيمِيَّةِ بكافَّةِ مكوِّناتها ناجحة ومُمَيَّزة.

قبل أن أسْتعرض خصائص جَوْدَةِ العملية التَّعْلِيمِيَّةِ لدى السُّمُوعِ، أعرِّف القارئ بما يُقصد بالجَوْدَةِ في التَّعَلُّمِ من وجهة النُّظَرِ الإسلاميَّةِ من ناحية، ووجهة النُّظَرِ الغربيَّةِ من ناحية أخرى، لكي نرى إن كان هناك تطابق أم اختلافٌ في تعريفهم ومفهومهم لهذا المصطلح العلميِّ.

"الجَوْدَةُ" — لغة — تعني "حالة ما هو جيِّد، اكتمال الصفات المُمَيَّزة، إتيان، كقولنا عمل جيد، أي عمل مُتَقَنٌ أو حَسَنٌ"¹، فالجَوْدَةُ إذاً تعني "الإتيان" بحذ ذاته.

من حيث المبدأ، أكَّد الإسلام — عقيدة وشريعة — على أهمِّية الجَوْدَةِ والإتيان في كافَّةِ مجالات الحياة، فعلى مستوى الدِّينِ نفسه، نجد أن الإسلام دين كاملٌ، مُتَقَنٌ، قد رضيهِ الله لنا، وفيه خيرٌ لنا في الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [مائدة:3]، ووصف الله من تدبَّرَ بهذا الدِّينِ فأسلم وجهه لله وهو محسن، بأنَّه لن يكون هناك أحسن ديناً منه، وجاء بصيغة الاستفهام الإنكاري، ليدل على أنه الأحسن على الإطلاق: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:125]. ومن كان على أحسن دين فهو الأحسن علماً

¹ معجم المُتَّجِد في اللغة العربيَّة المعاصرة، ص234

وتعليماً وتعلماً، ومن ثم، سلوكاً ومشاعرَ وانفعالاتٍ ومواقفَ. وقال تعالى: ﴿وَنَسِيَ الْجِبَالَ

تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ ثَمَرُ مَرِّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَمَّنْ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[النمل: 88].

وعلى مستوى العقيدة، نجد مفهوم الجودة واضحاً في مطالبة المسلم أن يتبنى عقيدة

توحيد الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، لما فيها من اكتمال للصفات المميزة لعبادة الإله

الواحد، لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، ففي عقيدة التوحيد جودة وإتقان،

وفي الشُّرْك كُفر وضلال، وكم وسطحية، فهل نختار الجودة والإتقان، والعمق في الإيمان،

بالواحد الحي القيوم، أم الكم والسطحية في الاعتقاد، أعاذنا الله وإياكم من الشُّرْك

والضلال.

ويمكن بنا أن نشير إلى أن الإحسان أعلى من درجتي الجودة والإتقان، وأن الجودة

والإتقان مظهران من مظاهر الإحسان، والإسلام ديناً وعقيدة وأخلاقاً دعوة إلى الإحسان،

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكُنُوزًا الْعِظَامَ زُخْرًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

خَلْقًا آخَرَ فَبَازِغًا اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14]، فعمل الإنسان يُقاس بمعياري

الإحسان، أي بقدر ارتفاع درجة الإحسان في قوله وعمله، يرتفع قدره في ميزان الشريعة

من جهة، وفي ميزان المعايير الوضعية التي اعتمدها الإنسان في تعريفه للجودة والإتقان في

كيفية أداء أمر ما، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وَهُوَ الْقَرِيزُ الْفُؤْمَرُ [الملوك: 2]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 7].

ولو ألقينا نظرة عابرة، في السَّنة النبوية الشريفة، لوجدنا أن مفهوم الجَوَدَةُ والإتقان قد أخذ مساره في أقوال وأفعال نبيِّنا محمد رسول الله ﷺ،، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقَنَهُ" ²، وَعَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ ³، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لْيُرِجْ ذَبِيحَتَهُ" ⁴، فالإحسان هنا أعلى مستويات الإتقان، ولعله الإتقان الذي تكتنفه الرحمة، وفي أشد الحالات المألمة ومعاناةً ومنظراً عند ذبح الشاة، فلا ينسى أن يريح ذبيحته.

وما أحلى مفهوم الجَوَدَةُ فيما جاء عن ابن المبارك ⁵ أن حبيب بن حُجر القيسي قال: "ما أحسن الإيمان ويزينه العلم، وما أحسن العلم ويزينه العمل، وما أحسن العمل ويزينه الرفق. وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم" ⁶ فنحن هنا أمام تكاملية رائعة

¹ عائشة، هي: بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة، القرشية، التَّيْمِيَّةُ، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي محمد ﷺ، أُلْفَتْ نَسَاءُ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، تُوُفِّيَتْ سنة 57 هـ ومدة عمرها 63 سنة وأشهر.

² صحيح الجامع الصغير وزيادة للألباني، ج1، رقم 1880

³ هو شداد بن أوس ابن ثابت بن المنذر بن حرام، أبو يعلى، وأبو عبد الرحمن الأنصاري، النجاري، للخرجي، وشداد هو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ، من فضلاء الصحابة، وعلمائهم، نزل بيت المقدس، توفي سنة 58 هـ. وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكانت له عبادة واجتهاد.

⁴ صحيح الجامع الصغير وزيادة للألباني، ج1، رقم 1824

⁵ هو عبد الله بن المبارك ابن واضح، الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه، وأمير الأئمة في وقته، أبو عبد الرحمن الحنظلي، ولد في سنة 118 هـ ومات سنة 181 هـ. يقال: إن الرشيد لما بلغه موت عبد الله قال: مات اليوم سيد العلماء.

⁶ الجامع للأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب الغدادي ج1، ص94

وسامية في مفهوم الاتقان والجودة، تشكلت في ذهن حبيب القيسي، وهو يدين الدين الحق. وبعد هذا التأطير لمفهوم "الجودة" في بُعد الشرعي واللغوي، غنني لتأطيره اصطلاحياً وعملياً.

فالجودة - اصطلاحاً - تأخذ معناها من المجال التي تُستخدم فيه، فمعنى الجودة في المجال الاقتصادي أو التجاري غير معنى الجودة في مجال المعاملات السياسية، أو الدبلوماسية، أو الأكاديمية أو ماشابه ذلك، ما نريد أن نتوصل إليه في بحثنا هذا هو معنى الجودة وكيفية تحقيقها في عمليّة التعلّم عند طالب العلم.

إن الجودة في التعلّم هي إخلاص المتعلّم في النية لله تعالى، وحسن فهم وحفظ وإتقان المعلومة، وقدرته على استخدامها والعمل بها عندما يتطلب الأمر، وفي أي مكان وجِد هذا المتعلّم فيه، فإذا لم يحصل هذا كان التعلّم كمياً وسطحياً لا قيمة له، والله أعلم.

ذكر ابن عبد البرّ القرطبي رحمه الله أبياتاً شعرية نسبها بعضهم إلى المأمون¹، وكأنه يعرف فيها الجودة في التعلّم، أذكر منها مايلي²:

واعلم بأنّ العلم بالتعلّم والحفظ والإتقان والتفهّم
والعلم بالفهم وبالذاكرة والدّرس والفكرة والمناظرة

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله وهو يؤكد أهمية قدرة المتعلّم على استخدام المعلومة أينما كان، وهذا يُعدّ عنصراً مهماً من عناصر جودة التعلّم، كما انه يستكر أن

¹ هو الخليفة العباسي السابع، أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة 170هـ وتوفي سنة 218هـ. كان من أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبه وشجاعة وبساحة، استقل بالأمر بعد قتل أخيه سنة 198هـ.

² جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ القرطبي ص146

يكون العلم محفوظاً في صندوق مغلق لا يمكن فتحه لاستفادة مما فيه من علم عند الحاجة، وهذا دليل على الكم¹ والسطحية في عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّمِ²:

علمي معي حيثما يَمُتُّ يَنْفَعُنِي قلبي وعاء له لا يَطْنُ صُنْدُوقِ
إن كُنْتُ في البَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فيه معي أو كُنْتُ في السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ في السُّوقِ

أما فيما يتعلق بالمفهوم الغريب للجَوْدَةِ في التَّعَلُّمِ عند الطالب، عرّف البروفسور جيس الجَوْدَةُ في التَّعَلُّمِ في كتابه "تحسين جَوْدَةِ التَّعَلُّمِ عند الطُّلَّاب"³، بأنها "كلُّ ما يؤدي إلى "تطوير القدرات الفِكْرِيَّةِ والخياليَّةِ عند الطُّلَّاب، وتحسين مستوى الفهم والاستيعاب لديهم، ومهاراتهم في حلِّ القضايا والمسائل، وقدراتهم على توصيل المعلومة بشكلٍ فعال، والنَّظَرُ في الأمور من خلال ما تعلَّموه في الماضي وما يدرسونه حالياً". لتحقيق ذلك لا بدُّ من بُنْيَ منهجٍ دراسيٍّ يساعد على إثارة غرائز الإبداع والاستفسار والتَّحليل عند الطُّلَّاب، وحُثُّهم على الاستقلاليَّةِ في اختيارهم وطرحهم للآراء والأفكار، وإدراكهم لأهميَّةِ التَّقدُّم والتَّقدُّم الذاتيِّ في عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّمِ".

أما مفهوم "الكم" في عمليَّةِ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ، أستخدمه هنا للدُّلالة على مقدار أو حجم المعلومة، والوقت الذي يُسْتَغْرَقُ في التَّعَلُّمِ، والأسلوب السطحيِّ لاكتساب المعلومة. والجدير بالذكر انه اختلط الأمر على كثير من التَّربويِّين والمدرِّسين وغيرهم من المُتعلِّمين من كثرة استخدام اصطلاحات ومفاهيم في عمليَّةِ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ بدون الإفصاح عن معناها ومقصدها، فقد ظهر مؤخراً مفهوم التَّعَلُّمِ العميق مقابل التَّعَلُّمِ السطحيِّ، وتباينت مفاهيم استراتيجيات التَّعَلُّمِ وتعددت مفاهيم المعرفة.

¹ عندما لأذكر الكم بمفردها فهي في مقابل الكيفية . وعلى حسابها . وسيلاتي بيان لهذا، عما قليل .

² شرح ديوان الإمام الشافعي، ص74

³ (Gibbs, G: 1992)

لذا عَمَدْتُ فيما تبقى من هذا الفصل أن أوضِّح الفرق بين التَّعْلُم العميق والتَّعْلُم السطحيّ، وأستعرض أهم إستراتيجيات التَّعْلُم العميق التي يمكن للمُتعلِّم اتِّباعها حتَّى يَحَقِّق أكبر قدر من الفائدة من عَمَلِيَّة التَّعْلُم، ثم أقدم باقية من الآداب والخصائص التي يجب أن يتحلَّى بها طالب العلم الناجح، وسأقترح — إن شاء الله — للطالب العلم العاقل طريقة إسلامية تساعد في كَيْفِيَّة تحصيل العلم النافع بعمق وفعالية معتمداً في ذلك كله على تراثنا الإسلاميِّ الضَّخَم والمستنبط من الكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه هدي السُّلف الصَّالح، والله الموفق.

الواقع الحاليّ لِعَمَلِيَّة التَّعْلُم عند الطالب العربيّ

لو توقَّفنا قليلاً ونظرنا في واقع الطَّالِب العربيّ — في معظم مراحلهِ الدِّرَاسِيَّة — لوجدنا انه — للأسف — يَتَبَنَّى "منهج التَّعْلُم السطحيّ" في بحثه وتعامله واكتسابه للمعلومة، ويعاني من جهل في فهم معنى التَّعْلُم العميق الفَعَال، لأنَّه يعتقد أنَّ التَّعْلُم هو: أولاً: ما يُقدِّمه المُعَلِّم للطَّالِب من شرح في القاعة الدِّرَاسِيَّة أو ما يعطيه من واجبات منزلية أو 'مذكرات' دورية، وليس ما يَتَعَلَّمه الطَّالِب بنفسه. ثانياً: حفظ المعلومة غيباً عن ظهر قلب مع عدم القدرة على استخدامها في موقع آخر لغرض آخر.

ثالثاً: اكتساب حقائق ومهارات وعمليَّات حسابيَّة ومعادلات واستردادها في الاختبارات بدون القدرة على استخدامها لأغراض مختلفة وفي مواقع متغيرة.

رابعاً: الجلوس أمام شاشة الإنترنت ينتقل فيها من موقع إلى آخر، ككبش نائه ضائع يركض حيراناً في مرعى فيه الغثُ والسَّمين من العشب، فأحياناً يدخل موقع "الدردشة وضياع الوقت"، وأحياناً موقع "الفيسبوك والغيبة والنميمة"، وأحياناً موقع "القصص والصلص" والسرقة للمعلومة"، وأحياناً يدخل موقع "اللعبة واللهو والقمار"، وأحياناً موقع "الحب

والغزل والدعارة"، كل هذا بحجة انه يتعلم أو يبحث عن المعلومة عن طريق الإنترنت، عافاني الله وإياكم من مساوئ استخدام هذا الشيطان الخفي الذي لا يخلو منه بيت إلا ومستخدموه يعانون من همزاته ووساوسه الشيطانية.

فالتَّعَلُّمُ السَّيِّئُ يحصل نتيجة تَبَيَّنَ هذا المفهوم هو عبارة عن تَعَلُّمٍ سطحيٍّ كَمَيٍّ، وسرعان ما يزول لأنَّه تَعَلُّمٌ حقائق متفرقة، تُحفظ غيباً بدون فهم واستيعاب كاملين لكي تُسْتَرَدَّ في الاختبار، ثم تُنسى وتُمنسى لعدم ربطها بواقِعٍ وتجارب المُتَعَلِّمِ.

وذكر ابن عبد البر القرطبي رحمه الله: "أن عمر بن الخطاب ؓ في حديث السَّقِيفَةِ انه خطب يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال، أمَّا بعد، فأني أريد أن أقول مقالة قد قَدَّرَ لي أن أقولها، من وعائها وعقلها وحفظها، فليحدِّث بما حيث تنتهي به راحلته، ومن خشْي أن لا يعيها، فاني لا أحل له أن يكذب عليَّ أن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب، فكان مما أنزل معه الرجم وذكر الحديث"¹ وهذا يدل على نُهيه عن التَّعَلُّمِ الكَمَيِّ والسطحيِّ حيث يهتَمُّ المُتَعَلِّمُ بحفظ المعلومة بدون وعي لمضمونها وتعقُّل معناها، فيقع في المخطوَر، وهو نقل المعلومة إما ناقصة أو مشوَّهة أو غير صحيحة، ولاسيما إذا كان الأمر يتعلَّق بما قاله رسول الله ﷺ، لذلك أكَّد على الوعي والتَّعَقُّل والفهم ثم الحفظ حتى يتحقَّق المرجو من التَّعَلُّمِ، وبهذا يكون المُتَعَلِّمُ قد اتبع أهمَّ عناصر الجَوَدَةِ في عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّمِ من حيث الإتيان والعمق في تفهَم وتعقل المعلومة، مهتماً بالإقلال ومتجنباً الإكثار، أي مهتماً بالنوعية وغير مبالٍ بالكميَّة.

فمن علامات التَّعَلُّمِ السطحيِّ أن يقرأ الطالب أو أن يكتب بدون أن يتفهَم ويتفكر فيما يقرأ أو يكتب، فينتج عنه وكأنه لم يقرأ ولم يكتب، لأن اهتمامه كان في التركيز على كميَّة القراءة أو الكتابة التي يريد تحقيقها، هذا ما يؤكد ما جاء في الأثر عن سُرَيْجِ بْنِ

¹ جامع بيان العلم وفضله 122/2

يُؤُسُّ¹ انه سمع يحيى بن ممان² يقول: "يكتبُ أحدهم الحديث ولا يتفهّم ولا يتدبّر، فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلسَ كأنه مكاتب"^{3,4}.

وتأكيداً لمساوئ ومضار استخدام منهج التعلّم السطحي والاهتمام بالكَم في التعلّم أكثر من النوعية. فقد قرأت هذا الشاهد الرائع والذي هاجم فيه قدامونا استنكار راوي الشعر مما لا يفقهه جيداً، وعدوا ذلك عيباً يُهجي به صاحبه أشدّ الهجاء وأقساه، فهو كالبعير الذي يحمل حملاً لا يعلم قيمته ويستوي لديه الغث والسمين مما حمل في غرائره. فيمضي بهما على سواء ففي "لسان العرب" (زم ل) هَجَا مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ قَوْماً استنكروا رواية الأشعار من غير تفهّم ما فيها من المعاني واللطائف فقال:

زَوَامِلٌ⁶ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ
بِجَدِّهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبْعَرِ⁷
لَعَمْرُكَ مَا يَذْرِى الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا
بِأَوْسَاقِهِ⁸ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ⁹.

¹ هو ابن إبراهيم، الإمام القوة الحافظة، أبو الحارث المروزي، ثم البغدادي، كان صاحب خير، ومن الأئمة العالدين، مات سنة 235 هـ.

² هو الإمام الحافظُ الصَّادِقُ العَابدُ المَقْرئُ، أَبُو زَكْرِيَا العِجْلِيُّ الكُوفِيُّ، صاحبُ التَّوْرِيِّ وأكثرَ عنه، وكان من العلماء العاملين، توفى سنة 189 هـ.

3 المَكَاتِبُ العبد يَكاتب على نفسه بَعثته فإذا سعى وأداء عَقِب. وجاء هنا على التشبيه به لأنه غالبا مظنة الجهل، والبعد عن أجواء التعلم.

4 جامع بیان العلم وفضله 131/2

³ لسان العرب - (11 / 309): لسان العرب - (11 / 309): هَجَا مَرْوَانَ بْنِ حَفْصَةَ قَوْمًا مِنْ رَوَاةِ الشُّعْر...
...

⁶ لسان العرب - (11 / 309): الزاملة بعير يَسْتَنْظُرُ به الرجلُ يَحْمِلُ عليه متاعه وطعامه

⁷ لسان العرب - (71/4): أَبَاعَرُ جَمْعُ أَبْعَرَةٍ وَأَبْعَرَةٌ جَمْعُ بَعِيرٍ وَأَبَاعَرُ جَمْعُ الْجَمْعِ وَلَيْسَ جَمْعاً لَبْعِيرٍ

⁸ لسان العرب - (10/ 378): **الْوَسْقُ** **وَالْوَسْقُ** مَكْنِيَّةٌ مَعْلُومَةٌ وَقِيلَ هُوَ حَمَلٌ بَعِيرٌ وَهُوَ سَتُونَ صَاعاً بِصَاعٍ النَّبِيُّ ﷺ

⁹ لسان العرب - (5/ 11): الغِرَاوَةُ واحدة الغَرَائِرِ التي للثَّقَنِ قال وأظنه معرباً. (بمعنى كيس الخيش الذي يوضع على ظهر الجمل للثَّقَنِ وغيره)

ولقد آثرت نقل هذا الشاهد على ما فيه من غريب، الألفاظ، ذلك لأنه إذا ماتضحت معانيسها فإن البيتين يفصحان عن صورة جميلة جدا تبرز قيمة الكيف في مقابل الكم وقيمة التغفل فيما بين الكلمات واستيعاب دلالاتها، لتكون أكثر عمقا واستشفافا.

ولقد يُسَنِّت الأبحاثُ التي أُجْرِيتْ على أثر المنهج السطحيّ في جَوَدَةِ التَّعْلُمِ عند الطُّلَّابِ _ كما هو مفصَّل في بحث التُّربوي جيس¹ _ أن الطُّالِب الذي يتَّبِع المنهج السطحيّ الكَمِّيّ في تعلُّمه واكتسابه للمعلومات ينقصه الفهم الكامل للمفاهيم أو الأفكار الرئيسيّة للموضوع، كما انه لا يستطيع أن يميّز بين الأمثلة أو أن يدرك الأفكار الرئيسيّة لمخاضة قد يسمّعها.

لذا يمكننا أن نقول وباختصار، أن المنهج السطحيّ في التَّعْلُمِ واكتساب المعلومة لا يساعد على تطوير القدرات العقلية والفكرية والخيالية عند الطُّلَّاب، وبالتالي يُعَرِّق تحسين مستوى الوعي والفهم والاستيعاب والحفظ وتعلُّمهم لمهارات حلّ القضايا والمسائل بشكلٍ فعّال، والتي تُعدّ من أبرز خصائص الجَوَدَةِ في التَّعْلُمِ.

لذا حتّى تحصل الجَوَدَةُ في التَّعْلُمِ عند طُلَّابنا، لا بدّ من التخلّي عن مبادئ منهج التَّعْلُمِ السطحيّ، وتبني مبادئ منهج التَّعْلُمِ العميق. وأول من دعا إلى استخدام منهج التَّعْلُمِ العميق هو نبيّنا محمّد رسول الله ﷺ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: "نَضَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالِي، فَوَعَاها وَحَفَظَهَا، ثُمَّ أَذَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ غَيْرُ فِقْهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَرُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحْوَطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ".² إن هذا الحديث يحدد أهمّ مراتب منهج التَّعْلُمِ العميق، ويوضح ثمره ونتاج من يتبناه.

¹ (Gibbs, G: 1992)

² صحيح الجامع الصغير وزيداته، رقم 6766

يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في شرحه لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه من قام بتطبيق الأربعة المراتب من عمليّة التعلّم العميق المذكورة في حديث رسول الله ﷺ دخل تحت الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن، وحدد هذه المراتب كالتالي:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه، أي: عقله واستقرّ في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يتسرّب منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرّد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم.

المرتبّة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

المرتبّة الرابعة: تبليغه وبثّه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده. فإن العلم ما لم يُنفَق منه ويُعلّم فانه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه ثَمّاً وزَكَاً على الإنفاق.¹ كم أنت قيمّ يابن القيم؟! وكَم شرد قوم للاستيراد من بعيد، وأنت منهم قريب قريب؟! وفي عمليّة التعلّم العميق، وتوضيح المعنى العمليّ للجودة في العلم والتعلّم، روي عن ابن المبارك رحمه الله انه قال: "أن أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر".² وروي أيضاً عن سفيان الثوري³ رحمه الله انه قال: "أول العلم الاستماع ثم الانصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر".

¹ مفتاح دار السعادة للإمام ابن قيم الجوزية ص94

² جامع بيان العلم وفضله، ص118

³ هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر ابو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد بالكوفة سنة 97هـ، ونشأ فيها. راوده المنصور للعباس على أن يالي الحكم، فأبى وخرج من الكوفة سنة 144هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً سنة 161هـ.

وقد دلت الدِّراسات الغربيَّة — وأبرزها التي ذكرها جيس¹ — أنَّ الطَّالِبَ يستطيع أن ينتقل من المنهج السطحيِّ في التَّعلُّم إلى المنهج العميق في التَّعلُّم إذا حاول أن يطور فهمه واعتقاده في مفهوم التَّعلُّم؛ أي أن يرفض مبادئ ومفاهيم منهج التَّعلُّم السطحيِّ المذكور أعلاه ويعتقد أن:

أ- التَّعلُّم هو اكتشاف معنَى للأشياء؛ أي يحاول الطَّالِب وبشكلٍ فعَّال أن يجد أو يستخلص معنَى للأشياء في عَمَلِيَّة التَّعلُّم، فهو يعي ويعقل ويفهم ويستوعب الأشياء، وهو قادرٌ على شرحها وتعليمها وتليغها، وليس على حفظها أو تذكُّرها فقط.

ب- التَّعلُّم هو فهم الواقع؛ أي يتمكَّن الطَّالِب من خلال عَمَلِيَّة التَّعلُّم أن يفهم العالم المحيط به بشكلٍ مختلف، وأن يطبِّق ما تعلَّمه في واقع حياته.

وعندما يُطرحُ السُّؤال التَّالي: ماذا يُقصدُ بالمنهج العميق في التَّعلُّم؟

أقول: هو محاولة الطَّالِب استخلاص معنى ممَّا تعلَّمه من أفكارٍ ومفاهيم، فهذه العَمَلِيَّة من التَّعلُّم تضع الطَّالِب في إطارٍ من التَّفكيرِ الفعَّال والبحث المتواصل للرَّبط بين المكوِّنات وبين القضايا والمسائل و"التَّلعب" بالأفكار بحيث يستطيع أن يستفيد منها في حيِّز الواقع بطريقة مختلفة عمَّا تعلَّمه، ولغرضٍ مختلفٍ أيضاً، وهذا يحصل الابتكار والإبداع عند الطَّالِب والقدرة على تطبيق ما تعلَّمه على الواقع وتطويره باستمرار.

والجددير بالذكر هنا أنَّ من الممكن تطبيق المنهج العميق في التَّعلُّم على كافَّة العلوم، سواء كانت علميَّة أو أدبيَّة أو شرعيَّة. فمن أراد — على سبيل المثال — أن يحفظ سورة القرآن الكريم، أو أبياتاً من قصيدة شعريَّة، أو حدثاً تاريخيًّا، يمكنه فعل ذلك، إذا تبنَّى وطبَّق مبادئ ومفاهيم التَّعلُّم العميق، وتحلَّى بصفات طالب العلم النَّاجح التي سنذكرها لاحقاً، إن شاء الله.

¹ (Gibbs, G: 1992)

وعلى سبيل المثال يُمكن تطبيق مفهوم التعلُّم العميق على حفظ آيات من القرآن الكريم باتباع القواعد التالية:

1. أن ينوي التعلُّم، ويُخلص النية لله ﷻ .
2. أن يحدد الغرض من تعلم أو حفظ الآيات القرآنية.
3. أن يحدد الآيات القرآنية التي يريد أن يتعلَّمها أو يحفظها.
4. أن يتفكَّر ويتذكَّر الآيات القرآنية، فبال تفكُّر يحصل التعلُّم وبالتذكُّر يحفظه.
5. أن يعي ويعقل الآيات القرآنية حتى تستقر في عقله وقلبه.
6. أن يتصور ويفهم ويستوعب معاني الآيات القرآنية، لأن الحفظ هو تصور وفهم للمعنى المقصود تعلمه.
7. أن يقرن الفهم بالحفظ والقدرة على تذكُّر الآيات القرآنية.
8. أن يستطيع تطبيق ما تمَّ تعلُّمه على الواقع، سواء بقراءة الآيات غيباً أو استخداماً كدليل أو شاهد لأمر ما، حينما يستدعي الأمر.
9. أن يستطيع تعليمها وتبليغها للآخرين حينما يتطلَّب الأمر.

إذا لم يستطيع أن يحقق المُتعلِّم القواعد الآتية الذكُّر في عمليَّة تعلمه لأي أمر ما، يعني ذلك أنه لم يتعلم شيئاً، وعليه أن يعيد نفس العملية من أولها إلى آخرها حتى يتأكَّد من عمق تعلُّمه، وإلا كان تعلُّمه كمياً وسطحياً.

صفات طالب العلم الناجح

يعتقد الطالب العربي وللأسف أنه عندما يجلس على مقعد الدراسة أو يجلس بين يدي مُعلِّمه في حلقات العلم أصبح طالب علم، وأنه يحصل على العلم والمعرفة من تلقاه لمعلومات مصدرها المُعلِّم في الفصل الدراسي أو الكتاب أو حتى الكمبيوتر مؤخراً وغيرها من وسائل التلقِّي.

أقول لك عزيزي الطالب: حتى تكون مؤهلاً لطلب العلم النافع، ولكي يُطلق عليك اسم طالب علم ناجح، وحتى تستطيع أن تتعلم وتكتسب المعرفة الحقة والعلم النافع بعمق وفعالية، لا بدّ من أن تتزَيّن وتتميّز بأداب وصفات طالب العلم التي تميّزك عن غيرك من النَّاس. وفيما يلي بعض الخصال التي يجب عليك أن تحرص على التحلّي بها:

أولاً: أخلاق طالب العلم وأدبه

تُعدُّ الأخلاق الحميدة من أهم ما دعا الإسلام إليه في بناء شخصيّة الفرد وإصلاح المجتمع، فإذا تمسك الفرد بمكارم الأخلاق، وعمل بها في كافّة مجالات حياته، ودعا إليها، وتحلّى عن مساوئ الأخلاق، وابتعد عنها، وحذّر من عاقبتها ومن يتّصف بها، حصلنا على مجتمع متحضّر متماسك البنيان، قويّ الإيمان بالله ورسوله، قويّ الإرادة والعزيمة، سليم من عناصر الانهيار والفساد، بعيد عن مسببات الانحلال والفساد.

إن الله ﷻ أرسل الرسل والأنبياء ليبلّغوا رسالة التّوحيد إلى عباده، وليكونوا أسوة حسنة، يُقتدى بهم وبأقوالهم وأفعالهم، لما في ذلك من خير الدُّنيا والآخرة، وخير ما تقتدي به هو كل ما جاء به رسولنا محمد ﷺ، فهو أسوة لنا في سيرته وما جاء فيها من قول أو عمل، وفي أخلاقه العظيمة لما فيها من سعادة الدُّنيا والآخرة، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، وقال الله تعالى واصفاً كمال وعظمة خلُقِ أسوتنا ونبينا ورسول الله للعالمين ﷺ: ﴿وَأَنَّكَ لَمَكِّي خُلِقَ عَظِيمًا﴾ [القلم: 4]، وقال الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وَقَالَ الصَّحَابِيُّ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ¹ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَخِيهِ: "ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ"². وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا، وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا سَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ"³.

فَفِي حُسْنِ الْخُلُقِ تَقَرُّبٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَاتِّبَاعٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِهِ نَرْجُو رِضَى اللَّهِ وَحِبَّهُ ﷺ، فَعَنْ أَسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا"⁴، وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ⁵، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا"⁶. وَحَتَّى نَحْقُقَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ، لَا بُدَّ أَنْ نَرْقَى وَنَسْمُو بِأَخْلَاقِنَا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا"⁷. فَكَانَتْ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَهَمِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَدَعَا إِلَيْهِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"⁸.

¹ هو جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ الْغِفَارِيُّ، أَحَدُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، مِنْ تَجْبَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانَ خَامِسَ خَمْسَةِ فِي الْإِسْلَامِ، مَاتَ سَنَةَ 32 هـ.

² صحيح البخاري ص 1167

³ مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ج 3/ رقم 5820

⁴ صحيح الجامع للصغير وزيادته للكبائي رقم 179

⁵ هو ابن محمد بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل الإمام المحدث أبو إبراهيم وأبو عبد الله القرشي السهمي الحجازي فقيه أهل الطائف، ومحدثهم، وكان ناشرًا للعلم. مات سنة

118 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج 5/ ص 165

⁶ صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، رقم 271/205

⁷ صحيح الجامع للصغير وزيادته للكبائي رقم 1230

⁸ صحيح الجامع للصغير وزيادته للكبائي رقم 2349

لذا أقول: انه من الأحرى بطالب العلم أن يتحلّى بالأخلاق الفاضلة، ويتحرى مُستحسن الآداب والخلق الحسن في قوله وفعله، ويستنكر خصال السوء والفحش، ويتعد عن الشر ومسيباته في قوله وفعله، فبالفضيلة يرقى وبدونها يهبط إلى الحضيض، فهاهو الإمام الشافعي رحمه الله يصف لنا فعل وأثر الفضيلة فينا¹: ديوان الإمام

أَرَى الْغَرَّ² فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانَ فَاضِلًا تَرَقَّى عَلَى رُوسِ الرِّجَالِ وَيَخْطُبُ
وَإِنْ كَانَ مِثْلِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ يُقَاسُ بِطِفْلِ فِي الشُّوَارِعِ يَلْعَبُ

أودّ في مقامي هذا أن أحتلّ طالب العلم الناجح من الوقوع في شباك أخس مساوئ الأخلاق، لأنها كثرت مؤخراً بين طلاب العلم، سواء كانوا طلاباً في مراحلهم الابتدائية، أو الإعدادية، أو الثانوية، أو الجامعية أو حتى بين طلبة الدراسات العليا، وللأسف! فقد كثر الغش والكذب، والتباغض والتحاسد بين طلاب العلم، كل منهم يعمل على شاكلته ويشق الوسائل، إلا ما رحم ربي، من أجل أن ينجح أو يحصل على درجة عالية في دراسته، فممنهم من يتبع أسلوب "القص والصق" مدّعياً انه نتاجه، ومنهم من يسرق فقرة من هذا الكتاب وفضلاً من ذلك الكتاب بدون أن يذكر من أين سرقه! بل ربما ذهب إلى أسلوب استحليل فيه ويقوى على إخفاء سرقاته! ومنهم من يدفع مبالغ طائلة لمن يكتب له واجبه المدرسي أو بحثه الجامعي!

أصبح ارتكاب الغش والكذب أثناء الدراسة جريمة أخلاقية في المؤسسات التعليمية القسرية، يُعاقب مرتكبها بالسوب في سنته الدراسية إذا كان طالباً في مرحلة الدراسة الإعدادية أو مرحلة الدراسة الثانوية، وبالفصل من الجامعة إذا كان طالباً جامعياً، ويعدم الاعتراف بدرجة العلمة إذا كانت درجة الماجستير أو الدكتوراة.

¹ شرح ديوان الإمام الشافعي، ص 32

² رجل عرّ بالكسر، وغريب أي غير مجرب

اعلم، أخى القارئ، أن الإسلام قد سبق المؤسسات التعليمية الغربية في تحريم من يكذب ويغش، حتى أنه نعت من يكذب، بالنفاق، عافاني الله وإياكم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّعَمَّنَ خَانَ"¹، وتبرأ ممن يغش، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ عَشَنَّا فَلَيْسَ مِنَّا"². وفي رواية "من غش فليس منا"³ هكذا، لمطلق الغش.

ومن الأخلاق الذميمة التي يعاني منها طلاب العلم أيضاً الحسد، والتباغض، والغيبة، والنميمة، وعدم غمّي الخير لبعضهم بعضاً. إن هذه الآفات الأخلاقية لاتؤدي إلى خير، ولا سبيهاً في مجال التعلم. فهي تُكدر بصر وبصيرة المُتعلِّم، وتجلب الكآبة والتعاسة والحسرة له، وتؤدي إلى فشله في دراسته، أو عدم البركة فيما يحصله، والله أعلم، لذا حذر الشرع منها ونهى عنها، ودعا إلى الأخوة والمحبة في الله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ"⁴. وعن النعمان بن بشير⁵، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ: فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادُّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْحَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى غَضَبٌ، تَدَاعَى لَهُ

¹ صحيح البخاري برقم 6095

² صحيح مسلم، رقم 164

³ سنن الترمذي - (3 / 606) قال الشيخ الألباني: صحيح

⁴ صحيح البخاري رقم 6065

⁵ هو ابن سعد بن ثعلبة، الأمير العالم، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أبو عبد الله. ويقال: أبو محمد، الأنصاري الخزرجي، ابن أخت عبيد الله بن ربيعة. شهد أبو بدر، وولد النعمان سنة اثنتين هجرية، وسمع من النبي ﷺ. وعد من الصحابة الصبيان باتفاق. توفي سنة 64 هـ.

سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى¹. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"².

ينبغي عليك، يا طالب العلم، أن تمسك بمكارم الأخلاق جميعها، وعلى رأسها الصدق، وأن تبعد عن مساوئ الأخلاق جميعها، وعلى رأسها الكذب، فبالصدق تحصل على الخير، وتهدى إلى طريق الجنة، وبالكذب لا تحصل إلا الشر وتُقَاد إلى طريق النار، فعن عبد الله بن مسعود ؓ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: "إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا"³.

ثانياً: الإخلاص في طلب العلم

الإخلاص في القول والعمل، سراً وعلانية، ظاهراً وباطناً، مبدأ من مبادئ الإسلام العظيمة، وشرط لقبول أي عمل تعبدى يقوم به العبد نحو ربه ﷻ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [المر:2]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَكَأَيُّ شَرِكٍ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ"⁴.

¹ صحيح البخاري، رقم 6011

² صحيح البخاري، رقم 13، صحيح مسلم رقم 45

³ صحيح البخاري، رقم 6094

⁴ صحيح مسلم، رقم 2985

قال صاحب "المنازل" -رحمه الله- في تعريفه للإخلاص: انه "تصفية العمل من كُلِّ شَوْبٍ"¹. وفي شرحه لهذا التعريف، يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: "أي لا عمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزُّين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهربُ مِنْ ذَمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم، وقضائهم حوائجهم، أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب، الَّتِي عَقَدُ متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائناً ما كان"².

وقال الجنيد³ - رحمه الله- "الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله"⁴.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه. ويقول ابن جماعة الكِنَانِيّ -رحمه الله- في الإخلاص في طلب العلم: "حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعدَّ لأهله من رضوانه وعظيم فضله"⁵.

لذا أقول: إن الإخلاص في طلب العلم يكون بعقد النية الصادقة في العقل والقلب على أن يكون الغرض -ظاهراً وباطناً- من طلب العلم ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده،

¹ منازل السائر - (1 / 40). لعبد الله بن محمد الأوصاري الهروي، المعروف (بشيخ الإسلام)، المتوفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

² مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج2، ص100

³ هو ابنُ مُحَمَّد بن الجُنَيْد النُّهَارَنَدِي، ثم البغدادي القواريري، هو شيخ الصوفية في زمانه، ولد سنة 220هـ وتوفي سنة 268هـ.

⁴ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج2، ص99

⁵ تذكرة السمع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكِنَانِيّ، ص72

وخالياً من شوائب الرياء، والمباهاة، والمماراة، والكبرياء، والتعالي، والتكبر، والتفاخر، والرياسة، أو عرضاً من هذه الدنيا الفانية.

إضافة للخلق الحسن والأدب الرفيع، لا بد لطالب العلم أن يتغني من طلبه للعلم وجه الله تعالى فقط، وليس ابتغاء تحصيل درجة علمية عالية، أو طلباً لمركز في مؤسسة عريقة مشهورة، أو من أجل المال وحطام هذه الدنيا البالية، أو حتى يصرف إليه وجه الناس، أو يُقال عنه عالم. فقد صحَّ عن الرسول ﷺ عن جابر¹ أنه قال: "لا تَعْلَمُوا العلمَ لتبَاهوا به العلماء، أو تُماروا به السُّفهاء، ولا لتحتثروا به المجالسَ، فمن فعل ذلك فالنَّارُ النَّارُ"². وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يَتَغَنَّى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، يَعْنِي رِجْهًا³.

اعلم، أيها القارئ العزيز، انه إذا كنت مخلصاً في قولك وعملك، مبتغياً وجه الله ومرضاته، تحصل على مرادك الدنيوي، وتفوز بثواب الآخرة، إن شاء الله، أما إذا كانت الدنيا وحطامها أكبر هم لديك، لن تحصل إلا على ما كُتِبَ لك، وتكون تعيشاً في الدنيا والآخرة، والله أعلم. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَسَدَمَهُ⁴، لَهَا يَشْخَصُ⁵، وَلَهَا يَنْصَبُ، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَقْرَ بَيْنَ

¹ هو جابر بن عبد الله، ابن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، الإمام الكبير، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن، الأنصاري الخزرجي السلمي المديني النخعي. روى علماً كثيراً عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي عبيدة، ومعاذ بن جبل والزبير، وطائفة. وقيل أنه عاش 94 سنة، فعلى هذا، كان عمره يوم بدر 18 سنة، توفي سنة 78 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج3/ص 189)

² صحيح الجامع الصغير، وزيادته 7370

³ صحيح سنن أبي داود، رقم 3664

⁴ أي حزنه الذي يحزنه من أجل ما يفوته منها.

⁵ شَخَصَ بصره من باب خضع فهو شَخَصَ إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف، المختار

عَيْنَيْهِ، وَشَتَّتَ عَلَيْهِ ضِعْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّةً وَسَدَمَةً، لَهَا يَشْخَصُ، وَلَهَا يَنْصَبُ¹، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضِعْعَتَهُ²، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاغِرَةٌ رَاغِمَةٌ³.

واعلم، يا طالب العلم، انه بالإخلاص في طلب العلم ينشرح صدرك، وتتفتح بصيرتك، وتقوى ذاكرتك، ويزداد علمك، ويستقيم قولك، فقد قال مكحول⁴، أبو عبد الله بن أبي مسلم الهذلي رحمه الله: " ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"، وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوسواس والرياء.⁵ وكانى بأبي سليمان، وقد أوجد معادلةً بين الطمأنينة والسعادة من جهة، وبين الإخلاص من جهة، فما دام الإخلاص ينفي عن القلب عقارب الوسواس، وأفعى الرياء، فلا قلق ولا اضطراب، بل قلب مطمئن بذكر الله، سعيد بما حباه وأعطاه. فاقتران العلم بالإخلاص، هو الذي يمنحه السُّور الإيماني المتدفق في نهر الحياة، ويجعله المثمر الطيب على ضفافه الخضراء .

ثالثاً: الصبر والجلادة في طلب العلم

إن الصبر والجلادة فضيلتان يتحلى بهما كل من يريد أن يفوز بخير الدنيا وبثواب الآخرة، فالصبر على ترك المحرمات والمحظورات خير وقرب من الله ﷻ، والصبر على الطاعات والمسموحات خير وقرب من الله ﷻ، والصبر على تحمل المصائب والنوائب خير

1 يتعب

2 الضئعة العطار والجمع .. قال الأزهري الضئعة عند الحاضرة للنخل والتكرم والأرض .

3 صحيح الترغيب والترهيب للألباني، رقم 1707

4 هو عالم أهل الشام، روى علماً كثيراً عن طائفة من قدماء التابعين، عدلوا في أوساط التابعين، قيل أنه توفي سنة 112هـ.

5 مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ص 100

وقرب من الله ﷺ، وهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَيْبُلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]. وقال سبحانه تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ اقْصُوا الصَّلَاةَ وَاسْمُرُوا بِالْعُرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُعْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]. وقال ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْهَرْهُ هَجْرًا جَبِيلًا﴾ [الزمل: 10].

وفي فضيلة الصبر وثوابها، عَنْ صُهَيْبٍ¹، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"². وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ³، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى تَقَدَّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُذْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُغْفِرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أَغْلِي أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ".

وفي أهمية الصبر على السُّلَمَاتِ والمحن، روي عن عمر بن الخطاب⁴ أنه قال: "لو أن الصَّبْرَ والشُّكْرَ بَعِيرَانِ مَا بَالَيْتُ أَتِيَهُمَا رَكِبْتُ"⁵. وقال علي بن أبي طالب⁶: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له"⁷. وقال محمد بن علي بن الحسين: "الصبر صبران: فصبر عند المصيبة حسن جميل، والصبر عما حرم الله أفضل"⁸.

¹ هو صاحب رسول الله ﷺ، صُهَيْبُ بْنُ مَنَافٍ، أَبُو حَيٍّ التَّمَرِيُّ، وَيُعرف بِالرُّومِيِّ لِأَنَّهُ أَقَامَ فِي الرُّومِ مَدَّةً، كَانَ مِنْ كِبَارِ السَّابِقِينَ الْبَدْرِيِّينَ، مَاتَ فِي الْمَدِينَةِ سَنَةَ 38 هـ، قِيلَ أَنَّهُ عَاشَ 70 سَنَةً، وَقِيلَ 73 سَنَةً، وَقِيلَ 84 سَنَةً (انظر: سير أعلام النبلاء، ج2/ص17).

² صحيح مسلم رقم 2999

³ صحيح مسلم رقم 1053

⁴ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص324

⁵ بهجة المجالس وأئس المجالس لإبن عبد البر القرطبي، ج2/ص349

⁶ بهجة المجالس وأئس المجالس لإبن عبد البر القرطبي، ج2/ص350

فالبصير على ما قد يحلُّ بالإنسان من محن ومصاعب ونوائب هذه الدنيا الفانية أفضل من سؤال واستعطاف بعض الناس، والرضى بحظه ونصيبه من حطام هذه الدنيا البالية أقلَّ شدة وقسوة على قلبه من منٍّ وإحسان بعض الناس، فالبصير وقاية وحماية كرامة الإنسان من الوقوع في شباكٍ ذلٍّ وهوانٍ أصحاب المعروف، عافاني الله وإياكم، فهذا هو الإمام الشافعي رحمه الله، يحببنا بالبصير ويحذرننا من المنة¹:

لا تَحْمِلَنَّ لِمَنْ عَمَّنْ من الأنعام عليك مِنْهُ
واخْتَرْ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا واصْبِرْ فَإِنَّ الصَّبْرَ جُنَّةٌ
مَنْ الرِّجَالِ عَلَى الْقُلُوبِ بِ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ الْأَسِنَّةِ

والجدير بالذكر انه ظهرت مؤخراً ظاهرة الدراسة الجامعية بقروض ربوية في البلاد الغربية وبعض البلدان العربية للأسف. تقوم هذه الظاهرة السيئة على مبدأ أن يحصل الطالب على قرض من أحد المصارف الربوية ليدفع رسوم دراسته الجامعية ويصرف على معيشته خلال ثلاث أو أربع سنوات، وبعد أن ينتهي من دراسته ويبدأ بالعمل، يقوم بسداد القرض بنسبة فائدة قليلة مرتبطة بنسبة التضخم الاقتصادي للبلد، وشرط سداد القرض العمل وكسب المال، فإذا لم يعمل يسقط حق سداد القرض للمصرف بعد مضي خمسة وعشرين عاماً على بطالته، هذا في القانون البريطاني، والله أعلم، ما يحصل في بعض البلدان العربية التي لا تميز في تقليدها للدول الغربية بين الحلال والحرام.

انها محنة من أصعب المحن التي بدأ الطالب المسلم مؤخراً يعاني منها ومن مفزاتها، فهو أمام محنة شرعية، واقتصادية، واجتماعية، ونفسية، وأكاديمية. هل يرتكب كبيرة الربا، ويقع تحت ظلم مُرابي المصارف، ويعاني من همٍّ وغمٍّ هذه القروض التي ظاهرها "الفرج" والحريّة والسعة" وباطنها "الحسرة والضيق والعبودية" أم يبحث عن مخرج فيه النجاح والبركة والسعادة، إن شاء الله!!

¹ شرح ديوان الإمام الشافعي، ص 98

لا أحد يستطيع أن ينكر محنة الفقر وصعوبة الحاجة، لاسيما إذا أراد لأب أن يدخل ابنه أو ابنته لتدرس في الجامعة، لكن يقول مالك بن أنس رحمه الله: "إن العلم لن يُنال حتى يُذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بريعة من الفقر في طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يُلقى على مزابيل المدينة من الزبيب وعصارة النمر¹. فبالصبر والتقوى تفرج الأمور، وتتلج الصدور بفرج ورحمة ورضاء وبركة من الحي القيوم الذي بيده الخير كله، يعطيه من يشاء، ويحرمه من يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ تَالِعٌ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3].

لذا ينبغي على طالب العلم أن يتحلى بالصبر والطاعة في طلبه لعلومه، وأن يتسلح به، ويصده به مغريات النفس الأماراة بالسوء، ويتحمل ما يلاقيه من مشقة وتعب في سبيله، لأن الصبر على طلب العلم مفتاح باب النجاح والتحصيل العلمي، فقد قال الله ﷻ في قصة موسى ﷺ وهو يطلب العلم من العالم الصالح الخضر قائلا: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَعْلَمُ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عَلِمْتُ مَرُشِدًا ۖ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبِيرًا ۖ قَالَ سَجَدْتُ لِإِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 66-69].

ولقد ذكر أيضا في الصبر على التعلم أن عبد الله بن عباس ﷺ قال: "طَلَبْتُ الْعِلْمَ فَلَمْ أَجِدْهُ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْأَنْصَارِ، فَكُنْتُ أَتِي الرَّجُلَ فَأَسْأَلُ عَنْهُ يُقَالُ لِي نَائِمٌ فَأَتَوْسُدُ رِدَائِي، ثُمَّ اضْطَجَعُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الظُّهْرِ فَيَقُولُ: مَتَى كُنْتَ هَهُنَا يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَأَقُولُ مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، فَيَقُولُ: بَيْسَ مَا صَنَعْتَ، هَلَا أَعْلَمْتَنِي، فَأَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيَّ وَقَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَكَ"². ولاشك عندي أن ابن عباس، وهو، من هو؟! يقدر العلم في

¹ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي، ص 97

² سنن الدارمي، رقم 569

شخص مُعَلِّمُه، ومن هنا جاء هذا التوقير والاحترام ليدلا على قيمة العلم والعلماء يوم كائست الأُمَّة تقود دفة العالم، وتتوجه بها إلى شاطئ الأمان! فمتى تعود الأُمَّة إلى مفاهيمها وقيمها الأولى، ومن ثم تتسمن ركب الحضارة لتعيش البشرية بسلام وأمان؟

إن الصبر على غضب المُعَلِّم، أو تحمل سوء طبعه، أو تقبل عدم إنصافه في تقويمه العلمي للطالب، سمة قل من يتحلى بها من الطُّلاب في هذه الأيام، فبعضهم يخاصم مُعَلِّمُه لأنه اختلف معه في مسألة ما، وبعضهم يتشاجر معه من أجل درجة لم يعطه إياها في تقويمه لبحثه العلمي، وبعضهم يتجرأ على سبه وضربه إذا رُسِّيه في دراسته، فالصبر على هذا النوع من المُعلِّمين هو من مصلحة طالب العلم، لأنه هو الخاسر إذا لم يصبر على مُعَلِّمُه مهما كان طبعه وسوء خلقه¹، فعن الربيع بن سليمان² قال: "قال الشافعي: قيل لسفيان بن عيينة: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم؟ يوشك أن يذهبوا ويتركوك. قال: هم حمقى إذن مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي"³.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله في الصبر على المُعَلِّم الجاف الغليظ الطبع، وعلى مرارة تحصيل العلم والتَّعلُّم⁴:

اصْبِرْ عَلَى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ فَإِنَّ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طَوْلَ حَيَاتِهِ

¹ وهذا بلا شك! إذا سلّمنا للطالب بصحة وصفه لمُعَلِّمِه. وإلا فإن الغالب في مثل هذا هو الظلم والادعاء الأجوف.

² هو ابن عبد الجبار بن كامل، الإمام المحدث الفقيه الكبير، بقية الأعلام، أبو محمد المرادي، مولاهم المصري المؤذن، صاحب الإمام الشافعي، ونال علمه، وشيخ المؤذنين بجامع القسطل ومتولي مشايخ وقته. ولد في سنة 174 هـ وتوفي في سنة 270 هـ. (انظر: سير الأعلام ج12/ص587)

³ الجامع لأخلاق الراوي وآدب السامع للخطيب البغدادي، ج1، ص223

⁴ شرح ديوان الإمام الشافعي، ص59

اعلم انه مهما عظمت المصيبة، واشتدت المحنة، وضافت الدنيا في صدر صاحبها، فلا بد للشدائد أن تنجلي، وللهوم أن تنكشف، لكن في الأوقات المقدرة لها، فلا تنقضي قبلها ولا تستلتم بعدها، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله¹:

دَعِ الْأَيَّامَ تُفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطَبِّ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَلَا تُجْزَعْ لِحَادِثَةِ² اللَّيَالِي فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ³ جَلَدًا⁴ وَشِمْثَكَ السَّمَاحَةُ وَالْوَفَاءُ

واعلم انه مهما بلغ من شدة حادثتك، أن هناك من هو أشد حادثة، ومهما طالت مصيبتك، فإن هناك من عانى أكثر منك، فعليك أن تتأسى بأصحاب الصبر الجميل، وتتسلّى بعبر الآخرين، ففي ذلك راحة القلوب وانفراج الهموم. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: "أَصْبِرُوا بِرُؤْيِ الْغَيْرِ⁵ تَسْعَ قُلُوبِكُمْ"⁶. فقول عمر رضي الله عنه هنا، هو دعوة للمسلم بأن ينظر إلى من هم دونه غنى وسعة، بل إلى من حلت به نوازل الدهر، وتغيّرت به الأحوال، وعندها يرى مابه من نعم الله فيتسع قلبه بعد ضيق، وينشرح صدره، ويسعد.

ولعل في قول الإمام الشافعي⁷ رحمه الله، ونحن مازلنا نبحث في الصبر والجلد الذي يحتاجه طالب العلم، لعل فيه دفعة في هذا الاتجاه، لاسيما أن هذه الأبيات مما شاع، وحفظه الكثير، لما فيه من وثوق كبير بعاقبة الصبر الجميلة والتي تنسي المعاناة والآلام بل ذهب فيها

¹ ديوان الإمام الشافعي، ص27

² حادثة الليالي: تقلبات الحياة ونوازلها

³ الأهوال: شدة النوازل التي تثير الرعب

⁴ جلدًا: شديد الصبر

⁵ المعجم الوسيط - (2 / 668): (الغَيْر) غير الدهر وأحواله وأحداثه المتغيرة يقال لا أراني الله بك غيرا.

⁶ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص332

⁷ ديوان الإمام الشافعي، ص37

الإمام الشافعي إلى أن المخرج من المصيبة كامن فيها، والصبر هو الذي يقرنا من هذا المخرج ويدلنا عليه مادام هذا الصبر مقترناً بالتطلع إلى ما عند الله، والرجاء فيه :

وَكُرْبٌ نَازِلَةٌ يَضِيقُ لَهَا الْفَتْسَى ذَرْعاً وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ خَلْقَاتُهَا فُرِجَتْ، وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقال رحمه الله:

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرَجَا مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ لَمْ يَنْلُهُ أَذَى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وفي ذكر صديق العيش والصبر على الفقر والحرمان، روي عن الإمام الوخشي¹ أنه قال: "لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره فضاقت علي النفقة، وبقيت أياماً بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله علي"².

لعلي استرسلت أكثر مما ينبغي في الحديث عن صفتي الصبر والجلد. نعم... فأنا أشعر بأهمية بالغة لهاتين، في مسيرة الحياة كلها، وأشعر بأهميتهما أكثر وأكثر لطالب العلم، فهما المدد الحقيقي بعد الله للاستمرار في هذه العملية الصعبة والمعقدة والممتدة في الزمان على عمر الإنسان من المهد إلى اللحد، والتي أنيطت بها الحضارة الإنسانية، ومن قبل أنيط بها صلة المخلوق بخالقه، ومع علو الأهداف، يزداد الجهد، ومعهما معا أنت وأنا بحاجة إلى الجلد، بحاجة إلى الصبر!

¹ الوخشي: هو الإمام الحافظ المحدث الزاهد، أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن أحمد بن جعفر البلخي، الوخشي، ووخ قرية من أعمال بلخ، ولد سنة 385هـ وتوفي سنة 441هـ. (انظر سير أعلام

النبله، ج18/ص365

² تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناشي، ص178

رابعاً: التواضع في طلب العلم

سُئِلَ الفضيل بن عياض¹ - رحمه الله - عن معنى التواضع، فقال: "أَنْ يَخْضَعَ لِلْحَقِّ، وَيَنْقَادَ لَهُ، وَيَقْبِلَهُ مَنْ قَالَهُ"²، وقال الجنيد - رحمه الله - : "هو خفض الجناح، ولين الجانب"³. أما الكير، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "الْكِبَرُ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ، وَعَمَّطَ النَّاسَ"⁴. أي جحد وإبطال وعدم تواضع لحق الله في توحيده وعبادته من جهة، واحتقار وازدراء لحق الناس وعدم شكر وتقدير النعمة من جهة أخرى.

التواضع ضد التكبر، والتواضع سمة حسنة وعمودة، والكبر خصلة سيئة ومذمومة، فقد أثنى الشرع على المتواضعين، وذم المتكبرين الفخوريين، ففي المتواضعين، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ بَرَّدَ مَنْكَبُكَ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقُوَّةٍ يَجْعَلُ مِنْ دُونِهَا وَلَاحِقَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، وفي المتكبرين الفخوريين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَكَانَ تَمَشُّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 19]، وقال ﷺ: ﴿إِنَّا بِلَيْسِ أَبِي وَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنْفِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"⁵. وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:

¹ هو ابن مسعود بن بشر، الإمام للقوة الثابت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي البزيعي الخزيماني، ولد بسمرقند وارتحل في طلب العلم، مات سنة 187 هـ في خلافة هارون الرشيد، وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً، كثير الحديث. (انظر: سير الأعلام، ج 8/ص 421)

² مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج 2، ص 337

³ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج 2، ص 337

⁴ صحيح الجامع الصغير وزيلته للألباني، ج 2، رقم 4608

⁵ هو عياض بن حمار بن ناجية بن عقاب المجاشعي، صحابي له أحاديث في صحيح مسلم وسنن أبي داود، والقزويني، سكن البصرة، روى عنه طائفة من التابعين، علش إلى حدود الخمسين هجرية. (انظر المرجع)

⁶ صحيح مسلم رقم 2865

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ غَدًا؟ عَلَى كُلِّ هَيْنٍ، لَيْنٍ، قَرِيبٍ، سَهْلٍ"¹.

وفي هذا المقام، يُذكرنا الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله بشمائل تواضع نبينا محمد ﷺ إذ يقول: "وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط. وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسَّلام، ويحجب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء. وكان ﷺ هين المونة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لئِنْ الجانب لهم"².

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حكمته"³.

قال أبو حاتم البستي⁴ رحمه الله: "أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة، ولا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر على

¹ صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، ج1، رقم 2609

² مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج2، ص336

³ الحكمة: حديدة تواضع في فم الفرس تثبت للجمل، ومعناها: رفع الله رأسه. مختار الصحاح - (1 / 167): الحكمة من العلم والحكيم العالم وصاحب الحكمة والحكيم أيضا المعتن للأمر.

⁴ هو محمد بن حبان البستي، ويقال له ابن حبان: مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد في بستان (من بلاد سجستان) وتقل في الاقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة. وتولى قضاء سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي عام (354 هـ) في عشر الثمانين من عمره. وهو أحد للكثيرين من التصنيف. من كتبه (روضة العقلاء - ط) في الادب، (انظر الأعلام للزركلي - (6 / 78).

النَّاسَ أَحَدٌ إِلَّا بِإِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ، وَعَجِبَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ أَحَدٌ حَسَادَ عَقْلِهِ، وَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا تَكَبَّرَ عَلَى مَنْ دُونَهُ إِلَّا ابْتِلَاهُ اللَّهُ بِالذَّلَّةِ لِمَنْ فَوْقَهُ"¹.

فإذا كان التواضع سمة من سمات الأنبياء والمرسلين والصالحين، فالأحرى بطالب العلم أن يكون متواضعاً، هيناً، ليناً، حليماً، بشوشاً في طلبه للعلم وسعيه وراء المعرفة الثافعة، قال الإمام الغزالي² رحمه الله: "لا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع"³.

يعاني الطالب العربي هذه الأيام، إلا ما رحم ربي من قلة التواضع والاحترام لمُعَلِّمِهِ أو مَنْ يأخذ منه العلم، فتراه يتكبر ويتجبر في تلقيه العلم ولاسيما في حال تعاطيه الدروس الخصوصية، فهو يشتري العلم والمُعَلِّم بماله، فلا حاجة للتواضع ولا للشكر، والطالب الجامعي الذي يدرس في الجامعات الخاصة يتوقع النجاح بدون حمد ولاشكر لأنه يدفع الرسوم الباهظة لدراسته، هذا وهو مازال طالباً، فكيف هو عندما يحصل على الدرجة الجامعية، أو درجة الماجستير أو الدكتوراه! تراه كالتطاووس يتبختر ويختال في مشيته من شدة العجب والكبرياء، فهو الأمر الناهي وكأنه أصبح العالم العلامة، لا قبله ولا بعده، عافاني الله وإياكم من آفة الكبر والتجبر، وجعلنا من المتواضعين الشكورين.

لذا ينبغي على طالب العلم العاقل، مهما كثر علمه، وحصل على درجات علمية عالية، أن يتحلى بالتواضع والسكينة والوقار في طلبه للعلم وفي تعامله مع مُعَلِّمِهِ، ومع من يشرف على دراسته، حتى يبارك الله عزَّ وجلَّ فيه ويعلمه،

¹ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص52

² هو الشيخ الإمام أبو حامد محمد الغزالي، ولد سنة 450 هـ، وتوفي سنة 505 هـ. أشهر كتبه: 'إحياء علوم الدين'. (انظر: سير الأعلام ج19/ص322)

³ تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة للكتاني، ص88

خامساً: الرغبة والترحال في طلب العلم

يُعدُّ دافع الرغبة من أقوى الدوافع التي تدفع بالإنسان لأن يقوم بفعل ما، لتحقيق غرض ما، فقيام العبد في منتصف الليل لكي يتجهد لله ﷻ في صلاته تعبير عن رغبة قوية عند هذا العبد الصالح في التقرب إلى ربه ﷻ حتى ينال رضاه وجنته، وكذلك سهر طالب العلم طَوَالَ¹ الليل وهو يدرس أو يبحث في مسألة علمية نافعة دليل واضح عن رغبة هذا الطالب الشديدة في التعلُّم وكسب المعرفة من أجل أن ينجح في دراسته ويحصل على الدرجة العلمية التي كان يريد.

فمن الصفات الحميدة والحاصل المميَّزة التي تميَّز السُّعُّمُ النشيط اليقظ الحذق عن غيره من طلبة العلم؛ الرغبة الجامعة، والحب الشديد لما يتعلَّم، فلا تعلُّم ولا تحصيل لمن فقد الرغبة في السُّعُّم، ومما أكثرهم بين طلاب هذا الجيل، جيل يذهب طلابه إلى المدرسة متأخرين غير مباليين، وجيل يذهب طلابه إلى الجامعة بدون تحمس ورغبة في التعلُّم، كلهم يريدون التعلُّم لكن سلوكهم ورده فعلهم للعملية التعليمية - إلا مارحم ربي - لا توحى بأن لديهم الرغبة المطلوبة في طالب العلم.

لذا ينبغي على طالب العلم العاقل أن يحب العلم حباً شديداً، ويرغب في زيادته كثيراً، ويكره الملل والكسل والتكاسل والتواكل في طلبه للعلم، ويسعى إليه بكل شغف وشوق، لأن كل ذلك يساعده في تحصيله للعلم وكسبه للمعرفة، فقد كان السُّلَفُ الصَّالِحُ يتسابقون لحلقات العلم، فعن سعيد بن رحمة الأصبحي قال: "كنت أسبق إلى مجلس عبد الله بن المبارك بليل، معي أقراني، لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ، ف قيل له: لقد غلبنا عليك هؤلاء الصبيان، فقال: هؤلاء أرجى عندي منكم، أنتم كم تعيشون؟ وهؤلاء عسى الله أن يبلغ بهم. قال سعيد: فما بقي أحد غيري"².

¹ مقاييس اللغة - (3 / 340) يقولون: لا تَكَلِّمهُ طَوَالَ الذَّهْرِ .. والطَوَّال: جمع الطَّوِيل.

² الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص312

ومن مظاهر الرغبة في التَّعَلُّم تفرغ الطالب للعلم منذ طفولته، مروراً بشابه، حتى شيخوخته، لا يشغله شاغل، ولا يلهيه لعب، ولا كسب، ولا تجارة عن تحصيله للعلم، فهو يكرس طاقته الفكرية والجسدية في خدمة العلم، ويقضي معظم وقته ليشرب من ينبوع العلم النافع والمعرفة، فقد نقل الخطيب البغدادي في الجامع عن بعضهم قال: "لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وحرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كله وإن كانت فيه مبالغة فالمقصود به انه لابد فيه من جمع القلب واجتماع الفكر"¹، أي أن يتحلى طالب العلم بالرغبة الجاحقة لينال الفكرة النافعة.

ومن علامات الرغبة في طلب العلم السفر والترحال إلى أبعد الأوطان، تاركاً وراءه الأهل والأصدقاء، شغفه لقاء العلماء، وهم تحصيل العلم النافع والحكمة المفيدة، فعن مالك بن أنس أن سعيد بن المسيب² -رحمه الله- قال: "إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد"³. وقال الشعبي⁴ -رحمه الله-: "لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة مارأيت أن سفره ضاع"⁵.

إن السفر إلى بلاد نائية بعيدة للقاء عالم صالح زاهد، أو لطلب علم نافع لم يتيسر لصاحبه إلا في مكان بعيد، سنة مارسها طلبة العلم منذ زمن بعيد، وهذا ما نراه جلياً في قصة موسى عليه السلام وهو يطلب العلم من الصالح العالم الخضر، قال ﷺ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ

¹ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتكلم لإبن جماعة الكتاني، ص 74

² هو ابن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، الإمام العلم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. ولد لستين مضتاً من خلافة عمر رضي الله عنه، وتوفي سنة 93 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج 4/ص 217)

³ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج 1، ص 94

⁴ هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كَبَر: قيل من أقبال اليمن - الإمام، علامة العصر، أبو عمرو الهذلي ثم الشعبي. مولده في إمرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لست ستين خلت منها، ومات سنة 105 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج 4/ص 294)

⁵ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج 1، ص 95

أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عُلِّمْتُ رَشِداً ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٧﴾ قَالَ سَجْدَتُ لِرَبِّي لَإِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. [الكهف: 66-69].

وعن أبي بن كعب^١ : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يارب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكنتك، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله في مكنتك، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكنت فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غدائنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً، قال: ولم يجد موسى النصيب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: أرايت إذ أوفينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً، فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً، قال: رجعا يقصبان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوباً، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً قال: إنك لنتستطيع معي صبراً، يا موسى إني على علم من علم الله علمني لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، فقال موسى:

^١ هو ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمر بن مالك بن النجار. سيد القراء. أبو منذر الأنصاري النجاري المدني المقرئ البصري، شهد العقبة، وقرأ، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ، وعرض على النبي ﷺ، وحفظ عنه علماً مباركاً، وكان رأساً في العلم والعمل ﷺ، مات في خلافة عثمان ﷺ سنة 32 هـ. (النظر: سير الأعلام، ج1/ص389)

ستجدي إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فقال له الخضر: فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء، حتى أحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعفروا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرأ، قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا، قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فيينا هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: أقتلت نفساً زاكية بغير نفس، لقد جئت شيئا نكراً، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا، قال: وهذا أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبي قد بلغت من لدني عذراً، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لا تأخذت عليه أجراً، قال: {هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً}. فقال رسول الله ﷺ: "وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما"¹.

ثمعد قصة تكليم الله موسى ﷺ مع الصالح العالم الخضر درساً من أعظم وأجود وأخلص الدروس في طلب العلم، وفي ماهية علاقة المتعلم مع معلمه. لها درس يشجع للسفر وللترحال إلى لأراضي البعيدة من أجل تلقي العلم من عالم صالح عالم عامل،

ومثال حي لتواضع المتعلم في طلبه للعلم مهما كثر علمه وعلو مقامه وفي الصبر والجلادة من أجل تحصيل العلم النافع والحكمة المفيدة.

وفي السفر والترحال عن الأوطان لأجل علم يُطلب أو لأجل غلى يُبتغى فوائد عظيمة لحصنها لنا الإمام الشافعي رحمه الله قائلاً¹:

تَغْرُبُ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرٌ فَنِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفْرُجُ هَمُّهُ، وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصَحْبَةُ مَاجِدِ

شريطة أن يكون العلم أو التخصص الذي يريده غير موجود في بلده، ينبغي على الطالب العربي أن يتحلى بصفات مُميّزة حتى يكون مؤهلاً للسفر إلى البلاد البعيدة، سواء كانت بلداناً عربية أو أجنبية، من أجل الدراسة، ويكون سعيداً، ومشروح الصدر، وموفقاً في دراسته، إن شاء الله، أذكر منها مايلي:

1. تقوى الله ﷻ في السر والعلانية.

2. الحفاظ على الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان.

3. كثرة الاستغفار وذكر الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

4. الحب الشديد والرغبة الجارحة لما يريد أن يتعلمه.

5. التفرد الكامل عن أية شواغل قد تؤثر سلبياً على دراسته.

6. الصبر والجلادة على مرارة البعد عن الأهل والأصدقاء والوطن.

7. اختيار الرفيق الصالح التقي الورع الذكي، وهجر الرفيق الفاجر السيء.

8. التواضع والقرب واللين والسهولة في تعامله مع أصدقائه ومعلمه.

9. العمل الجاد الدؤوب المثمر المبارك، بإذن الله.

10. التنظيم والاستثمار الجيدين لأوقات التعليم والتعلم.

¹ شرح ديوان الإمام الشافعي، ص44

ولأهمّية السفر والترحال في حياة طالب العلم هذه الأيام خصّصت الفصل السادس من هذا الكتاب ليكون دليلاً مساعداً للطالب العربي الذي يريد أن يدرس خارج بلده، ولاسيّما في أوروبا الغربيّة، وبالتحديد المملكة المتحدة، إن شاء الله.

سادساً: التحليّ بالجديّة في طلب العلم

إن الواقع الحساليّ لسلوكيات وتصرفات الطالب العربيّ في الفصل الدُرَاسيّ تقليد أعمى لما يحصل في قاعات التّعلّم والتّعلّم في المدارس أو الكليات أو حتى الجامعات الغربيّة من جهة، وتقيّد جائر لصلاحيات وممارسات المُعلّم من جهة أخرى، وهذا ما جعل الطالب العربيّ — إلا ما رحم ربي — يتخلّى عن كثير من أخلاقيّات وسلوكيات جميلة كان يتحلّى بها ويمارسها وهو على المقعد الدُرَاسيّ، فتراه الآن يتأخّر عن حصصه الدُرَاسيّة بدون مبالاة لمشاعر مُعلّمه أو زملائه، يدخل متى شاء ويخرج متى شاء، يتثائب وينام أثناء السّدرس أو المحاضرة، يهزّج ويمرّج¹ في الفصل إثارة للهو والمزاح والضحك، يتهجم على زملائه حيناً، ويمرّج، مُعلّمه حيناً، تحت ستار حرية الطالب في تلقيه للمعلومة.

إن عدم المبالاة والاستهتار والعبث هي من صفات طالب العلم الفاشل في دراسته وتحصيله العلميّ. والجديّة في طلب العلم ميّزة طبيعيّة لطالب العلم النّاجح، لأنّ العلم لا يتحقّق مع المزاح والهزل والضّحك، فلكي يحصل الطّالِب على العلم والمعرفة بعمقٍ وفعاليّة، لا بدّ أن يكون جاداً في دراسته وتعلّمه.

وفي حديث أبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أوصني. قال: "أوصيك بتقوى الله، فانها رأس الأمر كله". قلت: يا رسول الله! زدني. قال: "عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله، فانه نورٌ لك في الأرض، وذخر لك في السماء". قلت: يا رسول الله! زدني.

قال: "إِيَّاكَ وكثرة الضحك، فانه يُميت القلب، ويذهب بنور الوجه"¹، أي انه يُميت العلم والإيمان الذي في القلب. فدين الله جِدُّ لا يقبل الهزل، ولا يُمكن أن يُؤخذ إلا بقوة وجد. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ² عَهِدَ أَنَّهُ قَالَ: "مَا كَانَ ضُحْكُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا تَبَسُّمًا"³.

وعن ابن وهب - رحمه الله - انه قال: سمعت مالكا يقول: "إن حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتَبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَى قَبْلَهُ"⁴. وعن علي ع انه قال: "إذا تعلمتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك وباطل، فتمحجه القلوب"⁵.

وقد صحَّ انه ضحك رجلٌ عند هشام الدستوائي⁶، فقال له هشام: "يا فتى تطلب العلم وتضحك؟ فقال: أليس الله أضحك وأبكى؟ فقال هشام: فإِنَّكَ إِذَنْ"⁷.

وقال الخطيب البغدادي⁸ - رحمه الله -: "يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب والعيب والتبذُّل في المجالس، بالسَّخَفِ والضَّحْكِ والقَهْقَهَةِ وكثرة التناذر، وإدمان المزاح

¹ صحيح الترمذي والتهذيب 2233

² هو الصحابي، العالم، المنعم، شيخ المصريين، أبو الحارث الزنبيدي المصري. شهد فتح مصر، وسكنها، فكان آخر الصحابة بها موتاً. له جماعة أحاديث. روى عنه ثمة. وقد طال عمره، وعمي، ومات بقرية سقط للثور من أسفل مصر في سنة 86 هـ.

³ سنن الترمذي، رقم 3642

⁴ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 156/1

⁵ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 156/1

⁶ هو الحافظ، الحجة، الإمام، الصادق، أبو بكر، هشام بن أبي عبد الله سنبر البصري الرضيعي، مولا هم. صاحب الثواب الدستوائية. مات سنة 152 هـ. عاش 78 سنة. (انظر: سير الأعلام، ج7/ص149)

⁷ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 157/1

⁸ هو الإمام الأوح، العلامة الشافعي، الحافظ النافذ، محدث الوقت أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفاظ. ولد سنة 392 هـ وتوفي سنة 463 هـ.

(انظر: سير الأعلام، ج18/ص270)

والإكثار منه، فإلما يُستحاز من المزاح يسيره، ونادره، وطريفه الذي لا يخرج عن حدّ الأدب، وطريقة العلم. فأما مُتَّصِلُهُ، وفاحشه، وسخيفه وما أُوتِرَ منه الصدور، وجَلَبِ الشَّثْرِ، فانه مدموم. وكثرة المزاح يضع من القدر، ويزيل المروءة.¹

وفي التثاؤب أو النوم خلال الحصّة الدَّرَاسِيَّةِ أو المحاضرة العلميّة، أقول لطالب العلم، إياك والنوم أو التثاؤب أو التقاعس وأنت في حضرة العلم، فلقد نظر سلفنا إلى هذه الحالة، بالكثير من التشنيع، والاشتمزاز، والرفض، وإليك هذا الخير لتتضح الصورة، ونستجلي نظرة القوم إلى من أحلّه النوم: سأل رجلٌ خالدَ بنَ صفوان²: " مالي إذا رأيْتُكم تذاكرون الأخبار، وتندارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟ قال: لأنتك حمارٌ في مسلاخ³ إنسان⁴، وهنا علينا أن نُمَيِّز بين قسوة إجابة ابن صفوان، فلا نقرها بحال، ولا نعلّقها تربوية - وقد تكون في إطار المزاح وطرح التكلّف فيما بين الإخوان¹ - ومع هذا فإننا لانراها منفكّة عن دلالتها الأصلية، في أن أشدّ ما ينجش هو أن يتبدّد إحساس طالب العلم، فيغلب عليه النوم، في وقت ينبغي أن يكون أكثر يقظة وإحساساً، وأكثر فهماً واستيعاباً، بل أكثر تفاعلاً مع مادته العلميّة، ومع انطلاقته بها في ميادين الحياة! كما وصف طرفة بن العبد نفسه في مُعلّقته:⁵

¹ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 156/1

² هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهمم التميمي المقرّي. كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. ولد ونشأ بالبصرة ولم يُعرف سنة ولادته. مات سنة 133هـ. كان معروفاً بقوة فصاحته وقدرته على مدح الشيء وذمه بطريقة لم يسبقه ذويه فيها.

³ مسلاخ: جلد إنسان

⁴ كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2، ص108

⁵ الصنرب: الرجل الخفيف اللحم. والعرب تتمدح بخفة اللحم؛ لأن كثرت داعة إلى الكمل والنقل، وهما يمنعان من الإسراع في دفع الملمات وكشف المهمات، وهو خشن؛ أي: الرجل الذكي اللطيف الرأس. نَحَال في الأمور بخفة وسرعة، كما أن يتقطفه وكذا ذهنه بسرعة حركة رأس الحية وشدة توقّده. شرح المعلقات السبع للزوزني - (معلقة طرفة).

أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونه خَشَّاشُ كُرَّاسِ الْحَيَةِ الْمُتَوَقِّدِ

سابعاً: التأكيدُ من يُؤخذ العلم

إن مصطلح "الشَيْخ" الذي يُؤخذ عنه العلم كاد أن يكون من صفات وميزات طلاب العلم السابقين الأولين، وأصبح مصطلح "المدرس أو المُعَلِّم الخاص" أو "المشرف الأكاديمي" هو المألوف حالياً لدى الطلاب والتربويين والآباء، وشتان بين هذين المصطلحين من حيث شمولية مفهوم ومعنى وغرض وتطبيق وجودة العملية التعليمية الناتجة عن كل منهما. لا أريد أن أتكلم عن الفرق بين هذين المصطلحين وعن أسباب انقراض مصطلح "الشَيْخ" واستبداله بمصطلح "المدرس أو المُعَلِّم الخاص" أو "المشرف الأكاديمي"، وإنما أريد أن ألفت انتباه القارئ أن الطالب العربي هذه الأيام ضائع محتار، لا يعرف أهمية من يأخذ علمه؟ فتارة تراه يأخذ دروساً مع مُعَلِّمه في المدرسة دون النظر إلى سَمَتِهِ، أو حاله، أو هيئته، بغية استعطافه معه في دراسته في المدرسة، وتارة يسمع بمشرف رسومه التدريسية عالية، فيأخذ دروساً عنده بغية السمعة والشهرة، وتارة تجده يصاحب "علماً" بغية كسب العلم الطبيعي¹ أو العلم النقلي² ظناً منه بأنه عالم عامل دافع مخلص في علمه وعمله!

إن أهمية حصال وميزات "من يُؤخذ عنه العلم في عمليّة التعلُّم؟"، سواءً كان العلم طبعياً أم نقلياً، قد أكّد عليها الشرع، وحتى عليها السابقون الأولون، والمتأخرون اللاحقون، فمن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ انه قال: "سيكون في آخر أمتي أناسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ ما لم تَسْمَعُوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم"³. وصح عن محمد بن سيرين انه قال: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"⁴. وقال حماد بن زيد: "دخلنا على

¹ هو علم الكونيات مثل علم الطب والهندسة والإنسانيات وغيرها من العلوم.

² هو علم قال الله ﷻ، قال الرسول ﷺ، قالت الصحابة رضوان الله عليهم، وكل ما نُقل عنهم.

³ صحيح مسلم (المقدمة) رقم 6

⁴ صحيح مسلم، المقدمة ص 24

أنس بن سيرين في مرضه فقال: اتقوا الله يا معشر الشباب، انظروا من تأخذون هذه الأحاديث، فانها من دينكم¹. وقال البخاري: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟"²

لذا ينبغي على طالب العلم الناجح أن يتأكد "مَنْ يُؤْخَذُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ؟"، فليس كل من ادعى نفسه معلماً، أو مشرفاً أكاديمياً، أو مؤدباً أو عالماً يُؤْخَذُ عَنْهُ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ، وليس كل من كتب مقالاً أو كتاباً يُؤْخَذُ مِنْهُ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ، وليس كل من فتح "دُكَّاناً" في شبكة الانترنت أصبح مرجعاً يُؤْخَذُ مِنْهُ وَلَا يُعْقَبُ عَلَى مُصَدِّقَتِهِ "بِضَاعَتِهِ"، فلا بد للعالم — سواء كان معلماً في مدرسة، أو محاضراً في كلية، أو أستاذاً في جامعة، أو مؤدباً أو شيخاً بمعناها السلفية — أن يتحلى بالسَّمْتِ الْحَسَنِ، وَالْخُلُقِ الْكَرِيمِ، وَالصِّدْقِ فِيمَا يَقُولُ، وَأَنْ لَا يَكُونَ سَفِيهًا، فَاجِرًا، كَذَّابًا، صَاحِبَ هَوًى وَنَزْوَاتٍ ذَاتِيَّةٍ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: "لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ، وَيُؤْخَذُ مِمَّنْ سِوَى ذَلِكَ: لَا يُؤْخَذُ مِنْ سَفِيهٍ مُعَلِّنٍ بِالسَّفْهِ وَإِنْ كَانَ أَرَوًى النَّاسَ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ كَذَّابٍ يَكْذِبُ فِي أَحَادِيثِ النَّاسِ إِذَا جُرِّبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَنْهَمُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا مِنْ صَاحِبِ هَوًى يَدْعُو النَّاسَ إِلَى هَوَاهُ، وَلَا مِنْ شَيْخٍ لَهُ فَضْلٌ وَعِبَادَةٌ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يُحَدِّثُ"³.

يقول ابنُ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيِّ — رحمه الله: "انه ينبغي للطالب أن يقدم النظر، ويستخير الله فيمن يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْهُ، ويكتسب حسن الأخلاق والأدب منه، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفته، واشتهرت صيانتته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل"⁴.

¹ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ص 130

² الآداب الشَّرْعِيَّةُ لِابْنِ مَطْلُحٍ الْمَقْدِسِيِّ، ص 251

³ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 139\1

⁴ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكنتاني، ص 86

ثامناً: كراهة الاستحياء في طلب العلم

احتلّط مفهوم الحياء على بعض طلبة العلم، فمنهم من يستحي ويُعرض عن المشاركة في فعاليات حصّة دراسيّة أو محاضرة علميّة بمحجة الحياء، وبعضهم من تراه لا يخلج من ازدراء أو احتقار عمل زملائه في الدّراسة أو السُّخرية أو الضُّحك على خطأ أو زلّة لسان قد يرتكبها معلّمه أو مشرفه أو مؤدبه أو حتّى شيخه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريفه للحياء: "الحياء مشتق من الحياة، فإنّ القلب الحي يكون صاحبه فيه حيّاً، فيه حياء يمنعه من القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب"¹.

لذا أقول إنّ هناك نوعين من الحياء؛ حياءٌ محمود، وحياءٌ مذموم. فالحياءُ المحمود هو الذي يمنع صاحبه من الوقوع في المخطّور، وما سواه فهو مذموم لأنّه أقرب إلى معنى الخجل منه إلى الحياء.

لقد أثنى الشرع على الحياء المحمود، وجعله خصلة من خصال الإيمان بالله ﷻ، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً مِنَ الإيمانِ" ². وأعلم أيها القارئ، ان الحياء كله خير ولا يأتي إلا بخير، فعن قتادة، قال سمعتُ أبا السّوّار، يُحدّثُ انه سمعَ عُمَرَ بْنَ حُصَيْنٍ، يُحدّثُ عن النبي ﷺ انه قال: "الحياءُ خيرٌ كُلُّهُ"³.

ولله دُرٌّ هذا الأعراي الذي قال في وصفه لرجل حيي: "لا تراه الدهرُ إلا كأنه لا غنى به عنك، وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبتَ غفر وكأنه المذنب، وإن أسأتَ إليه أحسن وكأنه المسيء"⁴. ولني لأرى فيه دليلاً رائعاً في العلاقات والتواصل، والتي يأتي بها الحياء، فإن شخصاً بهذه المواصفات؛ يتهم نفسه، وهي دائماً في إطار اللوم والنقد الذاتي والرغبة في

¹ مكارم الأخلاق لابن تيمية ص 73

² صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم 57

³ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم 61

⁴ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ص 230

اعتدالها واستقامتها وتواصلها. وهو خلال ذلك يتسع صدره لأخطاء الآخرين، والتماس العذر لهم فيما وقع منهم، بل يمتد به طيب أخلاقه، ليشعرهم بأن هذا الخطأ هو صاحبه، وليسوا هم! ما أظن أن المخطئ الحقيقي إلا أكثر ندماً على ما بدر، وأكثر رغبة في الإقلاع عن خطئه. وبالعكس هذا تماماً فيما لو أصرت على لومه وإدانتته، فلسوف تصنع منه بطلا مستبسلًا في الانتصار لنفسه بحق، وبغير حق! أقف إجلالاً لهذه الذخائر في تراثنا العظيم، كما تكتنفي أشد الحسرات وأمني تَغَيَّب عن تراثها، أو تُغَيَّب!! .

وبالأسلوب نفسه حذر الشرع من الحياء المذموم، وطلب من طالب العلم أن لا يستحي من المطالبة بحقه أو من السؤال إذا أشكل عليه الأمر، ولا سيما إن تعلق الأمر بشؤون ديننا الخفيف، ففي صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "نعم النساء نساء الأنصار، لم يمتعهن الحياء أن يتفقهن في الدين"¹. وعن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: "إذا رأت الماء". ففطمت أم سلمة، تعني وجهها، وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: "نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها وكذاها"²، وعن علي عليه السلام قال: كنت رجلاً مذاءً، فامررت المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله، فقال: "فيه الوضوء"³.

هذا بعض من موقف الشرع من مسألة الحياء في طلب العلم، فأحرى بالمتعلم الحريص على كسب العلم النافع، أن لا يستحي من السؤال بتلطف وأدب إذا التبس عليه فهم مسألة ما، أو حل مشكلة ما، لأن الحياء يمثل هذه الأمور يورث الجهل والخسرة والاكتئاب لدى المتعلم، فعن مجاهد بن جبر المتوفى سنة 103 انه قال: "لا يتعلم العلم

¹ صحيح البخاري ص 50

² صحيح البخاري رقم 130

³ صحيح البخاري رقم 132

مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٍ"¹. وقال الحسن: "من استتر عن الطلب بالحياءِ لَيْسَ لِلْجَهْلِ سِرّاً، فَفَطِّمُوا سَرَائِلَ الْحَيَاءِ، فَإِنَّهُ مَنْ رَقَّ وَجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ، وَقَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ الْعِلْمَ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَالسُّتْرِ"².

تاسعاً: اللباقة والكياسة في طلب العلم

أكد الشرع على أهمية الرِّفْقِ والتَّجَمُّلِ في الطلب لما فيهما من خير الدنيا والآخرة، فعَنْ أَبِي حُسَيْدٍ السَّاعِدِيِّ³، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ مُسَرَّرٍ لِمَا كُتِبَ لَهُ"⁴. وَعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"⁵.

الرفق، والتجمل، واللباقة في طلب العلم، وحسن التصرف مع المعلم، هي من أهم صفات وخصال طالب العلم الناجح، وبها يحصل على مبتغاه العلمي، وبها يرضي معلمه، ويكسب وده وعلمه، وبها يزداد علمه، وتُصقل معرفته، وهذا ما نراه جلياً في قصّة موسى عليه السلام وهو يطلب العلم من الصّالح العالم الخضر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رِشْدًا﴾ قال إِنَّكَ لَنْ تَسْتَعْلِمَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿قَالَ سَجِدُنِي إِذَا شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 66-69].

¹ تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة اللكناني، ص 144

² كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ص 111

³ أبو حميد الساعدي هو الأنصاري المدني، قيل اسمه عبد الرحمن، وقيل المنذر بن سعد، من فقهاء أصحاب النبي ﷺ روى عنه جابر بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وعمر بن مسلم اللزقي، وغيرهم. توفي سنة ستين. وقيل توفي سنة بضع وخمسين. (انظر: سير الأعلام، ج 2/ص 481)

⁴ صحيح الجامع الصغير وزيلته للألباني، ج 1، رقم 157

⁵ صحيح مسلم، رقم 2593

كثيراً ما نسمع هذه الأيام _ للأسف _ أن فلاناً من الطُّلاب قد كره مدرسته، أو فصل من كليته، أو فشل في دراسته الجامعية بسبب عدم لباقة في تعامله مع مُعَلِّمه، فترى بعض الطُّلاب لا يظهرون احترامهم وتقديرهم لمُعَلِّمهم، وبعضهم يتجرؤون على تخطفة مدرّسهم أو مشرفيهم وأنّهامهم بعدم المعرفة، أقول لهؤلاء أنّهم هم الخاسرون، وأنهم يحفرون قبور فشلهم بأيديهم.

فقد قال الخليل بن أحمد: "إذا أخطأ بحضرتك من تعلّم انه يأنف من إرشادك فلا ترد على خطئه، لأنك إذا نهته على خطئه أسرعت إفادته واكتسبت عداوته".¹

وعن ميمون بن مهران² قال: " لأثمار عالماً ولا جاهلاً، فإنك إذا ماريت عالماً خزن عنك علمه، وإن ماريت جاهلاً خشن بصدرك"، وقال أيضاً "لا تمار من هو أعلم منك فإذا فعلت ذلك خزن³ عنك علمه ولا تضربه شيئاً"⁴.

ولقد حصل في سيرة السلف ما يدل على أنّ الصّغير _ أحياناً _ يستدرك على الكبير، ويعلم ما لا يعلمه الكبير، ولكن لم يحمله ذلك على أن يتجاوز قدره، أو أن لا يعرف لمشرفه ومُعَلِّمه حقّه وفضله.

تأكيداً على أهمية اللباقة والكياسة ومراعاة ظروف العالم _ الشّيخ أو المُعلّم أو المشرف _ أذكر ما قاله عليّ بن أبي طالب عليه في حقّ العالم على طالب العلم: "إنّ من حقّ العالم ألاّ تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنتّه في الجواب، وأن لا تلجّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ

¹ جامع بيان العلم وفضله 127/1

² هو ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان مولى لأمراء بالكوفة، وأعتقته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالماً للجزيرة، وسيدها. واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضاها. وكان على مقدمة الجند الشامي، مع معاوية بن هشام بن عبد الملك، لما عبر البحر غازياً إلى قبرس، سنة 108 هـ، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة. توفي 117 هـ (انظر: الأعلام للزركلي (7/ 342))

³ أقرب المعاني إليها ما في مختار الصحاح (ص: 196) نخزن السر كتمه.

⁴ جامع بيان العلم وفضله 129/1

بشوبه إذا نهض، ولا تُفَشِّينَ له سرّاً، ولا تفتابن عنده أحداً، ولا تطلينَ عثرته، وإن زلَّ قبلتَ معذركهُ، وعليك أن توقّره وتعظّمه لله - ما دام يحفظُ أمرَ الله -، ولا تجلسَ أمامه، وإن كانتَ له حاجةٌ سبقَتَ القومَ إلى خدمته¹.

الطريقة الإسلامية لتحصيل العلم النافع

إن طرائقَ وأساليبَ تحصيلِ العلمِ النافعِ متعدّدةٌ ومختلفةٌ بتعدد واختلاف خلفية طالب العلم الدينيّة، والثّقافيّة، والاجتماعيّة، والأكاديميّة، والتّفسّية، إضافة إلى خلفيته الإقتصاديّة والسياسيّة على حدٍّ سواء.

كما تتأثّر طرائقُ وأساليبُ تحصيلِ طالبِ العلمِ للعلم والمعرفة النافعتين بمصادر العلم الّتي يستخدمُها في تحصيله العلميّ، فطريقةُ تحصيلِ العلمِ من الكتب، تختلفُ عن طريقة تحصيلِ العلمِ من المُعلّم، وكلا هاتين الطريقتين تختلفان عن طريقة تحصيلِ العلمِ من مواقع الإنترنت، ولكلّ طريقةٍ من هذه الطرائق إيجابياتها وسلبياتها.

الناظرُ في واقع الطالب العربيّ وطرائقِ وأساليبِ تحصيله للعلم، يجدُ أنّ الأمرَ مختلطٌ ومشوّهُ لدى بعضِ الطلّاب، وتقليديٌّ لدى بعضهم الآخر، فمنهم مَنْ يعقلُها ولا يتوكّل، ومنهم مَنْ يتوكّل ولا يعقلُها، ومنهم من يعتمدُ الطّريقة الأكاديميّة الغربيّة البحتة في كسبه للمعلومة متجاهلاً أو مهملاً للطريقة الإسلاميّة في التحصيل العلميّ، لهذا نجدُ الطالب العربيّ، لاسيما الذي يدرس في بيئة أكاديميّة غربيّة، يقعُ ضحية العِلْمانيّة الغربيّة، فيفشلُ في دراسته أو يتأخّر في تخرّجه بعد معاناة لا يعلمُها إلا الله ﷻ، أما الطالب العربيّ الذي يدرسُ في بيئة أكاديميّة عربيّة يقعُ ضحية التّقليد الأعمى للعِلْمانيّة الغربيّة من جهة، وسوء نظام تعليميّ من جهة أخرى، إلا من رحم ربي.

¹ جامع بيان العلم وفضله 129/1

انه واقع مؤسف، ومحزن، وكيب، يستدعي النهوض واليقظة الفورية على صعيد الطالب المُتعلِّم، والمُؤسسة التَّعليمِيَّةِ المسؤولة عن وضع وإدارة ومتابعة النظام التَّعليمِيّ الذي يخضع له هذا الطالب العربيّ الحزين المكتئب التائه المخدوع، وبدوري أقدم للطالب العربيّ التائه المسكين طريقة فعّالة _ إن شاء الله _ لتحصيل العلم النافع الذي فيه سعاده في الدُّنيا والآخرة، انما الطريقة الإسلاميَّة الّتي تشمل كافّة الطرائق والأساليب الّتي تساعد على كسب العلم والمعرفة.

إن الطَّريقة الإسلاميَّة في تحصيل العلم النافع لها ثلاثة جوانب : جانب روحي، وجانب عقليّ، وجانب عملي. تعمل هذه الجوانب مجتمعة بتفاعل عميق، إذ أن كل جانب يحث الجانب الآخر أن يقوم بدوره ويذكره إذا غفل أو قصّر بذلك، فتناج التحصيل العلميّ هو نتاج هذه العمليّة ذات الجوانب أو الأبعاد الثلاثة.

أولاً: الجانب الرُّوحيّ

إن الأصل في هذه الحياة توحيد الله وعبادته وفقاً للكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [محمد: 56]. فاي أمر أو عمل يقوم به العبد هو تجسيد لهذه القاعدة، وله بعد ديني، وفي مقدمتها طلب العلم وتحصيله.

أ) النية والإخلاص في طلب العلم

قبل الشروع في الدِّراسة، أو القيام بأي نشاط علمي، أو حل أي مسألة أو مُعضلة علميّة، أو تقديم أي بحث علمي، ينبغي على طالب العلم أن يعقد ويخلص النية بصدق بأن كل ما سيدرسه أو سيَتعلَّمه هو في أول المطاف وآخره إعلاء لكلمة الله وحده، ومرضاة له سبحانه وتعالى، وليس لطلب السمعة والشهرة والمرضاة النَّاس، بهذا يكون قد تقرب من الله، وبالتقرب من الله، تحلُّ البركة، وينشرح الصدر للدراسة، ويتفتح الدَّهن للفهم، وينشط الفكر للتَّعلُّم، ويبدأ العقل بتخزين وحفظ المعلومة، بإذن الله.

ب) تقوى الله وطاعته والإبتعاد عن المعاصي في طلب العلم

الشرط الثاني لتحصيل العلم هو أن يتقوى الطالب الله في تعلّمه وتعامله مع المعلومة، سواء كان مصدرها من الكتاب أو من المُعلّم أو من مواقع الإنترنت، وأن يعرض عن الذنوب ويتجنّب ارتكاب المعاصي، فيتقوى الله يتخلص ويخرج الطالب من كل ضيق أو صعوبة أو كرب هو فيه، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ كُفُّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 2-3]، وبالإبتعاد عن المعاصي وتجتنّب ارتكاب الذنوب والخطايا، يستير القلب، ويصفّ العقل للدراسة وللتعلّم.

فإذا اشتكى الطالب من كثرة النسيان، وقلة الحفظ، فليراجع نفسه، ويتحقّق فيما إذا ارتكب ذنباً بحق الله ﷻ، فكان سبباً في سد طرق العلم أمامه، فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه انه قال: "إني لأحسب الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنوب يعمل"¹، وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله في عقوبات المعاصي: "أما تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتُحجّب موارد الهداية"². وفي هذا المقام يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوتُ إلى وكيع³ سوءَ حِفْظي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرني بأن العلمَ نُورٌ ونورُ الله لا يُهدى لِعاصي

¹ جامع بيان العلم وفضله ج1، ص196

² الداء والدواء لابن قيم الجوزية، ص115

³ هو وكيع بن الجراح بن ملوح اللّاسي، أبو سفيان، كان محدث العراق في عصره، ولد بالكوفة سنة 129 هـ وتوفي سنة 197 هـ.

ت) الدعاء والتوسل إلى الله تعالى في طلب العلم

الشروط الثالث لتحصيل العلم وفقاً للطريقة الإسلامية هو الدعاء، لأنه سلاح فتاك يستخدمه الطالب في السراء والضراء، ففي السراء، يدعو الله ﷻ أن يزيده علماً وفهماً، يقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارزُقْنِي عِلْماً ﴾ [طه: 114]، وعن زيد بن أرقم ﷺ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا"¹.

أما إذا ضاقت الدنيا بما رَحَّبَتْ أَمَامَ طَالِبِ الْعِلْمِ، وواجهَ مُعْضَلَةً عِلْمِيَّةً أَوْ مُعَلِّمًا غَيْرَ عَادِلٍ أَوْ حَاقِدًا أَوْ عَنَصْرِيًّا، هنا يلجأ إلى سلاحه الفتاك، ويسلّه على مَنْ يَقِفُ أَمَامَ تَحْصِيلِهِ الْعِلْمِيَّ، انه دعاء الحَيِّ الْقَيُّومِ، عَلَّامِ الْغُيُوبِ لِإِتْقَادِهِ، وَبِحَدِيثِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَاةَ الدَّاعِينَ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فإذا كانت مُعْضَلَةً عِلْمِيَّةً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الذي كان يقول عندما يواجه مسألة صعبة الحل: "ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله تعالى الفهم، وأقول يا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي، وأقول يا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ فَهِّمْنِي، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرُغ وجهي في التراب، وأدعو الله أن يلهمني الصواب"². أما إذا كان الأمرُ يتعلّق بمُعَلِّمٍ فَرَعَوِيٍّ، أَوْ مُشْرِفٍ عَنَصْرِيٍّ، وَارَادَ طَالِبُ الْعِلْمِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ، أَنْصَحُهُ بِدَعَاءِ كَلِيمِ اللَّهِ مُوسَى ﷺ، إِذْ يَقُولُ فِيهِ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَبِسَرِّ لِي أَمْرِي ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يَفْهَمُوا قَوْلِي﴾ [طه: 25-28]، كما أوصيه بقراءة هذا الدعاء العظيم كلما دخل المدرسة أو الكُتَّابَة أو الجامعة، أو أي مكان

¹ صحيح مسلم، رقم 2722

² مكارم الأخلاق لابن تيمية ص 15

يريد أن يخرج منه فائزاً أو منتصراً، يقول فيه: «رَبِّ أَذْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» [الإسراء: 80]. لاشك أن هناك أدعية عظيمة أخرى يمكن للطالب أن يستعملها في تحصيله للعلم.

والجدير بالذكر هنا أن من شروط استجابة الدعاء أن يُصلي العبد عَقِيْبَ سؤاله وطلب حاجته على النبي محمد ﷺ، فقد روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ قال: "كلُّ دُعاءٍ محبوبٌ حتَّى يُصلى على النبي ﷺ" ¹، وعن سعيد بن المسيَّب رحمه الله، عن عمر بن الخطاب عليه السلام قال: "إنَّ الدُّعاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ" ². لذا أنصح طالب العلم أن يعتاد على الصلوة على نبيِّنا محمد رسول الله ﷺ عقب كلِّ دعاء يدعو الله ﷻ به، فيها يحصل على ما يريد، ويُبارك في علمه وتعلُّمه.

ث) الذِّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ وَدَوْرُهُمَا فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ

الشرط الرابع لتحصيل العلم كثرة الذِّكْر، لما للذكر من فضائل كثيرة، وما جاء في الترغيب إليه في القرآن الكريم دليل واضح على عظم الأجر لفاعله، قال الله ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45] أي: أكبر مما سواه من الأعمال الصالحة ³، وقال الله ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَكَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]، وقال الله ﷻ: ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، وقال الله ﷻ:

¹ صحيح الجامع الصغير للآلباني، ج 2/ رقم 4523

² سنن الترمذي، رقم 486

³ تحفة الذاكرين، للشوكاني، ص 17

«أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعْلَمُنُ الْقُلُوبُ» [الرعد: 28]، وقال الله ﷻ: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَذِكْرِي»¹ والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» [الأحزاب: 35]، وغيرها من الآيات الكريمة. وفي الترغيب في الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى سرّاً وجهراً والمداومة عليه، روي عن أبي هريرة ؓ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَيْئاً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"².

وعن أبي الدرداء ؓ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُتِيخُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْكَأَهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى» قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «مَا شَيْءٌ أَتَخَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»².

والمراد به هنا الإكثار من التلطف باللسان جهراً أو الذكر بالقلب سرّاً لما ورد الترغيب في قوله مثل: الباقيات الصالحات وهي 'سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر' وما يلحق بها من الحوقلة، والبسمة، والحسيلة، والاستغفار، ونحو ذلك.

اخترت الذكر بشكّل عام والاستغفار بشكّل خاص، لأن طالب العلم وغيره بأمس الحاجة لهما، لما فيهما من خير الدنيا والآخرة. فبالذكر والاستغفار يرضى عليه الرحمن الرحيم، السميع العليم، الفعال لما يريد، وإذا رضي عليه الحي القيوم، كان معه أينما حلّ وارتحل، يرفقه من حيث لا يحتسب، ويقضي حاجته مهما كانت عظيمة أو صعبة المنال، ولا يعذبه، بل ينصره ويحقق له كل حاجاته ورغباته ما لم تتعارض مع الشرع.

¹ صحيح مسلم، رقم 2675

² صحيح للترغيب والترهيب، للألباني، ج 2/رقم 1493

قال الله تعالى: ﴿قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10-12]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ يَسْعَىٰكُمْ مَنَاعًا حَسًّا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"¹. فإذا كان الرسول ﷺ يستغفر الله سبحانه وتعالى أكثر من سبعين مرة في اليوم والليلة، فأحرى بنا جميعا أن نكثر من الاستغفار ولا سيما طالب العلم إذا أراد أن يزيد الله ﷻ علما، وأن يبارك في مسعاها.

ثانياً: الجانب العقلي

ذكر الحافظ ابن الجوزي رحمه الله أقوالاً جميلة في ماهية العقل، أذكرها هنا للفائدة: "عن أحمد بن حنبل انه قال: العقل غريزة، وروي عن الحارث المحاسبي انه قال: هو نور، وقال قوم: هو نوع من العلوم الضرورية، وهو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وقال آخرون: هو جوهر بسيط، وقال آخرون: هو جسم شفاف، وسئل أعرابي عن العقل فقال: لب اغتتمته بتجريب"².

لكن مهما كانت ماهيته، فنعمة العقل _ بعد نعمة الإيمان بالله الواحد الأحد _ من أفضل النعم التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، وميزه بها عن كافة مخلوقاته في هذه الدنيا الفانية، فبالعقل تميز بين العاقل والجنون أو بين العاقل والأحمق، وبالعقل يميز العبد بين

¹ صحيح البخاري، رقم 6307

² أخبار الأتقياء لإبن الجوزي، ص 13

الخير والشر، وبالعقل يعبد ربّه ويخشاه، وبالعقل يجاهد الشَّيْطَانَ ويجاربه، وبالعقل يكتسب العلم والمعرفة.

إنَّ الطَّرِيقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لتحقيق العلم النافع بعمقٍ وفعالية تفرض على طالب العلم أن يكون صائياً البال لا يشغله هم ولا غم، وأن يكون حادّ الذَّهْنِ مستعداً لاكتساب المعلومة، ونشيط العقل حاذقاً يفهم ويتعلم الأمر في زمن قصير، وأن يكون يقظاً ومتيقظاً للفكر والتفكير، وأن يكون متحمساً للكشف والاستكشاف، وأن يكون محرّك الخيال والتخيل لديه شغلاً عاماً لتوليد وتطوير الأفكار والآراء، وهذا تكون جاهزيته العقلية والذهنية والفكرية حادة متجاوبة فعالة تُسهّل عَمَلِيَّة الفهم والاستيعاب والحفظ والتعلّم في آنٍ واحد. للعقل آلياتٌ يستخدمها في عَمَلِيَّة التعلّم، واستراتيجياتٌ يستعملها في ترسيخ وحفظ المعلومة، ومولداتٌ ذهنية وفكرية تساعد المُتعلّم في عَمَلِيَّة توليد الأفكار وتطويرها، أذكرُ منها مايلي:

أ- مولدات اندفاعية غرضية/مُتكاملة في طلب العلم

إنَّ آليَّة الاندفاعية العقلية - سواء كانت اندفاعية غرضية أم اندفاعية مُتكاملة - من أهم الآليات العقلية التي تساعد على تحصيل العلم، فهناك طالبٌ يندفع لتحقيق العلم بغرض النجاح في الاختبار، أو في مقابلة من أجل عملٍ ما، أو من أجل غرضٍ ما، وهناك طالبٌ يندفع للتعلّم ليس من أجل النجاح بالاختبار فحسب (غَرَضِيَّة) بل من أجل الاستفادة مما تعلّمه في حياته العلمية والعملية المستقبلية أيضاً (تُكَامِلِيَّة).

هذا النوع من الاندفاعية المُتكاملة، وهذا النوع من التعلّم المُتكامِل يحصل عليه الطالب الذي يتبنى الطَّرِيقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ في تحصيله للعلم، فقد روي عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اغْذُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا، وَلَا تُكُنِ الرَّائِعَ فَتَهْلِك»¹

¹ سنن الدارمي (253/1)

ب- آلية الكشف والاستكشاف في طلب العلم

إن حب الكشف والاستكشاف عن حقائق الأمور غريزة عقلية فكرية، يستخدمها طالب العلم في كسبه للمعلومات، وتحصيله للعلم بشكل يتناسب مع مستواه العقلي وقوه الفكرية.

كان أسلوب رسول الله ﷺ في حديثه لأصحابه يعزز آلية الاكتشاف عندهم ويشير حب المعرفة لديهم، لأن ذلك أوضح لهم، وأمكن لهم في عملية الحفظ والفهم، وهذا أمر واضح في حديث معبد بن كعب بن مالك، عن أبي قتادة بن ربعي¹، أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بختارة فقال "مستريح ومستراح منه". قالوا يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: "العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب"².

وعن أبي هريرة³، عن النبي ﷺ أنه قال: "رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه". قيل من يا رسول الله قال: "من أدرك والدته عند الكبر أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة"³.

بغض النظر عن معنى الحديث وبعده الشرعي أو الفقهي، وبقراءة عميقة للبعد التعليمي للحديث، نجد أن الأسلوب الذي اتبعه الصحابة الكرام في كسب المعلومة من الرسول ﷺ أساسه غريزة حب الاكتشاف لديهم ومعرفتهم مراد قول الرسول المعلم ﷺ كما لا ينبغي لنا أن نغفل عنصر التشويق والإثارة، بهذا الأسلوب في الطرح الغامض، والتكرير الجملة: "رغم أنفه" ثلاثاً، وهي بين الإخبار والدعاء... فكأن بالوقوف نحن أمام

¹ هو الحارث بن ربعي، أبو قتادة الأنصاري السلمي، فارس رسول الله ﷺ، شهد أحداثاً والخديبة، وله عدة أحاديث. مات سنة 54 هـ وهو ابن سبعين سنة؛ وكلته ابن خمس عشرة سنة. (انظر: سير الأعلام، ج2/ص339)

² صحيح مسلم، رقم 950

³ صحيح مسلم، رقم 2551

تفريغ نفسي من كل ما يشغل النفس ويجررها لغرض واحد، وفي وسط من الخوف والوجل من أن يكون هذا الذي "رَغِمَ أَثْمُهُ" هو السامع نفسه، ففي ظل هذه التهية النفسية لك أن تتصور مدى التأثير ومدى التفاعل، ومن قبل مدى اكتساب المعلومة. ومن هنا نحن ندعو إلى رصد الأساليب التعليمية لدى رسولنا الكريم وربطها بالأساليب التربوية والتقنيات التعليمية الحديثة، لتأخذ مساراتها الحضارية في بناء الإنسان والبشرية .

ت- آية الفكر والتفكير التقدي في طلب العلم

أكدت الشريعة الإسلامية على أهمية مبدأ الفكر والتفكير والنظر والتأمل والتدبر في تكثير العلم، وتنوير القلب، وتعريف العبد بربه حتى يصل إلى الإيمان بوحانية الخالق، وإلى عبادة الله الأحد حق عبادته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]، وقال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191]، وقال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] .

لذلك ينبغي على طالب العلم أن يعتمد في كسبه للعلم وتعامله مع الأشياء والأمور على آلية فكر وتفكير تقوم على أساس شرعي من حيث المبدأ، وعقلاني من حيث استخدامه لعناصر الفكر والتفكير التقدي من تحديد للغرض، وطرح للسؤال، وجمع للمعلومات، واعتماد للمفاهيم، واستنباط للاستنتاجات، وافتراض للفرضيات، والنظر بالتداعيات، ودراسة وجهات النظر المتعددة والمختلفة بما له صلة بموضوع النقاش، وتطبيقه لمعايير التفكير التقدي من وضوح، وصحة، ودقة، وعمق، وشمولية، ومنطقية، وأهمية، وعدم الانحياز، والموضوعية ومدى صلته بموضوع النقاش.

إن النظر بعمق في حيثيات الأمور، والتفكير والتدبر في ظواهر ومضامين المسائل، وعمليات النقد والتحليل لأبعاد الأمور وخلفياتها تعد من أهم الإستراتيجيات العقلية التي

يستخدمها الطالب في كسبه للعلم بعمق وفعالية، فيها يُعزَّز الفهم، ويثبت الحفظ، ويحصل التعلُّم. لذا ينبغي على المُتعلِّم أن يُكثِر من التَّفَكُّير والتحليل، والأخذ والرد في أية مسألة تُطرح عليه حتى تتضح الفكرة، وتحصل الفائدة، وتظهر الحكمة.

ثالثاً: الجانب العملي

كثير من الطلاب يعتقد أن الذهاب إلى المدرسة أو الكلية أو الجامعة، والسَّماع لما يقوله أو يكتبه المُعلِّم على السَّبُورة، هو كافٍ لتحصيل العلم، ولا حاجة لدراسة أو مذاكرة ما أخذه أو سمعه أو كتبه، وكثير من التربويين - تقليداً لما يجري في المؤسسات التعليمية الغربيَّة - يتوقعون عن ترويج ثقافة المذاكرة بين طلابهم، معترين أن الوقت الذي يقضيه الطالب في المؤسسة التعليمية هو كافٍ له لاكتساب المعلومة، ولا حاجة لإعطائه واجبات منزلية لتعزيز ما أخذه من علم في المدرسة أو الكلية أو الجامعة.

هذا اعتقاد خاطئ، وفاسد ظهرت مؤخراً دلائله في معظم مدارس المرحلة الابتدائية في بريطانيا، إذ تبين أن هناك فروقات أكاديمية جلية بين أداء الطلاب الذين يُعزَّزون تعلُّمهم المدرسي بالدراسة والمتابعة المنزلية، وبين الطلاب الذين لا يدرسون في بيوتهم أو لا يقومون بأية نشاطات تعليمية بعد رجوعهم من المدرسة، مما حدا بأولياء الأمور أن يقوموا بدور المدرس الخصوصي في متابعتهم للتعليمية لأولادهم وهم في بيوتهم.

لذا أقول: إن الجانب العملي للطريقة الإسلامية في تحصيل العلم هو جزء أساسي في تعزيز عملية التعلُّم عند الطالب، ويُعدُّ جانباً كاملاً للجانبين الروحي والعقلي، فيه يتأكد المُتعلِّم من تعلُّمه، وبه يثبت الطالب من علمه، لأنه لا يحصل علمٌ بدون دراسة، ولا تعلُّمٌ بدون مذاكرة، ولا قيمة للعلم بدون عمل.

فعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام انه قال: "يا حَمَلَةَ العلم، اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق عمله علمه"¹، وعن مطر بن طهمان الوراق² انه قال: "خير العلم ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه"³، وعن سُفيان الثوري رحمه الله انه قال: "إن أنا عملتُ بما أعلمُ فأنا أعلمُ النَّاسَ، وإن لم أعمل بما أعلم فليس في الدنيا أحدٌ أجهلُ مِنِّي"⁴.

هناك نشاطات عديدة يمكن لطالب العلم أن يقوم بها لتعزيز عَمَلِيَّةِ التَّعَلُّمِ لديه، أذكر منها مايلي:

أ- نشاطات دراسية

إن الجانب العملي لعمليَّة التَّعَلُّمِ بعمقٍ وفعاليةٍ تظهر جليةً واضحةً في النشاطات التَّعْلِيمِيَّةِ الَّتِي يتعرض إليها المُتَعَلِّمُ وهو على مقعد الدُّراسة، سواءً كانت هذه النشاطات سمعيةً، أو بصريةً أو تجريبية، فبقدر ما يشارك في هذه النشاطات يحصل عنده التَّعَلُّمُ العميق، والفهم السديد، والحفظ المديد، للمعلومة الجديدة.

فعلى سبيل المثال، ينبغي على طالب العلم كتابة ما يقوله المُعَلِّمُ أو المحاضر في الفصل الدراسي، لأن الكتابة تقييدٌ للعلم، فعن شرحبيل بن سعد قال: جمع الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بنيه وبني أخيه فقال: "يا بني! إنكم اليوم صغار قوم، أو شك أن تكونوا كبار قوم، فعليكم بالعلم، فمن لم يحفظ منكم؛ فليكتبه"⁵. أي يقوم الطالبُ

¹ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص89

² هو الإمام السَّزَّاهِدُ الصَّادِقُ، أَبُو رَجَاءَ بْنِ طَهْمَانَ الْخُرَّاسَانِي، نَزَلَ الْبَصْرَةَ، مَوْلَى عَلِيَاءَ بْنِ أَحْمَرَ الْيَشْكُرِي. كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ، وَيَقْنَنُ ذَلِكَ. تَوَفَّى سَنَةَ 129 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج5/ص452)

³ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص90

⁴ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص90

⁵ تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص92

بتدوين الأفكار الرئيسة لفهم موضوع الدرس أو المحاضرة، وأخذ الملاحظات التي لها علاقة بالأفكار الرئيسة للموضوع، ليس لتحقيق الفائدة الفورية من الكتابة فقط، بل ليكون مرجعاً لديه أيضاً، ولاسيما إذا أراد مذاكرته في المستقبل.

ب- مُذاكَرَةٌ فَرْدِيَّةٌ أَوْ جَمَاعِيَّةٌ

المذاكرة نشاطٌ دراسيٌّ تعليميٌّ عمليٌّ مهمٌّ يقوم به السُّتَعْلَمُ من أجل تعزيز فهم واستيعاب المعلومة، وتسهيل حفظ المعلومة، وتثبيت المحفوظ من المعلومة، وتفعيل المعلومة، التي بدورها تساعد على توليد معلومات وأفكارٍ أخرى تزيد وتُكثِّر علم الطالب.

ففي المذاكرة وأهميتها، يقول ابنُ جَمَاعَةَ الْكِنَانِي رحمه الله: "وينبغي أن يتذاكر مواظبو مجلس الشَّيْخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشَّيْخ فيما بينهم، فإن في المذاكرة نفعاً عظيماً، وينبغي المذاكرة في ذلك عند القيام من مجلسه قبل تفرق أذهانهم، وتشتت خواطرهم، وشذوذ بعض مسموعه عن أفهامهم، ثم يتذكرونه في بعض الأوقات"¹. والجدير بالذكر أن المقصود من عبارة "مجلس الشَّيْخ" هو أي درس أو حلقة علم أو محاضرة سواء كان المتكلم مُعَلِّماً في مدرسة، أو محاضراً في كلية أو أستاذاً في جامعة.

والمذاكرة نوعان: مذاكرة فردية ومذاكرة جماعية: في المذاكرة الفردية يقوم الطالب نفسه بمراجعة ودراسة وتعلُّم ما أخذه أو دوَّنه أو سمعه من مُعَلِّمه بنفسه، إذا لم يجد أقرناً يتذاكر معهم. قال ابنُ جَمَاعَةَ الْكِنَانِي رحمه الله في مذاكرة الطالب مع نفسه: "فإن لم يجد الطالب من يذاكره ذاكر نفسه بنفسه وكرر معنى مسمعه، ولفظه على قلبه ليعلق ذلك على خاطره، فإن تكرر المعنى على القلب كتكرار اللفظ على اللسان سواء بسواء"².

¹ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص 133

² تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم، ص 135

أما في المذاكرة الجماعية فيقوم طالب العلم مع رفيق له أو جماعة من الرفقاء الصالحين بمذاكرة ومراجعة ودراسة ما تمَّ أخذه أو كتابته أو سماعه من المُعَلِّم، فبالمذاكرة الجماعية الجادة المسؤولة يحصل التَّعَلُّمُ بعمق وفعالية، فقد روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يَدْرُسُ¹ 2". وعن أبي سعيد الخدري³ عليه السلام قال: "تحدَّثوا وتذاكروا، فإن الحديث يُذَكَّرُ بعضه بعضاً⁴". وعن عبد الله بن عباس عليه السلام قال: "إذا سمعتم مِنِّي حديثاً فتذاكروه بينكم⁵".

أما بالنسبة لأوقات الدِّراسة أو المذاكرة، فقد تعدَّدت الآراء في أفضلها، فمنهم من يقول أفضلها مذاكرة الليل، وبعضهم يقول أفضلها عند طلوع الفجر، أقول: إن توقيت مذاكرة طالب العلم يعتمد على ظروفه الشخصيّة أولاً، وعلى طبيعة ومزاجية تقبله للعلم والتَّعَلُّمُ ثانياً، لكن مهما كانت ظروفه ومزاجيته لتقبل العلم، ينبغي عليه أن يجد وقتاً كافياً للمذاكرة، ومن خلال تجربتي الشخصيّة وجدت أن الساعات الأولى من طلوع الفجر يكون العقل فيها صافياً، والذهن حاداً، والقلب يقطأ، والصدر منشرحاً مسروراً، لاسيما إذا بدأ الطالب مذاكرته بعد أدائه صلاة الفجر ثم دعائه لله الحي القيوم أن يزيده علماً، وأن يُعِينَهُ على فهم واستيعاب وتعلُّم ما يريد مذاكرته. عندها يحصل التَّعَلُّمُ وتَحُلُّ البركة في الطالب وفي علمه، فعن صخر الغامدي عليه السلام قال: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمَّتِي فِي

¹ درس: درساً ودروساً عفا وذهب أثره وثق، ودرس الثوب ونحوه أخلق ويلي. المعجم الوسيط (1/ 279)

² الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص 236

³ هو الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك الخزرجي. استشهد أبوه مالك يوم أحد، وشهد أبو سعيد الخندق، وبيعة الرضوان. وحدث عن النبي ﷺ، فكثر أطاب، وعن أبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحد الفقهاء المجتهدين. مات سنة 74 هـ. (انظر: سير الأعلام ج 3/ص 168)

⁴ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص 237

⁵ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص 237

بُكُورِهَا". قَالَ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَكَانَ صَبْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ فَأَثَرِي وَكَثُرَ مَالُهُ¹.

إضافة لما ذكرته فيما يتعلق بالذاكرة، ينبغي على طالب العلم أيضاً أن يعود على دراسة وتحضير ما سياتخذُه أو يدرسه مع مُعلِّمه قبل أن يذهب إلى قاعة الفصل، فالتحضير المسبق لأية فعالية أو نشاط تعليمي يسهل عمليّة الاستيعاب والفهم والتعلُّم، والله أعلم.

ت- نشاطات تطبيقية

تؤكد الطريقة الإسلامية في تحصيل العلم على أهمية تطبيق العلم والعمل به، فلا قيمة للعلم إذا لم يُعمل به على المستويين الفردي والجماعي، فبالعمل تثبت المعلومة، وبالعَمَل بما نعلمُ تحصلُ البركة والفائدة للفرد والجماعة معاً. فعن أبي عبد الرحمن السلمي² أنه قال: "حدثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: "فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"³.

إن التطبيق العملي لِمَا يتعلَّمه طالب العلم يمكن أن يحصل بأساليب وأشكال مختلفة متعددة تناسب مع مستوى الطالب التعليمي، وطبيعة المادة العلمية المراد تطبيقها، فإذا كان المتعلم يجب أن يتعلم من خلال إجراء التجارب، يمكنه أن يطبق تجارب استقرائية سواء في مادة علمية أو أدبية، هذا السّور من التطبيق العملي للمعلومة تشترك فيه جميع خصائص الجودة في التعلُّم العميق الفعال.

¹ سنن الترمذي، رقم 1212

² هو مقرر الكوفة، الإمام العلم، عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ. قرأ القرآن، وجودته ومهر فيه، وعرض على عثمان فيما بلغنا؛ وعلى علي، وابن مسعود. وحدث عن عمر، وعثمان، وطائفة. توفي سنة 74 هـ. (انظر: سير الأعلام ج4/ص267)

³ سير أعلام النبلاء للذهبي، ج4/ص271

وإذا كان يجبُ البحثَ والتحقيقَ والتَّناقشَ، يمكنه أن يطبِّقَ دورَ الباحثِ في تعلُّمه، أي يتعلَّم بإجراء بحثٍ علميٍّ بالتَّشاورِ والتَّفاعلِ مع المُعلِّم، فمثلاً لو أراد طالبٌ في المرحلة المتوسطة أو الثانوية تأديةَ هذا الدورَ لاستطاع بسهولة وعلى مستوى يتناسب مع فكره ونشاطاته المدرسية، فبدل أن يحفظَ حقائق تاريخيةً غيباً في مادة التاريخ يقوم بإجراء بحثٍ صغيرٍ يتذكَّر فيه أسبابَ وأبعاد الحدث التاريخيَّ معتمداً في ذلك على زيارته للمكتبة ومراجعتِه الكتبِ المناسبةِ ومناقشتِه الحقائقَ مع زملائه ومُعلِّمه، ثم كتابتها بشكلٍ بحثٍ صغيرٍ. بهذا الدورَ يكون قد حقَّق الطالبُ جَوْدَةَ في تعلُّمه لأنَّه قام بإجراء بحثٍ يتطلَّب جمعاً للحقائق وتحليلها موضوعياً، ونقلها ثم التَّوصُّل إلى استنتاجات. كلُّ هذا يُعزِّز من عَمَلِيَّةِ التَّعلُّم العميقِ لديه.

وإذا كان يجبُ التَّقاشَ والجدالَ، يمكنه أن يطبِّقَ دورَ المناقشِ المتفاعلِ، أي يتفاعلُ مع الآخرين ويتناقشَ معهم ويطرح أسئلةً ويقترح حلولاً لمسائل وقضايا معروضةً للمناقشة، هذا الدورَ، له أشكاله المختلفة وطرقه المتنوعة، فمنها ما يحصل بين شخصين، أو في مجموعة، أو في محاضرة، أو ورشة عمل، أو ما شابه ذلك من التَّفاعل بين المُتعلِّم والآخرين.

ينبغي على طالب العلم أيضاً أن يقومَ باستثمار معرفته السابقة في عَمَلِيَّةِ تحصيله للعلم لأنَّ الاستفادةَ وتعلُّمَ مفاهيم وأفكار جديدة لا بدَّ أن يكون لها صلةٌ بمفاهيم وأفكار قد تعلَّمها سابقاً، لذا يجب على الطالبِ والمُعلِّم الاستفادة من الخبرات السابقة لدى الطالب حتى يبني عليها ويحصل التَّعلُّم العميق الفعَّال.

اختلاف أساليب تحصيل العلم لدى طلاب العلم

والجدير بالذكر هنا أنَّ طُلابَ العلم يختلفون عن بعضهم بعضاً في أسلُوب وطريقة اكتسابهم للمعلومة، فهناك:

1. طالبٌ سمعيٌّ صوتيٌّ بصريٌّ: أي يتعلّم هذا النوع من الطّلاب باستخدامه حاسّة السَّمْع والبصر ومهارة التّكلّم.
2. طالبٌ كُلّيٌّ/جُرئيٌّ: أي يتعلّم بعضُ الطّلاب بطريقة العرض الكُليّة دون (الدُّخول في الجزئيات)، وبعضهم يحتاج إلى الدُّخول في جزئيات الأشياء أي تحليلها إلى عناصرٍ صغيرة.
3. طالبُ المُقرّر الدّراسيّ/طالبُ خارج المُقرّر الدّراسيّ: أي هناك طالبٌ يتعلّم فقط ما يقرأه في المُقرّر وما يزوده به مدرّسه، وهناك طالبٌ يتعلّم بطريقة حرّة، أي يقرأ ويتعلّم من خارج المُقرّر الدّراسيّ.
4. طالبٌ منكشٍ/طالبٌ منفتح: أي يميل الطّالبُ المنفتح إلى التّعلّم بطريقة التّفاعل مع الآخرين بعكس أسلُوب الطّالب المنكش.
5. إلى آخره من أنواع وطرق وأساليب التّعلّم واكتساب المعلومة التي لا يمكن حصرها هنا.

لا شك أنّ الطّالب يستخدم أكثر من أسلُوب في اكتسابه للمعلومة، لكن إذا أدرك المدرّس والطّالب أنّ هناك فروقاتٍ فردية بين الطّلاب ليس في مستواهم العلميّ فحسب بل في طرقهم وأساليبهم في التّعلّم ساعد ذلك إلى رفع مستوى العملية التّعليمية وتحقيق جودّة في التّعلّم أيضاً.

نستدلّ بما سبق ذكره أنّ طالب العلم النّاجح له صفاتٌ وخصائصٌ لا بدّ أن يتميّز بها قبل أن يدعو نفسه طالباً أو تلميذاً أو متعلّماً، وتلخيصاً لهذه الصّفات والخصائص، أذكرُ لك أيّها القارئ ما يقوله عليّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام في طالب العلم: "يا طالب العلم إنّ العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التّواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النّيّة، وعقله معرفة الأشياء والأمور الواجبة، ويده الرّحمة، ورجله زيارة العلماء، وهّمته السّلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النّجاح، وقائده العافية،

ومركبه الوفاء، وسلاحه لبُّ الكلمة، وسيفه الرضى، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه المَوَادَّة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار¹.

وقال الإمام الشافعي² رحمه الله يُلَخِّصُ لنا صفات طالب العلم الناجح بيئتين من الشعر الجميل:

أَحْيِ لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ سَأْنِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بَيَانِ
ذِكَا، وَحِرْصُ، وَاجْتِهَادُ، وَثَلَاثَةُ وَصَحْبَةُ أَسْتَاذٍ، وَطَوَّلُ زَمَانٍ

وأذكر هنا الشروط التسعة التي يجب على طالب العلم أن يتحلَّى بها كما ذكرها الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين³:

الأوّل: العقل الذي يُدِيرُكُ به حقائق الأمور.

الثاني: الفطنة التي يَتَصَوَّرُ بها غوامض العلوم.

والثالث: الذكاء الذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما عَلَّمَهُ.

والرابع: الرغبة التي يدوم بها الطَّلبُ، ولا يُسْرِعُ إليه الملل.

والخامس: الاكتفاء بمادة تُغْنِيهِ عَنْ كَلْفِ الطَّلبِ.

والسادس: الفراغ الذي يكون معه التَّوَفُّرُ، ويحصل منه الاستكثار.

والسابع: عدمُ القواطع المذهلة من هموم، وأشغال، وأمراض.

والثامن: طولُ العمر واتِّساعُ المَدَّة؛ لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

والتاسع: الظَّفَرُ بِعَالِمٍ سَمَحَ بِعِلْمِهِ، مُتَّانٌ فِي تَعْلِيمِهِ.

¹ الجامع لأخلاق الرزوي أدب السامع ج1/ص96

² ديوان الإمام الشافعي، ص 116

³ أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي، ص 75

فلو توفر لدينا أئها القارئ طلاباً يتحلون بهذه الصفات والخصائص، ويعملون برغبة جامعية وبجدية واجتهاد، لحصلنا على جيل متميز لديه القدرة على التفكير الحر، والتقدير البناء، والتحليل الدراسي، والتخيل الإبداعي، والأخذ بالرد في القضايا والمسائل والتطوير وقبول التغيير نحو الأفضل.

وللفائدة فاني راغب أن تقرأ بعين وفعالية هذه القصيدة الجامعة الشاملة لأداب طلب العلم، وللخصائص العملية التعليمية، وخصال طالب العلم الناجح، والتي يصفها ابن عبد البر القرطبي رحمه الله بأنها أحسن ما رأى في آداب التعلم¹:

واعلم بأن العلم بالتعلم	والحفظ والإتقان والتفهم
والعلم قد يُرزقه الصغير	في سنه ويحرم الكبير
فإنما المرء بأصغريه	ليس بمرجله ولا يديه
لسانه وقلبه المركب	في صدره وذاك خلق عجب
والعلم بالفهم وبالذاكرة	والدرس والفكرة والمناظرة
فرب إنسان ينال الحفظا	ويورد النص ويحكي اللفظا
وماله في غيره نصيب	مما حواه العالم الأديب
ورب ذي حرص شديد الحب	للعلم والذكر بلسان القلب
معجز في الحفظ والرواية	ليست له عمّا روى حكاية
وآخر يعطى بلا اجتهاد	حفظا لما قد جاء في الإسناد
يهزه بالقلب لا بناظره	ليس بمضطر إلى قناطره
فالتمس العلم وأجل في الطلب	والعلم لا يحسن إلا بالأدب
والأدب النافع حسن السمّت	وفي كثير القول بعض المقت

¹ جامع بيان العلم لابن عبد البر للقرطبي، ج 1/ص 146

فكن لحسن الصُّمْت ما حييتا
وإن بدت بين أناس مسألة
فلا تكن إلى الجواب سابقا
فكم رأيت من عجلٍ سابقٍ
أزرى به ذاك في المجالس
والصُّمْت فاعلم بك حقَّ أزين
وقل إذا أعياك ذاك الأمر
فذاك شطر العلم عند العلما
إيساك والعجب بفضل رأيكا
كم من جواب أعقب الندامة
العلم بحرٍّ منتهاه يسعد
وليس كل العلم قد حويته
وما بقي عليك منه أكثر
فكن لما سمعته مستفهما
القول قولان فقول تعقله
وكل قول فله جواب
وللكلام أول وآخر
لاتدفع القول ولا تردده
فرما أعشى ذوي الفضائل
فيمسكوا بالصُّمْت عن جوابه
ولو يكون القول في القياس
إذا لكان الصُّمْت من خير الذُّهَب

مقارفا تحمد ما بقيتا
معروفة في العلم أو مفتعلة
حتى ترى غيرك فيها ناطقا
من غير فهم بالخطأ ناطق
عند ذوي الألسان والثَّنَافس
إن لم يكن عندك علم متقن
مالي بما تسأل عنه خير
كذاك ما زالت تقول الحكماء
واحذر جواب القول من خطائكا
فاغتنم الصُّمْت مع السَّلامة
ليس له حد إليه يقصد
أجل ولا العشر ولو أحصيته
مما علمت والجواد يعثر
إن أنت لاتفهم منه الكلما
واخر تسمعه فتجهله
يجمعه السباطل والصُّواب
فافهمهما والذهن منك حاضر
حتى يؤدبك إلى ما بعده
جواب مايلقى من المسائل
عند اعتراض الشك في صوابه
من فضة بيضاء عند النَّاس
فافهم هداك الله آداب الطُّلَب

الفصل الرابع

املاذّة العلميّة وجودتها

الفصل الرابع المادة العلمية وجودتها

الواقع الحالي

كما أن جسّد الإنسان يتأثرُ ضعفاً وقوةً بحسب¹ ما يدخلُ إليه من أنواع الأطعمة والأغذية، كذلك يتأثرُ الإنسانُ ببيئته الثقافية والفكرية والعلمية سلباً وإيجاباً، فكلُّ من عقله، وفكره، وذوقه يتأثرُ ضعفاً وقوةً، استقامةً وانحرافاً، حقاً وباطلاً بحسب ما يُلقَى في وعاء رأسه وقلبه من علمٍ ومعرفة، وقيم ومبادئ وثقافات، وبالتالي فإن معتقدات، وأخلاقيات، وسلوكيات، ومواقف الإنسان بكافة أنواعها وأشكالها سواءً الموافق منها للحق أم الموافق للباطل ما هي إلا عبارة عن نتائج العلم والمعرفة، والقيم والمبادئ والمعتقدات التي كان قد تلقاها من بيئته الثقافية أو البيئة العلمية والفكرية التي تُحيطُ به من صِغَره، فإن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر، فالوعاء ينضج ما فيه، وما يُلقَى فيه.

لذلك ظهرَ اهتمام غير مسبوقٍ بوسائلِ التلقّي المختلفة؛ المرئي منها، والسمعي، والمقروء من أجل التأثير بعقلي وقلب وذوق الإنسان، ليس لمصلحته في كلِّ الأوقات بل لهلاكه، فهذا هي بعضُ القنواتِ التلفازية العريضة-للأسف- تبثُ شروراً وسمومَ الإلحاد والإباحية للمشاهدين، ويضاف إليها وحشُ الإنترنت وما يثبُ من شروور تكادُ تقتل جميع أوقات الإنسان في الحرام، وفيما يغلبُ ضرره على نفعه، وكذلك المناهج التعليمية الدراسية القائمة على تكريس مفاهيم الإلحاد والإباحية، والتي تُفرض على الأبناء والأجيال منذ المرحلة الابتدائية حتى يتعود الطلاب على هذه المفاهيم، وإلى ما بعد المرحلة الجامعية، وغيرها من الكمِّ الهائل من الدعايات والإعلانات التي تُزِنُ الشرَّ وتُرَوِّجُ له، والتي تُلاحق الإنسان في كلِّ مكان وزمان.

¹ الحسبُ للعدو والإخصاء والحسبُ ما عُدَّ (لسان العرب 310/1)

ومسند بداية القرن الحادي والعشرين، ووزارت التربية والتعليم في معظم البلدان العربية في خيرة من أمرها، فمنها من يتخبط في دوامة التقليد والتبعية لما يحصل في مناهج المؤسسات التعليمية العربية، ومنها من يشرع في التغيير لجرد التغيير بدون دراية أو دراسة، ومنها من يخاف من التغيير، فتتمسك بالغت والسمن من مناهجها التعليمية، بل أحياناً تعارضه وتعارضه بشدة ولو كان في الاتجاه الصحيح.

تولّد عن هذا الوضع المضطرب نوعان من التربويين الذين يقومون على سياسة التغيير في معظم البلاد العربية فيما يتعلق بتحسين وتطوير المناهج الدراسية في كافة مراحل التعليم الأساسي وحتى في مرحلة الدراسة الجامعية:

النوع الأول: هم أناس أنصاف تربويين يفضلون سياسة "القصّ واللصق" في عملية التغيير لتحسين مناهج التعليم في مؤسساتهم التعليمية، فمنهم من يقصّ منهاج تعليم مادة اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، الذي يُدرّس في مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية في بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية، ويلصقه كمنهاج لتعليم اللغة الإنجليزية في مدرسة حكومية في بلد عربي حيث يُعَبَّقُ المنهاج التعليمي الوطني فيها، بدون أخذ أي اعتبار للفروقات البيئية والاجتماعية والتعليمية والطلّابية التي تميزه عن غيره، فيحصل ردّة فعل سلبية، وفشل لتدريس هذه المادة.

ومن هؤلاء من يُغيّر ويحوّل لغة المنهاج الدراسي في المؤسسة التعليمية من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية ظناً منهم أنّ ذلك يجعل من الضعيف في اللغة الإنجليزية قوياً فيها وإذا مكانة اجتماعية مرموقة، ومن الجاهل في العلوم الطبيعية والكونية عالماً فيها، ومن الأحق في أقواله وأفعاله عاقلاً حكيماً فيها، ينطبق على هؤلاء للأسف قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61].

ومن هؤلاء من بالغ في التغيير، فتراهم يجلبون قسماً علمياً كاملاً من مؤسسة تعليمية غربية ويضمّونه لبناء المؤسسة التعليمية الوطنية، حتى أنّ منهم من جلب

المؤسسة التعليمية العربية بكاملها، فبنوا المؤسسة التعليمية، وأعطوها الاسم الأكاديمي العربي، ووظفوا طاقم تدريسي عربي، واستخدوا مناهج تعليمية عربية ووضعوها جنباً إلى جنب مع المؤسسة التعليمية الوطنية، طناً منهم أن ذلك يجعلهم مثل أسيادهم في المؤسسات التعليمية العربية، وأن ذلك يغني الطلاب المواطنين من مغادرة البلد للدراسة في الخارج، وأن ذلك يعزز من الانفتاح للعلوم والثقافات العربية.

صدق أصدق الصّادقين، فائدنا ومعلمنا، وخاتم الأنبياء والمرسلين، محمد صلوات الله وسلامه عليه، عندما حذرنا من اتباع اليهود والنصارى أو تلقي أي شيء منهم، يتعارض مع عقيدتنا ومبادئنا وقيمنا وأخلاقنا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "لَتَشَبَعَنَّ سَنَنُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَيْراً شَيْراً، وَذَرَاغاً يَذْرَاعُ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ بَغَسْتُمُوهُمْ" قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟"¹. وفي تفسير هذا التأثير باليهود والنصارى، وكيفية بدوّه على علمائنا، يأتي قول سفيان ابن عيينة: "من فسد من عبّادنا فقيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا فقيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه"².

النوع الثاني: أناس ليس هم بأنصاف تربويين ولا علاقة لهم بالتربية والتعليم، غير أنهم وكلوا بالقيام بعملية تغيير المناهج الدراسية في مؤسساتهم التعليمية، فدخلوا المؤسسة التعليمية من فوق الجدران، ومن على السطوح، فحرقوا الكتب وما فيها بحجة أنهم جلبوا كتباً جديدة لمناهج جديدة، وتخلصوا من كل ما هو قديم بحجة أنهم أصحاب التطوير والحدثة، ولم يقضوا على التراث الأكاديمي للمؤسسة التعليمية فقط بل مسحوا من مناهجهم أي أثر ديني أو ثقافي أو اجتماعي يتعارض مع أهوائهم الفاسدة بحجة التماسي مع سياسة العولمة الثقافية.

¹ صحيح البخاري، رقم 7320

² إغاثة اللهفان لابن القيم (ج 1/ ص 24)

فمن هؤلاء من تجرأ على الله، وبدأ بتغيير منهاج مادة التربية الإسلامية، على سبيل المثال، فقصّ ضروريات وأساسيات المعرفة الدينية، واستبدلها بما يتوافق مع هواه العلماني، وسياسة العولمة في بلده، ومزاجية الطلاب المنحلّين أخلاقياً، والمنحرفين سلوكياً، فتولّد عن ذلك مادة قزّمة ومشوّهة الشكل والمضمون.

ومن هؤلاء من تجرأ على طمس وعو تاريخ عظماء ومرشدي الأُمّة الإسلامية، أمثال الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين، والصّحابة الكرام أمثال خالد بن الوليد، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم أجمعين، والتّابعين لهم ومن جاء بعدهم من السّلف الصّالح، أمثال مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن المسيّب، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وغيرهم كثير، رحمهم الله أجمعين، ثم عملقوا الأفرايم فتراجعوا لمُفسّدي هذه الأُمّة، بحجة انه تاريخٌ حديث ! ذلك عندما وافق أهوائهم ومصالحهم الشخصيّة، فشوّهوا صورة تاريخنا العظيم وأفسدوا معناه في عقول هذه الأجيال من الطّلاب.

ومنهم مَنْ لعبَ بقائمة أولويات المعرفة، فأهملوا المعرفة المفروضة، وركّزوا على المعرفة الراجبة، بل أضافوا على أولويات المعرفة موادّ تعليميّة ثانوية وكماليّة في شكلها ومضمونها، بحجة تقليد متاهج المؤسسات التعليميّة الغربيّة، وبحجة التّطوُّير والتّحديث، فغيّروا ترتيب موادّ المناهج التعليميّة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فعلى سبيل المثال، استبدلوا التّعليم باللغة العربيّة بالتّعليم باللغة الإنجليزيّة، فاختلط الأمر على المُعلّم والطّالب معاً، وأثر ذلك بدوره على فعاليّة مكوّنات العمليّة التعليميّة بكاملها.

ومنهم من فضّل تعليم مادة على أخرى بحجة انها مطلوبة أو مرغوبة أكثر، فوزعوا ساعات الدّراسة الأسبوعية بمحاباة وظلم، فخصّصوا ساعة أو ساعتين من خمس وعشرين ساعة أسبوعية لتدريس مادة المعرفة الضّروريّة كمادة التفسير أو الفقه أو النحو والصرف،

وخصّصوا ستة ساعات لتعليم اللغة الإنجليزية، فهذا كسروا ميزان التوازن في توزيع نسب تدريس موادّ المنهاج ككلّ.

ومن هؤلاء أيضاً من يؤمن بالكم والسطحية، فزادوا من حجم المادة العلمية، وأكثروا من الموادّ التعليميّة، في كافّة المراحل التعليميّة، فترى طالب الصفّ الرابع الابتدائيّ في معظم مدارسنا، على سبيل المثال، يذهب إلى المدرّسة في أول أيام الدّراسة متفتّلاً ونشيطاً وخفيفاً، فيعود منها مكتئباً، وثقيلاً محمّلاً بثلاثة عشر كتاباً؛ كتاباً للقراءة، وكتاباً للإنشاء والتعبير، وكتاباً للنحو وقواعد اللغة العربيّة، وكتاباً للتربية الإسلاميّة، وكتاباً للحساب، وكتاباً للجيولوجيا وعلم الأحياء، وكتاباً للفيزياء، وكتاباً للكيمياء، وكتاباً للغة الإنجليزيّة، وكتاباً للغة الفرنسيّة، وكتاباً للجغرافيا، وكتاباً للتاريخ، وكتاباً للقوميّة، وكلّ كتاب يرافقه دفترٌ ملاحظات وواجبات ليّليّة! فينتهي الأمرُ بالطالب حاملاً ما لا يقل عن سبعة كيلو غرامات على ظهره ذهاباً وإياباً من المدرّسة! كل هذا، سببه أهم يفضلون شراء ثلاث دجاجات مثلجة بثمن شراء دجاجة واحدة بلدية طازجة!!! إضافةً لما ذكرته أعلاه، نجد أنّ في كل بلد عربيّ منهاجاً دراسيّاً يختلف عن الآخر من حيث الشكّل والمضمون، فترى مكروّنات مادة اللغة العربيّة أو مادة الرياضيات في المغرب، على سبيل المثال، تختلف عن تلك الّتي في سوريا أو في عمان أو اليمن، من حيث شموليّتها وعمقها، ومستواها الأكاديميّ والفكريّ، ممّا سبب اختلافاً في مستوى الطّلاب المتخرجين من المراحل الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة، وبالتالي أدى ذلك إلى أجيال متفاوتين في قيمة شهاداتهم العلميّة، وشموليّة وعمق معرفتهم الأكاديميّة، وقصور في قدراتهم العقليّة والفكريّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لهذا وجدنا أنه من الضّروريّ أن نقدّم للقارئ فصلاً موجزاً نعرض فيه أهمّ مصادر التّلقّي الّتي ينبغي للمادة العلميّة مهما كان نوعها أو شكلها أن يعتمدّها، ونعرّف فيه أيضاً مفهوم المنهاج الدّراسيّ والمادة العلميّة مؤكدين على أهميّتهما كمصدر للتّلقّي، ودور

المادة العلمية في نجاح وفعالية بقية مكونات العملية التعليمية، مع شرح بسيط لأهم خصائص جَوَدَةُ مُقَوِّمَاتِهَا، لعله يكون دليلاً مختصراً لأهل العقل والفضل من التربويين، ولأصحاب القطنة والذكاء من الطلاب المجتهدين، ولأولياء الأمور حتى يتبين لهم الغث من السمين مما يتلقاه ويتعلمه أولادهم.

أهم مصادر التلقي

بعد أن عرضنا شريطاً موجزاً عن الواقع الحزن لعملية التلقي عند كثير من الناس في البلاد العربية، وبيننا كيف يتعامل بعض المسؤولين التربويين مع المادة العلمية كمصدر مهم في آلية التلقي، نقول انه ينبغي توحيد مصادر التلقي في كافة مكونات العملية التعليمية، ولاسيما ما يخص شكل ومضمون المادة العلمية، فعلى قدر ما تنجح الأمة في توحيد مراجعها ومصادرهما التي تتلقى منها العلم والمعرفة، والعقائد، والقيم، والمبادئ على قدر ما تتوحد كلمتها ورسالتها العلمية والثقافية والفكرية، وبالتالي تنجح العملية التعليمية في مهمتها.

إن قيادة كل أمة تحترم نفسها وتريد الخير لشعبها تحرص أشد الحرص على أن تُربي شعبها بكافة أطيافه وراياته على المنهج العاصم الحق الذي يجب أتباعه، والرجوع إليه، والافتصار عليه دون غيره، والذي فيه تتحقق السلامة والنجاة للعباد في الدنيا والآخرة، هذا المنهج هو منهج الكتاب، والسنة، على ضوء فهم السلف الصالح، من القرون الثلاثة الأولى المشهود لها نصاً بالخيرية والفضل¹.

لماذا ينبغي أن يكون دين الإسلام هو المرجع والمصدر الذي نتلقى منه العلم والمعرفة والعقائد والمبادئ والأخلاق الحميدة والسلوكيات الكريمة؟ لأنه الدين الحق الذي قد كمل، وبكماله كمل كل ما يُقربنا إلى الله تعالى، وإلى الجنة، وكل ما يُبعدنا عن الزلل وعن

¹ صحيح البخاري (171/3) «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ بَيِّنَةً، وَتَمِيْنَةً شَهَادَتُهُ»

النار، وقد أبان الله تعالى سبيل المؤمنين، وحض على انتهاجها، كما أبان وجلى سبل
المجرمين، وحذر من انتهاجها: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 55]

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. فالدين ليس ناقصاً ليكمل نقصائه من مصادر
ومشارب أخرى، وإنما هو كامل تام غير ناقص، بشهادة الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكُنْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ كُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]. وهذا من معانيه ولوازمه
بيان الصراط المستقيم، وكذلك بيان سبل أهل الباطل والأهواء بياناً شافياً كافياً وافياً لا
لبس فيه ولا غموض.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]. وقوله تعالى: ﴿بَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ عام لكل شيء؛ أي فيه تبيان
لكل ما يضر، وكل ما ينفع من أمور الدين والدنيا؛ ما يضر لكي يجتنبه ونحوه، وما ينفع
لكي نأتيه ونلتزمه.

وفي الحديث، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال، قال النبي ﷺ: "إنه ليس شيء
يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقرّبكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه"¹.

¹ السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم 2866

لقد كثرت وتنوعت واختلفت مصادر ومراجع التلقي عند كثير من الناس ، المثقفين منهم وغير المثقفين، لذلك أذكر هنا أهم هذه المصادر والمراجع لتكون بمثابة الميزان أو المعيار الذي يجب استخدامه في عملية تقويم المادة العلمية، سواء كانت مرئية أم سمعية أم مقروءة، والله الموفق:

كتاب الله عز وجل

القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل أنزله ﷺ على المصطفى محمد ﷺ، بواسطة الملاك جبريل عليه السلام، ليكون هدى وشريعة ومنهاجاً للعالمين أنسبهم وجنتهم، ومصدراً ومرجعاً لهم في أمور دينهم ودنياهم.

فإذا كان الجاهليون، بكل أطيافهم وتجمعاتهم، يُجاهرون بمراجعهم ومصادرهم، ويُفاحرون بها، ويُقاتلون دونها، على ما فيها من باطل وزور، ويحملون الشعوب عليها حملاً وقهراً من خلال مكر الليل والنهار، فمن باب أولى أن يُجاهر أهل الحق بمراجعهم ومصادرهم، ويتباهوا بها، ويُقاتلوا دونها، فأبي الفريقين أولى بالحق والمباهاة والافتخار والمجاهرة، من تنتهي مراجعته إلى الله ورسوله ﷺ، أم من تنتهي مراجعته إلى الطاغوت والشيطان؟ لا يستويان مثلاً، « فَأَبَى الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » [الأنعام: 81].

إن الأدلة على وجوب الرجوع إلى القرآن الكريم أكثر من أن تُحصَر في هذا الموضوع، فمنها، قوله سبحانه وتعالى: « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » [البقرة: 2]. وقوله سبحانه وتعالى: « قُلْ هُوَ الَّذِي آتَا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَمًى أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » [فصلت: 44]. وقال سبحانه وتعالى: « فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَتَنِ اتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ذُرِّيَّتِي » [طه: 123].

وفي الحديث، عن أبي مالك الأشعري¹ قال: قال رسول الله ﷺ: "القرآن حُجَّةٌ لَكَ أو عليك"¹.

وفي حثه وترغيبه في الاتباع والتمسك بما جاء به القرآن الكريم، روي عن زيد بن الأرقم² أنه قال: قال النبي ﷺ: "كتابُ الله عزَّ وجلَّ، هو حَبْلُ الله، من اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ"³.

وفي رواية: "كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، مَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَاتَّخَذَ بِهِ، كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ"⁴.

سنة الرسول ﷺ

للفائدة أذكر تعريف السنة الشريفة كما عرفها لي أحد المشايخ العاملين الأفاضل، وهي: "كل ما صحَّ عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، يترتب عليه حكم شرعي؛ كالوجوب، والمنسوب، والإباحة، والحرمة، والكراهة، وأقوال، وأفعال، وتقارير النبي ﷺ كلها يترتب عليها أحكام شرعية، إلا ما خرج منها على وجه العادة، كركوبه على الدابة، واستظلاله في ظلِّ شجرة، أو أن يفتح عن صدره الشريف ليدفع عن نفسه شدة الحر، ونحو ذلك من الأعمال التي لها صفة العادة، التي لا يُستنبط منها أحكام شرعية"، صلوات ربي وسلامه عليه.

¹ صحصح الترغيب والترهيب، للألباني، ج1/رقم189

² هو ابن زيد بن قيس بن العمان بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، نزيل الكوفة، ومن مشاهير الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، شهد غزوة مؤتة وغيرها، وله عدة أحاديث، مات بالكوفة سنة ثمان وستين. (سير أعلام النبلاء، ج3/ص165)

³ صحيح مسلم، رقم2408

⁴ صحيح مسلم، رقم2408

أمّا الأدلة على وجوب اتباع السنّة، والرجوع إليها فهي كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 1-2]. فإذا كان مجرد رفع الصوت يُحسّس على صاحبه أن يحبط عمله، ولا يحبط العمل إلا الشُّرك، فكيف بمن يرفع حكمه وقوله على حكم وقول النبي ﷺ، لا شك أنه أولى بالاتكاس وحبوط العمل، ممن رفع صوته بغير عمد . والعياذ بالله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]. فمن الله تعالى التّزليل، وعلى رسوله ﷺ البيان، وعلينا الاستسلام والالتزام، من غير تقلص بين يديه، أو تعقيب، أو اختيار، وهذا من لوازم صحة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]. فعلى قدر المتابعة للسنة تكون محبة العبد لربه، وعلى قدر المحبة تكون المتابعة للسنة، فكل منهما لازم وملزوم للآخر.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وفي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ"¹.

¹ صحيح البخاري، رقم 2957

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كُلُّ أُمَّتٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَتَى"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْتِي؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَتَى"¹.

وعن أبي سلمة أن أبا هريرة رضي الله عنه، قَالَ لِرَجُلٍ: "يَا ابْنَ أَخِي! إِذَا حَدَّثَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَلَا تَضْرِبْ لَهُ الْأَمْثَالَ"². أَي لَا تَسْتَدِلَّ عَلَى قَوْلِهِ ﷺ يَقُولُ الْحُكَمَاءُ، وَالْفَلَّاسِفَةُ، وَالْفُقَهَاءُ، وَكَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُعْضِدَ قَوْلَهُ بِأَقْوَالٍ وَمَوَاقِفَ الْآخَرِينَ، فَالْتَّبَيَّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ الْآخَرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَى التَّمَاسِ مَدَى مَوَاقِفَ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ لِكَلَامِهِمْ؛ لِأَن كَلَامَهُ، وَالثَّابِتَ مِنْ سُنَّتِهِ هُوَ الْحُكْمُ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي بِهِ يُعْرَفُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالصَّوَابُ مِنَ الْخَطَأِ مِنْ كَلَامِ وَمَوَاقِفِ الْآخَرِينَ.

آثار الصحابة رضوان الله عليهم

إذا لم يتوافر الدليل أو المرجع في الكتاب والسنة، ينبغي اتباع ما جاء في آثار الصحابة رضي الله عنهم، واعتبار أقوالهم وأفعالهم مصدراً ومرجعاً لنا في حياتنا العلمية والعملية، وذلك لفضلهم ولفضل التابعين لهم بإحسان في القرون الثلاثة الأولى، كما ينبغي تقديم قولهم وفهمهم على قول وفهم من جاء بعدهم.

وفي فضلهم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَزَقْنَا عَنْهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]. فإذا كان الله عز وجل قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فهو سبحانه وتعالى رضي عنهم لسلامة دينهم واعتقادهم، وفهمهم، والتزامهم، فمن باب أولى أن نأخذهم قدوة لنا ونعتد بأقوالهم وأفعالهم مصدراً ومرجعاً لنا، مادامت في إطارها.

¹ صحيح البخاري، رقم 7280

² سنن ابن ماجه، رقم 22

وعن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةً، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: "اَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ"¹.

وعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: "إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي"²؛ وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وعن العرياض بن سارية³، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 92]. قال: قال رسول الله ﷺ: "فانه مَنْ يَعِشَ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَيْدِينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَעَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِنَّا كُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"⁴.

وعن عبد الله بن عُمَرَ أنه كان يقول: "لا تَسْبُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامَ أَحَدِهِمْ سَاعَةً (يعني مع النبي ﷺ) خير من عمل أحدكم عُمُرَهُ"⁵.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ زُرَّاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَاهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ"⁶.

¹ صحيح مسلم، رقم 1856

² صحيح سنن للترمذي، رقم 3663

³ هو العرياض بن سارية السلمى رضي الله عنه، من أعيان أهل الصُّفَّةِ، سكن حمص، وروى أحاديث عن الرسول ﷺ، تُوِّفِيَ مِنْهُ خَمْسٌ وَسَبْعِينَ هـ. (سير أعلام النبلاء، ج 3/ص 419)

⁴ سنن أبي داود، رقم 4607

⁵ سنن ابن ماجه، رقم 162، صحيح ابن ماجه (1/ 32): كان ابن عمر يقول لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره * (حسن)

⁶ للفروسيه، لإبن قيم الجوزية، ص 299

وفي حال غياب الدليل من الكتاب والسنة، وحصول الخلاف فيما بين الصحابة على مسألة من المسائل، فمن عوامل الترجيح بين الأقوال والأفهام تقدم قول وفهم السابق في الإسلام والنصرة على اللاحق، هذا الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10]. فلا يستويان في المترلة والفضل والأجر، كما لا يستويان في الدين، والفهم والإيمان.

لذا نجد أن الالتزام بتقيد الأفهام بفهم الصحابة فيما اختلف فيه من شؤون الدنيا والدين، إضافة إلى دلالة النص عليه، هو دالة على وحدة المصدر والمرجعية، وبالتالي يكون ذلك عاصماً ومانعاً يمنع من دخول أفكار وعقائد وقيم وأخلاقيات وسلوكيات ما أنزل الله بها من سلطان إلى مصادر ومراجع الثَّقَلَيْنِ لدينا، ورادعاً لكل من تُسَوَّلُ له نفسه بالفرقة بين أبناء الأمة الواحدة.

آثار التابعين والسلف الصالح

بعد الصحابة رضوان الله عليهم، تأتي الأفضلية في المرجعية للتابعين من القرن الأول، ثم القرن الثاني، ثم القرن الثالث، لما أخبرنا نبينا المصطفى ﷺ بأفضليتهم على من يأتي من بعدهم، فعن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: "خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيئ أقوام: تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته"¹. والقرن الأول هو قرن الصحابة، ثم القرن الثاني؛ وهو قرن التابعين، ثم القرن الثالث؛ وهو قرن تابعي التابعين.

لذلك عند استخدام مصادر ومراجع الثَّقَلَيْنِ في كافة مجالات العلم والمعرفة، وفيما يخص أمور الدنيا والدين، ينبغي أن يُقدَّم قول واجتهاد علماء القرن الأول، على قول

¹ صحيح البخاري، رقم 2652

واجتهاد علماء القرن الثاني، وقول واجتهاد علماء القرن الثاني على قول واجتهاد علماء القرن الثالث، وقول واجتهاد علماء القرن الثالث على من يأتي بعدهم.

آراء واجتهادات العلماء الصالحين

يأتي بالمرتبعة الخامسة في تسلسل مصادر ومراجع التلقي آراء واجتهادات العلماء الذين يلتزمون بالكتاب والسنة على فهم الصحابة، والسلف الصالح بحسب التسلسل الوارد أعلاه. إن العلماء الذين يدعون إلى شيء من الشرك، أو يناصرون الشرك، أو يوالون الشرك والمشركين على الإسلام والمسلمين، ليسوا بعلماء، ولا يُستفتون، ولا يُستأمنون على دين ولا دنيا، وذلك لأن قدرهم ونفعهم يقل ويضعف بمقدار بعدهم عن المنهج الحق، منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إن المرجعية للعلماء الذين يلتزمون بهذا المنهج الوارد أعلاه، وهم الذين ينبغي أن يُقصدوا بالفتوى والسؤال في مسائل الدين والدنيا، وهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43].

هذه هي أهم مصادر التلقي التي ينبغي أن نتبناها في كسب العلم والمعرفة، وفي تعزيز عقائد التوحيد لدى أبناء الأمة الإسلامية، وفي ترويض مبادئ وأخلاقيات وسلوكيات منهج الكتاب والسنة الحق، وما سواه من مناهج الغث فيها أكثر من السمين.

لذلك ينبغي الحذر من مصادر ومراجع المادة العلمية التي تُروّج الإلحاد والإباحية بين طلبة العلم أو تُفرض على بعض المؤسسات التعليمية، بحجة الحداثة والتطوير أو من أجل التماسي مع متطلبات العولمة بشئ أشكأها ومضامينها المزيقة الأغراض والأهداف.

تعريف "المنهاج الدراسي" و"المادة العلمية"

تعددت التسميات، واختلفت المصطلحات، فاختلط الأمر على كثير من التربويين والطلّاب معاً، فبعضهم يستخدم مصطلح 'المنهج' بدل 'المنهاج'، وبعضهم يستخدم مصطلح 'المنهاج' الدراسي مكان مصطلح 'المادة العلمية'، وبعضهم يشير إلى 'الوحدة العلمية' بأنها 'مساق' دراسي، وغيرها من المصطلحات كثير، لذا اجتهدت في أن أعرف مصطلحي 'المنهاج' الدراسي و'المادة العلمية' لشيوع وشمولية استخدامهما في مؤسسات التربية والتعليم:

تعريف المنهاج الدراسي

هناك خلط لغوي وعرفي بين استخدام كلمة 'منهج' وكلمة 'منهاج'، فالمنهج كلمة أصلها 'نَهَجَ، نَهَجٌ، نَهَجًا، سَلَكَ، يَسْلُكُ، مَسْلُكاً، فهي تدل على الطَّرِيقَةُ أو المُسْلُوب الذي يتبعه المُعَلِّم، مثلاً، في شرحه لمنهاج مادة اللغة العربية، وهناك ما يسمى بـ 'منهج اختبائي' و 'منهج استقرائي'.

أما 'المنهاج' فهي كلمة تدل على كافة المواد العلمية التي تظهر على برنامج الدراسي اليومي وكل النشاطات الأكاديمية والفعاليات الثقافية والترفيهية التي تحصل خلال ساعات الدراسة في المؤسسة التعليمية. كقولنا منهاج الصف السادس الابتدائي أو 'منهاج الشهادة الثانوية'.

ويمكننا أيضاً أن ننظر إلى مصطلح كلمة 'المنهاج' بأنه يدل على كافة التجارب التعليمية النظرية والعملية التي يمر بها المتعلم، سواء كانت أكاديمية أو ثقافية أو ترفيهية أو سلوكية انضباطية.

وينقسم المنهاج الدراسي عادة إلى مواد تعليمية أساسية، كمادة التربية الدينية، واللغة العربية، والحساب أو الرياضيات، وإلى مواد فرعية أو إضافية أو حتى مواضيع متنوعة ومختلفة تساعد في فهم المواد الأساسية، وتعد مهمة جداً بالرغم من أنها لا تدخل في

متضمنات المادة العلمية. فمن هذه المواضيع والعناوين³ البيئة، العناية الصحية، المواطنة، وغيرها.

ينبغي أن يتضمن المنهاج الدراسي في مراحل التعليم الأساسي على ما يلي من مكونات، وبما يتناسب مع الثقافة الدينية والاجتماعية للبلد:

أ- مادة علمية أساسية نافعة تحتوي على المعرفة والمهارات والعمليات التعليمية التي يحتاجها المتعلم في دراسته كمادة التربية الدينية، واللغة العربية، والحساب.

ب- عناصر منهجية أخرى تتضمن معرفة اقتصادية، وصناعية، وصحية، وتربوية، وبيئية، ومواطنة، وتقنية معلوماتية، وغيرها من العلوم الأخرى، بمقدار يتناسب مع النسبة المئوية المعطاة لتدريس المادة العلمية الأساسية.

ت- عناصر الرعاية العامة التي تتعلق بمبدأ تساوي الفرص، والتربية الشخصية والاجتماعية.

ث- عناصر منهجية خفية تهتم بالقيم والعلاقات، ومواقف الطلاب من العلم، ونظام المكافآت ونظام الضبط.

ج- عناصر منهجية إضافية تضمن الفرص لتطوير مواهب الفرد، وإنشاء النوادي الاجتماعية، والقيام بفعاليات ثقافية ورحلات ترفيهية، وخدمات المجتمع.

هذا النوع من المناهج - إضافة لتعلم المادة العلمية المرجوة - يُعزِّز لدى الطلاب تعلم واكتساب الخبرات التالية:

1. خبرات لغوية (كتعلم لغة أو أكثر)
2. خبرات علمية
3. خبرات حسابية
4. خبرات إبداعية وجمالية تفتح المجال لإطلاق مخيلة الطالب للتعبير عن نفسه أو للتعبير عن مدى فهمه للمادة العلمية.

5. خبرات إجتماعية وسياسية
6. خبرات بدنية
7. خبرات روحية
8. خبرات أخلاقية

وهذا مايساهم في تطوير ونمو شخصية الطالب، فيدرك الغرض من هذه الحياة، ويستوعب مكانته في المجتمع، ويعمل على خدمة وبناء مجتمعه بفاعلية وعن حب ورغبة.

تعريف المادة العلمية

يعتقد بعض التربويين أن 'المادة العلمية' هي جزء من المنهاج الدراسي ككل، كقولنا مادة اللغة العربية أو مادة الحساب من منهاج الشهادة الثانوية، وأن هذه المادة تحتوي على معرفة ومهارات وعمليات تعليمية يكتسبها المتعلم خلال دراسته لهذه المادة. هذا مفهوم بسيط وقاصر - للأسف - يحتاج إلى شرح وتفصيل وذلك لأهمية دور المادة العلمية في العملية التعليمية، كما سيأتي تفصيله، إن شاء الله.

إن مصطلح 'المادة العلمية' متعدد الجوانب شكلاً ومضموناً، فمن حيث الشكل يمكن أن تأخذ شكل كتب دراسية، كقولنا 'كتاب مادة التاريخ'، أو موارد أخرى يُعدها أو يستعين بها المعلم: منها المراجع والمجلات والجرائد المتوفرة في المكتبات التي يستخدمها المعلم والمتعلم في تعليم وتعلم المادة العلمية إضافة للكتاب. وظهر مؤخراً أشكال أخرى للمادة العلمية: منها الإنترنت وماحتويه من الغث والسمين من المعرفة، وأجهزة الحواسيب بأشكالها المتنوعة ووظائفها المتعددة، والمختبرات وما يجري فيها من تجارب لها علاقة بالمادة العلمية المقررة، ووسائل الإيضاح عبر استخدام البرامج المكتبية، كالميكروسفت، وغيرها كثير.

أما من حيث مضمونُ المادَّةِ العلميَّةِ، فهو كل ما تحتويه من علم أو معرفة أو مهارات أو غيرها من العمليَّاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ سواءً كانتْ أساسيةً أو فرعيةً، ظاهرةً أو خفيةً، نصّاً كتابياً أو شفويّاً، يقدِّمه المُعَلِّمُ للطَّالِبِ أو يَتَعَلَّمُهُ المُتَعَلِّمُ من المُعَلِّمِ أو المادَّةِ العلميَّةِ.

والمادَّةُ العلميَّةُ هي أيضاً كل ما يحصل في الصف من تعليم وتعلُّم، ومن ممارسات وحوارات أكاديميَّةٍ وثقافيَّةٍ واجتماعيَّةٍ بين المُعَلِّمِ والمُتَعَلِّمِ من جهة وبين المُتَعَلِّمِينَ فيما بينهم من جهة أخرى.

المادَّةُ العلميَّةُ كل ما يَتَعَلَّمُهُ ويكتسبه المُتَعَلِّمُ في الصف أو خارجه من معرفة علميَّة، وحسابية، وأكاديميَّة، ومهارات لغوية، وخبرات إبداعية وجماليَّة، وتجارب اجتماعيَّة، ومواقف سياسية، ومبادئ أخلاقيَّة، وتجارب روحيَّة وعاطفيَّة.

تسهيلاً لعمليَّةِ الطرح والتَّقاش، ومن أجل تقريب الشرح والتفصيل للقارئ، سأستخدم- إن شاء الله- عند الضرورة كلمة 'الكتاب' عوضاً عن مصطلح 'المادَّة العلميَّة'، لما للكتاب من دلالاتٍ تَعْلِيمِيَّةٍ وتعليميَّة، فهو آلة التحصيل العلميِّ.

مكانة المادَّة العلميَّة ودورها

تُعتبر المادَّة العلميَّة عنصراً ثالثاً لعناصر مكونات العملية التَّعْلِيمِيَّةِ الأربعة: المُعَلِّم، والطَّالِب، والمادَّة العلميَّة، والمُؤَسَّسَةُ التَّعْلِيمِيَّةُ، وهي مهمَّة وضرورية لتحقيق عمليَّة التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ الحاصلة بين المُعَلِّمِ والمُتَعَلِّمِ، وتلعب دوراً فعّالاً في نجاح العملية التَّعْلِيمِيَّةِ شكلاً ومضموناً.

مكانة المادَّة العلميَّة

منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى القلم وطلبة العلم مشغولون بنسخ وكتابة العلم، لأن القلم آلة العلم والكتاب آلة التحصيل العلميِّ، فتعظيماً للقلم ومكانته، أقسم الله سبحانه تعالى به وبما يُسطر به من أنواع الكلام، ويُكتب به من أنواع العلوم، فقال ﷺ:

﴿ نَوَالِقْلَمْ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: 1]. وقال ﷺ: «أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾» [العلق: 1-5].

وحفظاً للدين، واحتياطاً عليه، وإشفاقاً من دخول الشك والريب فيه، أمر الله تعالى بكتابه، فقال جلّ جلاله: «وَكَيْتَ تَسْمَعُوا أُنْ كُتِبَ عَلَيْهِ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا» [البقرة: 282].

وتقييداً للعلم، وللتذكيرة عند النسيان، وخوفاً من دخول الشك والريب فيه، ولاسيماً في هذا الزمان حيث كثرت السرقات العلمية، وضاعت مبادئ الإسناد والرواية، أمر رسول الله ﷺ بكتابه وحفظه بين طيات الكتب، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ"¹.

ومهما تعددت طرق وأساليب طرح المادة العلمية، ومهما اختلفت وتنوعت أشكالها ومضامينها، يبقى الكتاب أفضلها وأكثرها فعالية في حفظ وعرض وتعليم المادة العلمية، فقد روي عن عبد الله بن عباس ؓ انه قال: "خير ما قيد به العلم الكتاب"². وعن الحسن البصري انه قال: "ما قيد العلم بمثل الكتاب"³.

وفي فضل الكتاب وما يحمله بين طياته من مختلف أصناف العلوم والمعرفة، قيل الكثير من الشعر الموزون، والكلام المنثور، ليكون مناراً يستنير به طالب العلم الناجح، وعبرة لمن توسوس له نفسه من طلبة العلم الكسالى، ومن الجهلاء من الناس الذين إذا ذُكر مجرد اسم

¹ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم 117 /ص 69. صحيح وضعيف الجامع الصغير (17/ 31) الألباني:

(صحيح)

² تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم 173 /ص 93

³ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم 201/ص 103

'الكتاب'، اشمأزت قلوبهم، واسودّت وجوههم، عافاني الله وإياكم من كره الكتاب والحقّد عليه.

فما أحلى قول الشاعر الذي يعدّ الكتاب خليلاً صادقاً صدوقاً يدرّش معه، ويحدّثه ويفشي له أسرارّه، ويستشيرّه إذا دارت فيه الدوائر وتغلّى عنه الأصدقاء¹:

نعم المحدث والرفيق كتاب تلهو به إن خانك الأصحاب
لا مفشياً للسرّ إن أودعته ويُنال منه حكمة وصواب

وهذا شاعر آخر يذمّ من لا يحب الكتاب وما يحتويه، ويعدّه أكثر جهلاً من الثور، لذلك، ينصح باحتساب صحبة الجهلاء وأعداء الكتاب، يقول سليمان جليس ثعلب²:

لقد ضلت حلوم من أناس يرون العلم إفلاساً وشوماً
كسانا علمنا فخراً وجوداً وبالجهل اكتسوا عجزاً ولوماً
هم الثيران إن فكّرت فيهم فكيف بأن ترى ثوراً عليماً
فجانهم ولا تعتب عليهم وكس للكتب دوغم نديم

وفي وصفه للكتاب، قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ³: "الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والزيل". وقال أيضاً: "ولا أعلم جاراً أبرّ ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً

¹ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم 263/ص 119

² جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر للقرطبي، ج 1/ص 58

³ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي اللبني الملقب بالجاحظ، ولد في مدينة البصرة سنة 159هـ ومات فيه سنة 255هـ، يُعدّ من كبار أئمة العلم باللغة والأدب ومن رؤوس نحلة الاعتزال، من كتبه المشهورة: البخلاء، البيان والتبيين، والمحاسن والأضداد والحيوان.

أظهر كفاية، ولا أقل حيانة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً وتكلفاً من كتاب¹.

وفيه قال الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد: "لا شيء أثر للنفس، ولا أشرح للصدر، ولا أوفر للعرض، ولا أذكى للقلب، ولا أبسط للسان، ولا أشد للجنان، ولا أكثر وفاً، ولا أقل خلافاً، ولا أبلغ إشارة، ولا أكثر عبارة، من كتاب تكثر فائدته، وتقل مؤونته، وتسقط غائلته وتحمد عاقبته، وهو محدث لا يُملّ، وصاحب لا يُخلّ، وجليس لا يتحفظ، ومترجم عن العقول الماضية، والحكم الخالية، والأهم السالفة، يحكي ما أماته الحفظ، ويجدد ما أحلقه الدهر، ويرز ما حجبته الغباوة، ويصل إذا قطع الثقة، ويدوم إذا خان الملوك"².

فالكتاب وعاء المادة العلمية، كبر حجمه أم صغر، وجد على رفوف المكتبات أم نُزّل في مواقع الإنترنت، فمنه يُشرب العلم، وتُسقى المعرفة، فإن كان الوعاء نظيفاً خالياً من الدرن الظاهر والخفي، كان العلم نقياً صافياً نافعاً، استساغه واستدوقه طالب العلم، أما إذا كان وسخاً تفوح منه راحة قدرة، وتسيل منه سموم الأفاعي، اشمزت نفس طالب العلم، وفسدت قابليته إن أدركها، وتشوّت أراؤه وأفكاره، وسّمت فكره وعقله، وسودت قلبه، ودمرت مستقبله.

لذا يمكننا أن نقول إن "المادة العلمية" بشكل عام، وبما فيها الكتاب بشكل خاص تحتل مكانة رفيعة وتعدّ عنصراً فعالاً ومكملاً لمكونات العملية التعليمية، فالمُعلّم والطالب بحاجة لمادة علمية تساعدهما في تحقيق التعلّم والتعلّم، سواء كانت هذه المادة نصاً كتابياً أم شفويّاً، كي يتحقق الاتصال الفعّال بينهما من جهة وبين المؤسسة التعليمية من جهة أخرى كما سيأتي ذكره في الفصل الخامس من هذا الكتاب، إن شاء الله.

¹ تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص 119

² تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص 121

دور المادة العلمية

تلعب المادة العلمية دوراً هاماً في نجاح العملية التعليمية بين المُعَلِّم والطالب في المؤسسة التعليمية، وتساهم أيضاً في حفظ العلم والمعرفة ضمن طيات كتاب أو غيره من المَوَادِّ التَّعْلِيمِيَّةِ من جهة، ونشر العلم والمعرفة بين الطُّلَّاب خلال دراستهم وتحصيلهم العلمي من جهة أخرى.

وتشكل المادة العلمية حلقة وصل بين العبد وربّه، وبين العالم والمُتَعَلِّم، وبين المدرّس والطالب، فإذا كانت المادة العلمية نافعة وقيمة وفيها الخير للمُتَعَلِّم، كانت حلقة الوصل قويّة وممتنة ومستمرة، وتنجح بها العملية التَّعْلِيمِيَّة، أما إذا كانت غير نافعة أو مضرة، ضعفت حلقة الوصل، وبالتالي تفشل العملية التَّعْلِيمِيَّة.

اعلم -عزيزي القاري- إن أكمل وأصدق وأنفع وأجمل مادة علميّة عرفتها الإنسانية هو القرآن الكريم، كتاب الله وكلماته ﷻ أنزله على نبيّنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، ليكون وسيلة وصل بين العبد وربّه، فالقرآن الكريم هو هدى ورحمة للعالمين، وكتاب علمٍ نافع لا شك ولا ريب فيه، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْيَكَانَ *﴾ [الرحمن: 1-4]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَكَأَيِّنْ زِينَةٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الإسراء: 82] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 89].

وأن المادة العلمية التي تحتويها سنة نبيّنا محمد ﷺ من أقوال وأفعال هي مادة حق وصدق وعدل، وفيها النفع والخير الكثيرين للإنسان، لأن كل ما جاء به من مادة علميّة هي بوحى من الواحد الأحد، سبحانه وتعالى، فقال جلّ وعلا: ﴿وَالْحَمْدُ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿١﴾ وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾ [النجم: 1-4].
وروي عن عبد الله بن عمرو، قال: كنتُ أكتب كل شيء أسمعُه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: "اكتب؛ فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق"¹.

ما أجل وأنفع السُّدُور الذي يلعبه مبدأ التَّلَقِّي — سواء كَانَتْ مادته العلمية شفهية أم كتابية — إن كان مصدره كتاب الله وسنة رسوله العظيم ﷺ، لما في ذلك من نفع وصلاح للإنسان في حياته وآخرته. والمقصود بمصدر التَّلَقِّي هنا ليس بالضرورة أن يكون جملة وتفصيلاً من الكتاب والسنة الشريفة، وإنما الأصول التي تقوم عليها مادة التَّلَقِّي يجب أن تكون مبنية على أصول 'قال الله وقال الرسول'، فما أجل مادة الأحياء، مثلاً، عندما نجد أن مادتها العلمية تنبذ وتذم نظرية 'داروين الضَّالُّ' في خلق الإنسان، وتؤكد على عقيدة التَّوْحِيد ووحداية الله عزَّ وجلَّ، وتقوم على أسس هذه الآيات القرآنية العظيمة، التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّفُثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّطَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّطَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَيَقْرَأُ فِي الْأُمِّ حَامٍ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُؤْفَىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدِّ إِلَى أَمْرِ ذَلِكُمُ الْعُمْرِ كَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَيَمُرُّ الْفَرْصَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَلَبَتْ مِنْ كُلِّ فَتٍجٍ هَبَّحَ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْغَوَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَكَأَنَّهُ هُدًى وَكَأَنَّهُ كِتَابٌ مُّنِيرٌ ﴿٤﴾ [الحج: 5-8].

¹ تقييد العلم للخطيب البغدادي، رقم 141/ص 81

وبهذا تلعب المادة العلمية دوراً تعليمياً مباركاً فيه ودورَ تعزيزٍ للمبادئ العقديَّة التي يعتنقها طالبُ العلم العاقل.

إن النفس الذي يستشعره طالب العلم من المادة العلمية التي يدرسها، ونوعية الرسائل الخفية التي يقرأها المتعلم من خلال اضطلاعهِ على مادة علمية ما، يلعبان دورهما في تشكيل عقلية وأخلاقية وثقافة المتعلم العلمية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية، وهذا يقوم على مصدرين للمادة العلمية؛ مصدر يُصدِّر عقيدة التوحيد والهداية والعلم النافع، ومصدر يُصدِّر عقيدة الشرك والفسق والضلال والتجهيل والتعاسة. لذا احرص على صفاء ونقاوة مصدر المادة العلمية التي تأخذ منها أو تتعامل معها، واحذر من مصادر التلقي التي تعارض مع تعاليم وأصول ومبادئ وقيم وأخلاقيات ديننا الإسلام الذي رضىه الله ﷺ لنا، حيث قال جلَّ جلاله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وبما أن ديننا الحنيف كامل تام، وفيه كل شيء يحتاجه الإنسان لدينه ولدنياه، وقد كمله الله ﷺ ورضيه لنا، فلم لا نهمل منه ونحرص عليه؟!

مَقُومَاتُ جَوَدَةِ الْمَادَّةِ الْعِلْمِيَّةِ

كيفية مكوّنات العملية التعليمية، ينبغي أن تتصف المادة العلمية بجودة الخصائص والخصال التي تجعلها مُميّزة من حيث الشكل والمضمون، من أجل تسهيل وتفعيل عمليّة التعليم والتعلم بين المعلم والطالب.

إن حَسَوَةَ خصائص المادة العلمية تختلف وتتنوع باختلاف وتنوع طرائق وأساليب عرضها أو طرحها لجمهور المتعلمين شكلاً ومضموناً، فعلى سبيل المثال، خصائص المادة العلمية التي تُعرض على السبورة التقليدية تختلف عن تلك التي تُعرض أو تُطرح بواسطة 'برنامج البور بوينت' الإلكتروني، أو في نشرات تعليمية، أو كتب دراسية، لذلك

فضلت أن أقدم مجموعة من الخصائص المتعلقة بشكّل ومضمون المادة العلمية بشكّل عام مع ذكر بعض الأمثلة، لتكون دليلاً مختصراً عن مَقُومَات جُودَةِ المادة العلمية.

جُودَةُ الخصائص الشَّكْلِيَّةِ للمادة العلمية

لا شكّ أن الشَّكْل أو المظهر الخارجي لأي شيء من الأشياء أو لأي أمرٍ من الأمور مُهمٌّ ويلعب دوراً إما إيجابياً أو سلبياً في توصيل رسالة ما، فالشَّكْل الحسن يدل على مقدار صاحب الرسالة وعلى أهميّة محتواها، والشَّكْل الجميل يجلب السعادة والسرور لمتلقّي الرسالة، والشَّكْل الواضح المُنظّم يساعد ويُعزّز عَمَلِيَّةَ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ لدى المُعَلِّم والمُتَعَلِّم.

وبالعكس نجد انه إذا كان الشَّكْل لأي شيء من الأشياء أو لأي أمرٍ من الأمور سيئاً أعطى دلالات وضيفة ومخزية عن حامل الرسالة ومضمونها، فالشَّكْل الرديء منفرّ ومقلق لمتلقّي الرسالة، والشَّكْل المخلوط المشوّه وغير الواضح يعرقل عَمَلِيَّةَ التَّعْلِيمِ والتَّعَلُّمِ لدى المُعَلِّم والطالب.

فمن أجل نجاح العملية التَّعْلِيمِيَّة وتحقيق أكبر قدرٍ من التَّعَلُّم لدى الطالب في كافّة مراحلهِ الدَّرَاسِيَّة، ينبغي أن تتميز المادة العلمية بخصائص شكلية مُعيّنة مهما كانت نوعيّة عرض وطرح المادة العلمية، نذكر بعضها هنا على سبيل المثال وليس الحصر:

أ. استخدام السُّبُورَةِ

بالرَّغْم من انتشار استخدام برامج ووسائل الإعلام المتعدّدة وأنظمةُ المُلْتِمي ميديا والهيبَر تَاكسْتِ المختلفة في عرض المعلومة، وطرح الرسالة لجمهور المُتَعَلِّمين، تبقى السُّبُورَةُ الوَسِيلَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ والأكثر انتشاراً واستعمالاً في عرض أو طرح أو شرح المعلومة للمُتَعَلِّم في المُؤَسَّسَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، لذلك يجب أن تتميز هذه الوسيلة بالتالي:

1. أن تكون السُّبُورَةُ وسيلةً لكتابة المصطلحات والعبارات والتعاريف والأفكار الرَّئيسة ولبعض الرسومات المهمة فقط، وليس لتسجيل نصوص مطوّلة لينسخها الطُّلاب.

2. أن تكون الكتابة على السُّبُورَةِ كبيرة وواضحة بحيث يستطيع الطُّلاب قراءتها بسهولة.

3. أن لا تكون الكتابة على السُّبُورَةِ مكتوبة بالطباشير أو بأقلام باهتة اللون، وأن تكون الأقلام المستخدمة جيدة وبألوان واضحة حتى لا يواجه الطُّلاب صعوبة في تميّز الألوان والقراءة.

4. أن تبدأ عَمَلِيَّةُ طرح وشرح المعلومة للطُّلاب بعد الانتهاء من كتابتها على السُّبُورَةِ، وليس ووجه المُعَلِّم نحو السُّبُورَةِ وهو يكتبها.

5. أن تُترك السُّبُورَةُ نظيفة عند مغادرة الصف الدَّرَاسِيّ.

وقد ظهر مؤخراً أنواعاً مختلفة من السُّبُورَات المستخدمة في التَّعْلِيم في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّة، وأكثرها شيوعاً وفائدة هي 'السُّبُورَةُ التفاعلية البيضاء' الَّتِي تُسمى باللغة الإنجليزية 'Interactive Whiteboard'، لهذه السُّبُورَةُ السحرية خصائص مُميّزة لاتصالها بالحاسوب واستخدامات متنوعة ومختلفة لضرورة لذكرها هنا.

ب. استخدام برنامج "البوربوينت" Powerpoint

أصبح كثير من المُعَلِّمين والمحاضرين في المؤسسات التَّعْلِيمِيَّة يستخدم برنامج 'البوربوينت' لعرض أو طرح المعلومة لجمهور المُتعلِّمين، لما فيه من خصائص مُميّزة أفضل من تلك الموجودة في 'الكواشف الضوئية' التَّقليديَّة. لكن من شروط استخدامه بفعالية تامة ليس فقط أن يكون المُعَلِّم متمكناً من استخدام برامج الميكروسوفت في

الحاسوب الآلي، وإنما ينبغي عليه أن يعلم كيف يتعامل مع المادة العلمية التي يريد أن يعرضها على المتعلمين من خلال استخدامه لبرنامج 'البوربونت'.

لأهميته في التعليم والتعلم يهتم مقدمو الجودة بجودة عملية عرض المعلومات الشكلية عن طريق استخدام برنامج 'البوربونت'، لذلك ينبغي على المادة العلمية المطروحة من خلاله أن تتميز بالخصال التالية:

1. أن يكون الغرض من استخدام برنامج 'البوربونت' وعرض الصورة الشفافة 'السلايد = slide' واضحاً بالنسبة للمتعلم، فيما إذا كان للمناقشة، أو لعرض معلومات أو رسومات، أو لطرح أسئلة، أو لتبيان مهام أو نشاطات أو ملخصات، الخ.....، وللمتعلم فيما إذا كان ينبغي عليه نسخها، أو إكمال نشاط في النشرة لديه، أو تدوين بعض الملاحظات، الخ....
2. أن تكون كمية المادة العلمية -من نص أو معلومات أو رسومات - الموضوعية في كل 'سلايد' معقولة الحجم وبشكل غير مزدحم، والخط المستخدم واضحاً وكبيراً.
3. أن تكون كافة 'السلايدات' مكتوبة بخط مألوف وبحجم كبير يمكن مشاهدته بوضوح وقراءته بسهولة من مؤخرة الصف أو القاعة، حتى في ضوء النهار، لذلك يُنصح بتجنب استخدام الألوان الباهتة مثل اللون الأصفر أو اللون البرتقالي، أو غيرهما من الألوان الباهتة.
4. أن تكون اللغة المستخدمة في عرض المادة العلمية من خلال السلايدات واضحة وخالية من الغموض والمنااسبة للمجال المستخدمة فيه.
5. أن يتم عرض 'السلايدات' واحدة تلو الأخرى بأسلوب مشوق وممتع للعين المجردة وللأذن الصاغية. وينبغي عدم الانتقال من 'سلايد' إلى أخرى قبل انتهاء المتعلمين من قرائتها أو أخذ بعض المعلومات منها.

6. أن تكون 'السليدات' معروضة بتسلسل رقمي ومنطقي بحيث لا تختلط ببعضها، ومن أجل الرجوع إليها في عروض أخرى مختلفة.
7. أن يكون محتوى 'السليدات' مسجلاً في نشرات ورقية تُعطى للمُتعلمين، بحيث لا يضيع وقتهم في نسخ كميات إضافية أثناء الدرس أو المحاضرة.
8. أن يكون جهاز العرض 'Projector' والشاشة والكمبيوتر الثقال في مكان يسمح لكافة جمهور المُتعلمين برؤية جيدة للمادة العلمية المعروضة على الشاشة أو الجدار.
9. أن تكون المعلومات أو الرسومات معروضة على كافة مساحة الشاشة أو الجدار بحيث يستطيع أن يراها المُتعلمين الذين يجلسون في مؤخرة الصف أو القاعة.
10. أن يكون المُعَلِّمُ مواجهاً للطلاب وليس الشاشة عند مناقشته للمادة العلمية المعروضة على الشاشة أو الجدار.

ت. استخدام النشرات التعليمية 'Handouts'

بعد ظهور برامج الكمبيوتر المتعددة، وانتشارها على نطاق واسع بين المُعلِّمين والمُتعلمين، أصبح من السهل عرض المادة العلمية في نشرات تعليمية وتوزيعها على الطلاب قبل أو بعد الدرس، يعتمد ذلك على الأهداف السلوكية المتوقعة والمتعلقة بموضوع النشرة.

هما كان الغرض التعليمي من النشرات، سواء كان من أجل تحبب الطلاب نسخ ما يقوله المُعَلِّم في الدرس، أم من أجل تحبب الطلاب كتابة المعلومات التي يذكرها المُعَلِّم على 'السليدات' مرة ثانية، أم إعطائهم معلومات مُعَيَّنة، أم تزويدهم بأسماء كتب ومراجع، ينبغي على شكل المادة العلمية المعروضة في هذه النشرات أن يتميز بالخصائص التالية حتى تتحقق الجودة المرجوة في العملية التعليمية:

1. أن تكون النشرات جاهزة قبل الدرس أو المحاضرة بوقت كاف بحيث يتم تصويرها قبل الشروع في الدرس أو المحاضرة.
2. أن يكون في النشرات مكان كاف يستخدمه الطالب من أجل إضافة تعليقاتهم وملاحظاتهم وأسئلتهم أثناء تقديم الدرس أو المحاضرة.
3. أن تكون النشرات جذابة المنظر باستخدام أدوات الطباعة التي تجعلها مقروءة ومفيدة وماتعة في الوقت نفسه.
4. أن تكون النشرات مرقمة بوضوح وانتظام بحيث يستطيع الطالب وضعها في إضبارة بسهولة.
5. أن تكون خالية من النصوص الطويلة التي لا علاقة لها بموضوع النشرة.

ث. استخدام الكتاب

ما زال الكتاب يُعدّ من أهمّ الوسائل التعلّيمية التي تُعرض فيها المادة العلمية على الطالب خلال كافّة مراحل التعلّيم الأساسي وما بعده على حد سواء، ولا شكّ أن شكل وطريقة عرض أو طرح المعلومات في الكتاب يلعب دوره في عمليّة التعلّيم والتعلّم، فإذا حقّق شكل الكتاب وكيفيّة طرح المعلومات فيه قبولا إيجابيا عند المُعلّم والطالب، كان التعلّيم ناجحا وفعالا من جهة، وحصل التعلّم المرجو من المادة العلمية بفعالية وعمق من جهة أخرى.

لذلك نجد أن مقوّمَي جَوْدَة شكل المادة العلمية يولون اهتماما خاصا للنواحي الشكّليّة للكتاب كمصدر أساسي للعلم، فحرصا منا على أهميّة شكل الكتاب وعلى المادة العلمية المطروحة فيه، نذكر أهمّ الخصال الشكّليّة التي ينبغي أن يتميّز بها:

1. أن يكون شكل غلاف الكتاب جذابا وجميل التصميم، ومناسبا للطالب والمرحلة الدّراسيّة التي هو فيها.

2. أن يكون عنوان الغلاف معروضاً على الغلاف بشكلٍ متناسقٍ ومنسجمٍ مع شكلٍ وحجم الكتاب.
3. أن يكون شكل الخط المستخدم مناسباً للمرحلة الدِّراسِيَّة الَّتِي فِيهَا الطَّالِب، وأن يكون حجمه كبيراً وواضحاً ومرسوماً بالخط المألوف لدى الطُّلَّاب.
4. أن يكون الغلاف مصمماً بالألوان المريحة للبصر، وفيها نوع من الإبداع الفني التَّعْلِيمِي.
5. أن تكون فصول الكتاب ابتداءً من المقدمة وانتهاءً بفهرسه مقسمة ومعرضة بشكلٍ واضحٍ وتسلسلٍ علميٍّ ومنطقيٍّ.
6. أن تكون العناوين الرُّئيْسَة والثانوية في الفصل أو الجزء في الكتاب مكتوبة بخط كبير، وواضح، ومألوف، كما يُفَضَّل استخدام اللون الأحمر أو الأزرق في كتابتها لتمييزها عن النصّ.
7. أن تكون الأشكالُ والرسومات الموجودة ضمنَ النصّ مصممةً بشكلٍ فني وبالألوان.
8. أن تكون بعض ألوان وأحجام الخط مستخدمةً في نصوص الكتاب لإظهار أهميَّة معنى مصطلحٍ علميٍّ أو أدبيٍّ أو فقهِيٍّ، أو اسم شخصيَّةٍ أو موقعة تاريخيَّة، أو غيرها من الأمور الهامَّة في النصّ.
9. أن تكون مساحة الهوامش مناسبة وكافية لكتابة بعض الملاحظات والتعليقات إذا أحسَّ الطالب أن يسجِّلها، بالرَّغْم من أنني لست من أنصار من يجعل من كتابه لسوِّحة من الخطوط والألوان و'الخرايش' هنا وهناك مدَّعيًا أنه يأخذ ملاحظاتٍ ويضع الخطوط الطويلة والقصيرة تحت وحول الكتابة!

ج. استخدام مواقع الإنترنت

المقصود هنا بمواقع الإنترنت المواقع التعليمية النافعة فقط، وليس ما هبّ ودبّ من المواقع المحرّمة شرعياً، والمواقع السّفسدة أخلاقياً واجتماعياً، والمواقع السّطّيعَة للوقت، والتي لا يمكن ذكرها ولا حصرها بعدد، لأنها تشكّل - حسب التقدير الشخصي وبدون محايدة - نسبةً تعادل أكثر من 70% من حجم المواقع الموجودة على الإنترنت. لذلك أنصح أولياء الأمور من أباء وأمهات، ومسؤولين في المؤسسات التعليمية أن لا ينخدعوا ببريق الإنترنت الذي أوّلّه بهرّ وهجة وآخره حسرة وظلمة، وأن يُخسِنوا ويرشّدوا استخدامَه لما فيه لمصلحة الإنسان في دنياه وآخرته.

من الصعب ضبط شكل وكيفية طرح المادة العلمية في موقع من مواقع الإنترنت، لتعدد الأغراض والأهداف من عرضها ونوعية الرسالة التي تريد أن توصّلها للمُتعلّم، لكن للحكم على جَوْدَة شكل موقع من المواقع، ينبغي أن يتحلّى بالخصال التالية:

1. أن يكون الموقع خالياً من الدّعايات والإعلانات المحرّمة شرعياً والمرفوضة أخلاقياً وعرفياً واجتماعياً.
2. أن يكون الموقع خالياً من أي عامل بصري أم سمعي يعرقل عمليّة التّعلّم والتّعلّم.
3. أن يكون الغرض من الموقع واضحاً وسهلاً لدى المُتعلّم.
4. أن تكون آلية استخدام الموقع سهلة وعلمية ومنطقيّة في حركاتها وأجراءاتها.
5. أن يكون شكل الموقع والمادة العلمية المطروحة فيه جذاباً وماتعاً.
6. أن يكون شكل الكلام والأشكال والرسومات المطروحة في المادة العلمية كبيرة نوعاً ما وواضحة وبالألوان أيضاً.

فشكل المادة العلمية المطروحة على السّبورة في الصف، أو في النشرات التعليمية التي يوزعها المُعلّم على طلابه، أو في الكتب الدّراسية، أو في مواقع الإنترنت النافعة، أو

غيرها التي لم أذكرها لعدم الضرورة، مهم جداً في تحسين جَوْدَةِ المادَّة العلمية وبالتالي العلميَّة التَّعْلِيمِيَّة، لذلك ينبغي الحرص على عرضها وطرحها بشكلٍ جميل وماتع ومألوف لدى طالب العلم، والله الموفق.

جَوْدَةُ الخصائص الضمنيَّة للمادَّة العلميَّة

لا شكَّ — كما تبين معنا أعلاه — أن "الشَّكل" في عرض وطرح المادَّة العلميَّة مهم ويلعب دوراً إيجابياً في عمليتي التَّعليم والتَّعلُّم، غير أنه غير كاف لتحقيق الغرض المطلوب من دراسة المادَّة العلميَّة، لأن مضمونها وما تحتويه من معلومات هو أصل المادَّة العلميَّة التي تشكِّل المعرفة أو العلم الذي يحصل عليه الطالب من جرَّاء دراسته أو مطالعته لها، لذلك ينبغي على مقومو الجَوْدَةِ أن يهتموا بمعايير تقويم جَوْدَةِ مضمون ومحتوى المادَّة العلميَّة من الأوجه التالية:

أ. المحتوى والمادَّة العلميَّة أو المساق العلميّ

سواء كانت المادَّة العلميَّة أو المساق العلميّ مادَّة نظرية أم عمليَّة، يُعدُّ محتواها أهمّ العناصر الضمنيَّة التي ينبغي أن تعتدَّ عند صناعتها أو اختيارها لأن فيها العلم والمعرفة والمهارات وما ينطوي عنهم من رسائل ظاهرة أو خفية على حدِّ سواء، لذلك يهتم مقومو جَوْدَةِ مضمون للمادَّة العلميَّة بأن يتميَّز محتواها بالخصال التالية:

1. أن يُتدوَّ كل كتاب بكتابة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، لأن ذلك يجلب البركة للمادة العلميَّة ويُسهِّل عمليَّة التَّعليم والتَّعلُّم، ولاسيَّما إذا ابتدأ بها المُعلِّم درسه والطالب قراءة المادَّة العلميَّة المعنية، ولأهميَّتها ذكرها العزيز الحكيم في القرآن الكريم، حيث قال ﷺ: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» [النمل: 30]. هذا الأسلوب

اعتمده الأولون والآخرون من أجل العلماء من الصحابة، وأئمة التابعين وكبار الكتاب والمصنفين من السلف الصالح لما فيه من بركة في نشر العلم وتحصيله.

ولو توقفنا قليلاً، ونظرنا في عادة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في كيفية بدء الكتابة وطرح المسألة، لوحدنا انهم يبدأون كتبهم بالبسملة، وتسمية المعني، والتحميد ثم يطرحون مسألتهم في أسلوب يتحلى بأعلى درجات الجودة في صياغة الخطاب، فعن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه فكتب إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأقر لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت."¹

2. أن يُبتدأ في مقدمة كل كتاب أو مادة علمية بخطبة مختصرة تُذكر القارئ بأن الحمد والشكر والنعمة لله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبد الله ورسوله ﷺ، كما في المثال التالي: "إنا الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَكَاتِبُوا إِلَآ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ مَقْرِبًا﴾ [النساء: 1].

¹ صحيح الأدب المفرد، رقم 856

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].¹

3. عندما يُذكر اسم الله في الكتاب أو المادة العلمية، ينبغي أن يُكتب اسم الله تعالى بالتعظيم مثل: 'تعالى، أو: سبحانه، أو عز وجل، ونحو ذلك'، وكذلك كلما كُتب اسم النبي محمد ﷺ، ينبغي كتابة بعده 'الصلاة والسلام عليه' ويُصلى عليه باللسان أيضاً، لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]، ويُحذَر من الاختصار فيها ولو وقعت في السطر مراراً وليس كما يفعل بعض الجهلاء من الكتاب والمحررين فيضعون: 'صلع، أو صلعم، أو صلعم'، كل ذلك لا يجوز وغير لائق بحق نبينا المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام.

4. عندما يُذكر اسم صحابيٍّ، ولاسيما كبار الصحابة، ينبغي أن يُكتب بعده: 'رضي الله عنه'، وإذا كان الصحابيُّ ابناً لـ صحابيٍّ، كُتب بعده: 'رضي الله عنهما' ويُكتب 'عليه السلام' للأنبياء والملائكة، وإذا ذُكر أحد من السلف الصالح، يُكتب بعد اسمه 'رحمه الله'، ولا سيما الأئمة الأعلام منهم.

5. أن يحتوي على قائمة من الأهداف والعمليات التعليمية التي تتعلق بالمادة العلمية.

6. أن يحتوي على دليل أو برنامج دراسة المادة العلمية، وفيه إشارة واضحة للفصول والعناوين الرئيسة والفرعية للتصوص والتمارين، ولترتيب النشاطات والفعاليات التعليمية فيه.

7. أن يحتوي على المعرفة اللازمة، وعلى المهارات الضرورية حسب مستوى المادة العلمية والمرحلة الدراسية المناسبة للطلاب.

¹ مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج 1/ص 3

8. أن يحتوي على مادة علمية قابلة للاختبار الكتابي أو الشفوي للتأكد من حصول التعلّم لدى الطالب.
9. أن يكون المحتوى فيه اتساع وشمولية للمادة العلمية بشكلٍ معقول ومنطقي.
10. أن يكون هناك توازن في محتوى معلومات المادة العلمية كمّاً ونوعاً.
11. أن يكون هناك تلاؤم وتناسب في المعلومات المطروحة.
12. أن يكون هناك اختلاف وتنوع في محتوى المادة العلمية المطروحة.
13. أن يكون المحتوى مكتوباً بلغة واضحة وسهلة لتسريع عملية التعليم والتعلّم.
14. أن يحتوي المحتوى على ذكرٍ لله والرّسول محمد ﷺ عندما يتطلب الأمر، لأن ذلك يجلب البركة والسعادة للمُعلّم والطالب على حد سواء.
15. أن يكون المحتوى خالياً من أية معلومة تسيء بسمعة ديننا الحنيف أو تتعارض مع مبادئه السمحاء.

ب. المحتوى والمُعلّم

إضافةً لأهمية خصائص محتوى المادة العلمية التي سبق ذكرها، ينبغي أن تتوفر فيه رسائل خاصة بالمُعلّم، وما ينبغي عليه أن يفعله خلال عملية تدريس محتوى مادة علمية ما، فبعض المواد العلمية توضح رسائلها للمُعلّم من خلال تزويده بدليل المُعلّم لتدريس محتوى المادة العلمية أو ذكر بعض الإرشادات والتوجيهات في مقدمة محتوى المادة العلمية، وبعض المواد العلمية لا تهتم بذلك وترك الأمر لفهم وتقدير واستيعاب المُعلّم لمحتوى المادة العلمية.

في كلتي الحالتين يبقى الأمر ناقصاً وبحاجة لتوضيح حتى يتثنى للمُعلّم من تدريس محتوى مادته العلمية بعمق وبفعالية، ويحصل الطالب على الفائدة المرجوة من دراسته لتلك المادة، لذلك ينبغي على المُعلّم أن يدرك أن محتوى المادة العلمية يحتوي على رسائل ظاهرة وضمنية ينبغي عليه أن يوصلها لطالب العلم، ومنها مايلي:

1. انه يحتوي على نسبة الإنجاز الأكاديمي، أو التطور الشخصي أو التطور الاجتماعي الذي ينبغي أن يوصله المعلم للطلاب شفويًا أم كتابيًا.
2. انه يحتوي على قضايا خاصة بتساوي الفرص الخاصة بالجنس أو الطبقة الاجتماعية، أو الجماعات الثقافية، أو القدرات العقلية والجسدية، معروضة في النص على شكل صور وأشكال وأرقام لكي يوصلها المعلم للطلاب بوضوح وفعالية.
3. انه يحتوي على رسائل خفية تتعلق بما يلي:
 - أ- أين يقف المعلم أثناء الدرس.
 - ب- هل ينظر إليهم عندما يتكلم إليهم وينظرون إليه؟
 - ت- هل تنسجم معاً وسمات وجهه مع كلامه؟
 - ث- هل يضحك عندما يعاقب الطلاب؟
 - ج- هل يؤذّب الطلاب ويتابع هذا الإجراء بجدية.
 - ح- إلى آخره...
4. انه يحتوي على مواد خفية صعبة التقويم من قبل المعلم، نذكر منها ما يلي:
 - أ- التطور والنمو الروحي والأخلاقي والاجتماعي والثقافي عند الطلاب.
 - ب- مبدأ تساوي الفرص والمساواة والعدل بين الطلاب.
 - ت- التوجيه والإرشاد ورعاية الطلاب.
 - ث- العناية بالطلاب ذوي الاحتياجات التربوية الخاصة.
5. انه يحتوي على مواد خفية تؤثر بالطلاب أكثر من الرسائل الأكاديمية الواضحة في المحتوى عادة، ومثال على ذلك:

- أ- كيف يتعامل المعلم مع طالب يريد أن يطرح فكرة أو موضوعاً جديداً خارجاً عن موضوع المادة العلمية المقررة في المنهاج الدراسي؟ تحيّل أحد الطلاب جلب إلى الصف مشكلة شخصية أو مسألة أكاديمية جديدة

وحاول أن نجد حلاً مرضياً له، ولبقية الطلاب الذين يختلفون في ردود فعلهم لثل هذا الموقف التعليمي.

ت_ المحتوى والطالب

يُعدُّ محتوى المادة العلمية موجَّهاً بشكلٍ رئيس إلى الطالب الذي تدور حوله العملية التعليمية، فيقدر ما يكون المحتوى بمستوى الطالب الأكاديمي والفكري والعقلي والثقافي، والمرحلة الدراسية التي هو فيها، يكون مناسباً وملائماً ومنسجماً مع الموقف التعليمي.

إنَّ محتوى المادة العلمية لا يلعب دوراً إيجابياً وفعالاً في تزويد الطالب بما يحتاجه من معرفة خاصة بالمادة المفروضة أو المساق المقرَّر فقط، بل يزوده أيضاً بمهارات تتعلق بالارتِّصال، ومهارات حلِّ المسائل والمعضلات، ومهارات الدراسة والتعلُّم العميق الفعَّال.

فعلى سبيل المثال، وليس الحصر، ينبغي على المحتوى أن يحتوي تدريس المهارات وتعزيز القدرات التالية، وفقاً لمستوى الطالب الأكاديمي والمرحلة الدراسية التي يمر فيها:

1. مهارات الارتِّصال بشكلٍ عام: القراءة والكتابة والاستماع والتكلُّم، والقدرة على استخدامها بشكلٍ عميق وفعال.

2. مهارات التكلُّم من خلال تصوير الطلاب يتحدَّثون ويلقون محاضرات أو أبحاث شفوية، سواء كان ذلك باللغة العربية أم بالإنجليزية.

3. مهارات الدراسة الأكاديمية ومهارات التفكير والتحليل النقدي العميق الفعَّال.

4. مهارات الاستماع والقدرة على متابعة المحاضرات الأكاديمية في الجامعة وتدوين الملاحظات خلالها.

5. القدرة على المساهمة في حلقات البحث والتَّفاش والحوار المبني على مبدأي العقل والنقل.

6. القدرة على اختيار ما يقرأ وعلى القدرة على القراءة بشكلٍ نقدي وفعال.

7. القدرة على التحليل والاستنباط.

8. القدرة على نقد الحجج ودحضها والتعبير عن وجهات النظر.
9. القدرة على الكتابة بشكلٍ عميق وفعال.
10. القدرة على صياغة تركيبيّة وذكر المراجع.
11. القدرة على كتابة بحث مطوّل أو رسالة تخرّج.

ث_ المحتوى وإدارة المؤسسة التعليميّة

إن علاقة محتوى المادة العلميّة بإدارة المؤسسة التعليميّة كعلاقة السيد بالعبد، فالسيد يحدد مايتناوله العبد من طعام وشراب، ومتى يُسمح له باللعب والراحة، وأين ينام ليلته، وغيرها من الأمور التي تعتمد حياة العبد عليه، وإدارة المؤسسة التعليميّة التي تُعَدُّ من أهمّ مصادر التلقين الأساسيّة للعمليّة التعليميّة، تحدّد ماهيّة، ونوعية، وكميّة محتوى المادة العلميّة التي تريد أن يتعلّمها الطالب، فإذا كان المُتحمّك بالمصدر جاهلاً ومتكبراً وعُلماًنيّاً بأفكاره وقيمه ومبادئه، جاء بمحتوى ناقص ومشوّه وشائب، مما يؤدي إلى انتشار الضعف العلمي والقصور الفكريّ وظهور المبادئ والقيم السامّة بين المُتعلّمين، والعكس صحيح.

لذلك ينبغي على إدارة المؤسسة التعليميّة، سواءً كانت ممثلة بإدارة المدرسة، أو الكلّيّة، أو الجامعة، أو مديرية التربية والتعليم أن تعمل على التأكّد أن محتوى المَوادّ التعليميّة بشكلٍ عام يقوم بالأمور التالية:

1. أن المحتوى ملتزم بتعاليم ديننا الحنيف، وأنه خال من أي شيء يحطّ من عاداتنا وتقاليدنا، وأنه مُلزمٌ قانونيّاً لكافة الأطراف المشتركة في العمليّة التعليميّة، من مُعلّم وطالب ومؤسسة تعليميّة.
2. أن المحتوى يروّج للتطوّر والثمّو الرُوحانيّ السليم، ومكارم الأخلاق ومحاسنها، والقيم الثقافيّة الجميلة، والنشاطات البدنيّة الصحيّة، والتقدم العقليّ والفكريّ والعلميّ الحرّ لدى المُتعلّمين ضمن المؤسسة التعليميّة.

3. انه يعدُّ هؤلاء الطلاب لتناول الفرص، وتحمل المسؤوليات، وممارسة الخبرات العلمية والعملية في حياتهم المستقبلية عندما يتخرجون من المؤسسة التعليمية إلى سوق العمل.
4. انه يُعزَّز ويُثَمِّي لدى المُتعلِّمين كافة المساقات التعليمية والتحريرية التي يأخذونها خلال دراستهم في تلك المؤسسة.
5. يُثَمِّي لدى الطالب الشعور بالمسؤولية كعنصر فعّال في المجتمع، ويشجعه ليقوم بدوره الإيجابي في تحسين وتطوير المجتمع.

خلاصة

من خلال ما ذكرنا أعلاه تبين لدينا أن الوضع الحالي في معظم البلاد العربية للمادة العلمية كمكوّن أساسي من مكوّنات العملية التعليمية بحاجة لإعادة نظر في مفهومها، ومكانتها، ودورها في تعزيز وترويج عملية التعليم والتعلّم. كما تبين لدينا أن مصادر ومراجع الثّقافي مهمة جداً في تحديد عقيدة، وهوية، ومبادئ، وأخلاق، وسلوك الفرد في المجتمع، لذلك ينبغي أن نتمّ مصادر ومراجع تلقّي تقوم على عقيدة التّوحيد الّتي جاء بها كتاب الله عزّ وجلّ والسنة المطهرة الّتي نشرها رسول الله ﷺ ودعى إليها الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، والتّابعين لهم بإحسان الى يوم الدّين .

وعلى هذا الأساس تمّ تقديم تعريفٍ للمنهج الدّراسيّ والمادة العلمية مع ذكر أهمّ مَقَومَات جَوَدَةِ المادة العلمية الشّكلية والضمّنية، لتكون دليلاً لمن أراد الحفاظ على عقيدة التّوحيد وتبني مبادئ وأخلاقيات وسلوكيات أكّدها عليها ديننا الحنيف وحثّ عليها رسولنا الكريم محمّد بن عبد الله ﷺ.

وفي ختام هذا الفصل الموجز عن المادّة العلميّة وجودهما، أُلخِصَّ أهمّ الخصائص الّتي يجب أن يعتدّ بها عند كتابة أو إعداد أو اختيار أيّة مادّة علميّة مهما كان نوعها أو شكلها أو حجمها:

1. أن تكون مُعدّة بِشَكْلِ مُشجّع للدراسة.
2. أن تكون مواضيعها معروضة ومقسّمة بِشَكْلِ منطقيٍّ ومنظّم.
3. أن تكون واضحة الغرض والمهدف.
4. أن تكون لغتها واضحة، وسهلة، ومختصرة، ومفيدة.
5. أن يكون حجمها مناسباً للفترة الزمّية المخصّصة له.
6. أن تكون مناسبة لمستوى الطُّلاب اللّغوي.
7. أن تكون مناسبة لمستوى الطُّلاب العلميّ والفكريّ.
8. أن تتحدّى القدرات الفكريّة والعلميّة عند الطُّلاب.
9. أن تساعد على تطوير القدرات الفكريّة والخياليّة عند الطُّلاب.
10. أن تساعد الطُّلاب في اكتشاف معنىّ للأشياء.
11. أن تساعد الطُّلاب في فهم الواقع المحيط بهم.
12. أن لا تتعارض مع عقيدة التّوحيد ومبادئ الدّين والقيم الثّابتة والأخلاق الحميدة.

لهذا يمكننا أن نقول انه إذا اتبعنا مصادر ومراجع التّلقّي المذكورة أعلاه في صياغة وصناعة مادة علميّة تميّز بالمُقوّمات والخصائص الّتي سبق بيّانها أعلاه، نحصل بإذن الله على مادة علميّة مُتميّزة شكلاً ومضموناً، فيها الفائدة والنفع للمُعلّم والمُتعلّم في حياتهما العلميّة والعملية وفي آخرهما إن شاء الله.

وقال الشاعر¹ في وصف الكتاب:

نَعَمْ الْمَوَانِسَ وَالْجَلِيسَ كِتَابٌ	تَخْلُو بِهِ إِنْ مَلَكَ الْأَصْحَابُ
لَا مُفْشِيًّا سِرًّا وَلَا مُتَكَبِّرًا	وَيُفَادُّ مِنْهُ حِكْمَةً وَصَوَابُ

¹ جامع بيان العلم وفضله 203/2

الفصل الخامس
المؤسسة التعلّيمية ودورها
في العملية التعلّيمية

الفصل الخامس

المؤسسة التعليمية ودورها في العملية التعليمية

بين يدي الحديث عن المؤسسة التعليمية، لنا كلمة، وقد كانت الخطوة أن نطلق من التأصيل الشرعي لكل الفصول، منطلقين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعمل السلف، ومن ثم نتّقي بالحديث عن المفاهيم والنظم التربوية النازمة للموضوع كما هو واضح من قبل. ولما كان المسجد في حضارتنا الإسلامية، هو مناط المؤسسة التعليمية، يرسم للعملية التعليمية أهدافها ووسائلها وتحركها وكل ما يتصل بها لتتساءل اليوم مالذي أفقد المسجد هذا الدور أو كاد؟

مع ضعف الدولة العثمانية¹، والتي أطلق عليها 'الرجل المريض' ومع اشتداد الهجمة الصليبية، وعلى التحديد أكثر، مع حملة نابليون 2 بونابرت على مصر والشرق، أحسّ المسلمون ب حاجتهم إلى نبذ الضعف، وإلى التجديد في فكر المسلمين، وفي واقعهم، والانطلاق من جديد. وهنا كان اتجاهان في التغيير:

¹ ليس من شأننا هنا أن نبيّن أسباب الضعف وليس من صلب بحثنا لكن للمزيد : الدولة العثمانية عوامل السهوض وأسباب السقوط (2/ 191، بترقيم الشاملة آليا) لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتت الصف الإسلامي مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية في الوقت التي كانت المؤامرات قد احاطت بها وشرع الصليبيون في الأجهزة على الرجل المريض.

² موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (ص: 16، بترقيم الشاملة آليا) جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، وفيما يخص الأثر أدرك نابليون بونابرت قائد الحملة مدى أهمية الأثر، وقوة تأثير شيوخه في نفوس الشعب المصري، فحاول -نجاح- في التوّد إلى طائفة منهم، وجعل ينتهز الفرصة ثلّو الفرصة للاجتماع بهم، ويتحدث إليهم في موضوعات علمية حول بعض آي القرآن، ويشعرهم باحترامه لنبي الإسلام، فيخرجون من عنده وكلهم لسان ثناء عليه، يشيعونه فيمن يخالطونهم.

الأول يتمثل في حركة التجديد والإصلاح في نجد، والتي قادها محمد بن عبد الوهَّاب¹، واتجهت في الإصلاح إلى محاربة البدع والفساد العقدي، والعودة بالدين إلى أصالته النابعة من كتاب الله وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

والثاني يتمثل في محمد علي باشا²، في مصر . فقد اتَّجه إلى الغرب فأرسل البعثات التعليمية، لدراسة ما عند القوم من نظم تعليمية ومدارس وقوانين، وراح يطبقها في البداية بنوع من المزج مع ما لدى الأزهر. ولكن العَجَلَة كانت أكثر سرعة في مغادرة المدرسة للأزهر، لأسباب منها؛ موقف الدولة العثمانية من حركة محمد بن عبد الوهَّاب، إذ سمحت لـ محمد علي بل شجَّعته على القضاء عليها في أكثر من حملة بقيادات أولاده طوسون وإبراهيم³. مما أتاح له خلط الساحة من مناهض حقيقي لمشروعه التغريبي⁴. وكذلك ضعف الأزهر في نظمه وفي عموم رجاله.

وكذلك انبهار المصريين بالتقدم الذي رآوه لدى الفرنسيين في حملة نابليون، ولاسيما في المجال الثقافي فقد جلب معه مطبعة إلى مصر، بهرت عيونهم وهم يقارنون سرعتها الخيالية، بأقلامهم الكليية والبطيئة، في عمق الزمان، وعلى صفحات الأوراق، ومع تغريب المؤسسة التعليمية في الشكل، وهي في صورة 'المدرسة' كان هذا التغريب قد أخذ طريقه إلى المضامين الفكرية والحضارية، فطبعها ببعض الألوان التغريبية.

¹ محمد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب. ولد ونشأ في العيينة (نجد) ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها. وزار الشام. ودخل البصرة فأؤذي فيها. وعاد إلى نجد، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضياً بعد العيينة. ثم انتقل إلى العيينة، ناهجا منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص ونيل البدع وتحطيم ما علق بالاسلام من أوهام. (1115 - 1206 هـ = 1703 - 1792 م) (انظر الأعلام للزركلي (6/ 257))

² محمد علي (باشا) (1184 - 1265 هـ = 1770 - 1849 م) (انظر الأعلام للزركلي (6/ 298))

³ إبراهيم باشا (1204 - 1264 هـ = 1790 - 1848 م) إبراهيم (باشا) بن محمد علي (باشا): قائد، بعيد المصلح، من ولاة مصر. ولد في (نصرتلي) بالقرب من قولة (بالروملي) وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي، سنة 1220 هـ فتعلم بها. الأعلام للزركلي (1/ 70):

لكن للحق نقول: إن محمد علي باشا، استطاع أن يقضي عسكريا على الدعوة الإصلاحية بنجد، لكنه لم يستطع أن يقضي على الحركة الإصلاحية من حيث الفكرة، فقد كانت أصيلة أصالة الدعوة الإسلامية ذاتها، وتجديدا لما اندرس منها، أو تبدل فكيف يمكن هزيمتها وهي دعوة للعودة إلى الأصول والمنابع؟! ولذا نحن نراها تعود بقوة، فيما يسمى اليوم بـ 'الصحوة الإسلامية'. ولاسيما مع وعي الأمة لذاتها ولدورها الحضاري والدعوي. ومع الشعور بالتحديات المعاصرة والمحن والأحداث التي باتت معها الأمة تحنُّ إلى ماضيها العريق الذي قادت فيه الركب الإنساني إلى أرقى درجاته أخلاقا وفكرا وعقيدة ودعوة.

والسؤال الأقرب إلى بحثنا أما كان للمؤسسة التعليمية 'المسجد' أن تتابع المهمة؟! ونحن نقول وبكل الثقة: نعم، نعم. ولو كان الأمر استمر متلازما، لكان العلم في كل مناحيه مقترنا بالأخلاق، لا يشتط عنها، وساعيا في رفعة البشر وفي تجينهم لوَهَدَات الشرور وهزات الشياطين البشرية وغيرها.

والسؤال الأكثر قرباً هل يمكننا العودة إلى ما نطمح ؟

فنجيب بواقعية شديدة، إنه في الواقع الراهن، وفي المدى المنظور غير ممكن. لكن، لكس لن يبارح هذا المطمحُ آفاقنا ولا ينبغي له أن يبارح. ولا بد من عودة الإسلام إلى السبورة وإلى المقعد وإلى المدرس والمدير وإلى الـ 'نت' لا بد من العودة إلى كل مبانيه الحجرية والفكرية والحضارية روحية ومادية.

والآن .. وليس قبل الآن، أسمح لنفسي أن أتابع البحث في المؤسسة التعليمية وفق ماتناولسته في بقية الفصول من بيان الجودة في كل عناصرها، وبالكشف عن حلّ المفردات التي نلتقي فيها مع تنظيم الغرب للعملية التعليمية ومن بينها المؤسسة. فنحن نلتقط الجودة من حيث جاءت. ولكن الجودة في جانب تنظيمي ليس لها أن تنسينا أنفسنا وهويتنا، لاسيما ونحن الأعلى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

المؤسسة التعليمية والواقع الحالي

لا شك أن المؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة، أم معهداً، أم كلية، أم جامعة تُعدُّ عنصراً أساسياً من عناصر العملية التعليمية، فلا بدَّ للمُعَلِّم والطَّالِب من مكان يمارسان فيه التَّعليم والتَّعلُّم بالرَّغم من توفر التَّعليم الافتراضي¹ مؤخراً، "فالمؤسسة التعليمية" مصطلح يدلُّ على المكان الذي تجري فيه العملية التعليمية بشكلٍ رسميٍّ.

كثُر مؤخراً إنشاء المؤسسات التعليمية في معظم البلاد العربية، فمنها ما أُسس لتعزيز مكانة السُّلطان أو الحاكم، ومنها ما أُشئى لكسب سمعة وشهرة لشخص ما، ومنها ما بُني لتحصيل مكاسب مادية واستثمارات عقارية، ومنها من أُشئى لترويج فكر مُعيَّن أو إظهار بدعة مُعَبَّنة، ومنها القليل القليل الذي أُشئى من أجل توفير فرص كسب العلم النَّافع والمعرفة الصحيحة، وللتحقُّق من وجود هذه الظاهرة يمكن للقارئ أن يقارن بين وضع المؤسسات التعليمية في القرى وتلك التي هي في المدن!

باستثناء دول الخليج العربي الغنية بثرواتها وكثرة استثماراتها في مجال التربية والتعليم، ما زال هناك نقص في عدد المؤسسات التعليمية في معظم البلدان العربية، وإن وجدت فهي تعاني من ضعف وفقر في بنيتها التحتية ونقص في المرافق والخدمات التي تسهل عمليَّة التَّعليم

¹ كلمة "افتراضي" هي ترجمة للمصطلح الأجنبي "Virtual" أما التعليم الافتراضي فهو طريقة لإيصال العلم والتواصل والحصول على المعلومات والتدريب عن طريق شبكة الإنترنت، فهو طريقة للتعليم باستخدام آليات الاتصال الحديثة من حاسب وشبكاته ووسائطه المتعددة من صوت وصوره، ورسومات، وآليات بحث، ومكتبات إلكترونية، وكذلك بوابات الإنترنت سواء كان عن بعد أو في قاعة الدراسة. إذن كما أن التعليم التقليدي يشمل الطالب والمعلم والمادة العلمية والقاعة الدراسية، فإن للتعليم الافتراضي يشمل جميع هذه العناصر بالإضافة إلى القاعة الافتراضية virtual class الذي يناظر القاعة في التعليم التقليدي وأصبح على طالب التعليم الافتراضي حضور محاضراته on line بانتظام وإداء واجباته وتقديم الأبحاث المطروحة منه في مواعيدها وإذا تغيب يعاقب... وهكذا نجد أنه يشبه التعليم التقليدي جداً بالإضافة لمزايا أخرى كثيرة لا تتولد في التعليم التقليدي.

والتعلم لدى المعلم والطالب معاً. فهناك من يضع الإناث والذكور في مدرسة مختلطة مدّعياً انه لا يوجد مدارس كافية أو لأنه أوفر مادياً وأصلح اقتصادياً، وغيرهما من الأعذار الأقبح من ذنب!

تذكرتُ مدرستي الثانوية التي تخرجت منها في صيف عام 1976، فحننت إليها وإلى جدرانها، مما جعلني أستخدم نظام "غوغل" لأطلع عليها وأرى ما حلّ الدهر بما وبأهلها، فإذا بي أرى جدراناً قد أكلتها السنون، والساحة التي كنا نقضي فترة الاستراحة فيها حفرة وأكوام من الأوساخ هنا وهناك، ثم نظرت إلى دورة المياه في الزاوية الشماليّة الشرقيّة، فرأيت خليطاً من المياه والعشب عند مدخلها، فحزنت كثيراً وتساءلت هل يا ترى أن داخلها مثل خارجها!

المشكلة أكبر من ذلك، والقضية أعقد وأمرُّ لأن الأمر لا يتعلق بشكل المؤسسة التعليمية وما تحتويه من مرافق وخدمات فقط، بل بعقليات ومعتقدات وثقافات القائمين عليها، فمن المديرين من هو الأناني المستغل لمركزه لا يهتم إلا بمصلحته وما يطيل بقاءه جالساً على كرسي الإدارة، ومن هو غير مؤهل أكاديمياً أو إدارياً لكنه موالٍ للسلطة ومنتسباً لحزب ما أو فئة ما، وهناك من يُعين مديراً أو مسؤولاً "بالواسطة" والرشوة والمحسوبية فيقع شرّ هذا المدير على أعضاء هيئة التدريس من جهة وعلى الطلاب من جهة أخرى.

يُعَدُّ هذا الوضع الفاسد في كثير من المؤسسات التعليمية في البلدان العربيّة دلالة واضحة على فشل العملية التعليمية، وتراجع في المستوى التعليمي لدى أعضاء التدريس، وقصور في تحقيق التعلم الفعال والعميق لدى المتعلمين، لأن نجاح إدارة المؤسسة التعليمية هو نجاح للعملية التعليمية، وفشلها هو فشل العملية التعليمية.

لذلك أقدم للقارئ شرحاً مبسطاً لمفهوم مصطلح المؤسسة التعليمية، ثم أناقش أهم مقومات جودة خصائص المؤسسة التعليمية كعنصر رابع وجزء لا يتجزأ من

الأجزاء الأربعة المكوِّنة للْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، لعله يكون دليلاً يستعين به مديرو المدارس، ويستأنس به عمداء الكليات، وغيرهم من القائمين على إِدَارَةِ المؤسساتِ التَّعْلِيمِيَّةِ، واللَّهِ الموفق.

مفهوم المؤسسة التَّعْلِيمِيَّةِ

قبل الشُّرُوعِ في إنشاء أية مؤسسة تَّعْلِيمِيَّةٍ لابدَّ من التَّأكُّد أنَّ هناك صدقٌ نيةً لدى المستوِّين والقائمين على إنشائها وإدارتها، وأنَّها لن تُبنى على أسس مظلمة أو خبيث نية، أو إظهار فكر ضالٍّ مضلٍّ أو ترويج بدع وسلوكيات مبتدعة تخالف مبادئ وتعاليم ديننا الحنيف، وأن يكون مفهوم المؤسسة التَّعْلِيمِيَّةِ والغرض من إنشائها واضحين لجميع الأطراف من إداريين ومُعَلِّمين ومتعلِّمين وأولياء الأمور حتى تحلَّ البركة ويتحقَّق الغرض التَّعْلِيمِيّ والهدف الإنساني منها بنجاح.

1. تعريف المؤسسة التَّعْلِيمِيَّةِ

من حيث الشكل يُستخدم مصطلح "المؤسسة التَّعْلِيمِيَّةِ" هنا للدلالة على المكان الذي تُجرى فيه العملِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ بِشَكْلِ رسمي، كما هو الحال في المدرسة كمكان للتعليم الأساسي، والمعهد أو الكُفَّةِ للتعليم المهني والحرفي أو للتعليم الأكاديمي، والجامعة بصفتها مؤسسة تهتمُّ بالتَّعْلِيمِ الجامعيِّ والدراسات العليا، لكنَّ كلَّ من هذه المؤسسات لها خصائصها الشَّكَلِيَّةُ والمكانية بما يتناسب مع حجمها والغرض من رسالتها التَّعْلِيمِيَّةِ. ومن حيث المضمون تُعدُّ المؤسسة التَّعْلِيمِيَّةُ عضواً حياً يعمل بواسطة مكوِّنات داخلية كإداريين ومدرِّسين وطلَّاب، ومكوِّنات خارجيَّة كالقوانين والعادات والتقاليد المعمول بها، فلنجاح العملِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ في أية مؤسسة تَّعْلِيمِيَّةٍ لا بدُّ أن يعتدَّ بدور المكوِّنات الدَّاخِلِيَّةِ وعلاقتها ببعضها بعضاً والمكوِّنات الخارجِيَّةِ وأثرها على سير العملِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ.

فالمدرسة بصفتها مؤسسة تعليمية لها مكانتها القانونية، وفيها مجلس إداري يدير شؤونها، ومُعَلِّمون وطلاب يمارسون التعليم والتعلم، فهي تخضع لنظام داخلي محدد، له عاداته وتقاليده وأحكامه وطرق اتصال خاصة به وتكنولوجيا معينة يستخدمها الإداريون والمُعَلِّمون في عملهم، أمّا على مستوى خارج المدرسة فهي على اتصال دائم بالمجتمع، كوزارة التربية والتعليم، وأولياء الأمور، وثقافة وحضارة المجتمع.

2. مهمة المؤسسة التعليمية

مثل إنشاء أية مؤسسة تعليمية سواء كانت مدرسة، أم معهداً، أم كلية، أم جامعة كمثل إنشاء بيت من بيوت الله أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه، وذلك لعظمة المكان ورفعة هدف وغرض الرسالة الإسلامية، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَىٰ شَفَا حَرْفٍ مَّا يَمْسِرُ بِهَا يَمْرُجَهُمْ وَكَانَ يُقَوِّمُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109]. فتعريف المؤسسات التعليمية كتعمير المساجد لأنها "مهد للصبيان، ومعهد للشبان، ومرصد للكهلان، ومسند للشيوخ، ومعبد للمعمرين، فكانها منازل الأقوام ومعارج الأمم وينابيع الحكم، يعرف منها كل ماش وراكب، ويهتدي بها كل مرتحل وواصب، ويزين بعلومها كل ساكن وواقف، فعليها أساس التقوى وبناء التزكية"¹.

فمهمة المؤسسة التعليمية بشكل عام تزويد المجتمع بالعلم النافع والمعرفة الصحيحة، ومهمة المجتمع تزويد المؤسسة التعليمية بالطلّاب والمدرّسين والقيم العامّة، فعلاقة المدرسة -على سبيل المثال- مع المجتمع علاقة متداخلة ومتكاملة، ولاستمرار هذه العلاقة بنجاح وفعالية، لا بدّ من تحديد طبيعة عمل كلّ إداري ومسؤول في المؤسسة التعليمية، فبدون تحديد هذه المسؤوليات والأعمال تعمّ الفوضى وعدم المبالاة، وبالتالي

¹ تذكره السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ابن جماعة الكفائي، ص 173

تؤدي إلى فشل العملية التعليمية، لكن عندما يعلم المُعلِّم دوره والطَّالِب دوره وإدارة المدرسة دورها ويعملون بجدية وإخلاص من أجل تنفيذ أدوارهم، عند ذلك نستطيع أن نقول بأن احتمالية نجاح العملية التعليمية في هذه الوحدة الاجتماعية كبيرة وفعالة.

لا ينبغي أن تكون المؤسسة التعليمية مكاناً للهِث وراء الشهرة الذاتية، ولتحقيق المطامع الشخصية والمصالح المادية، ونشر الفكر الفاسد الضال المضل، وإنما ينبغي أن تكون صرحاً شاعراً لنشر العلم النافع والمعرفة الصحيحة بين الناس، ومنيراً للدعوة لحفظ الدين ومكارم الأخلاق، ومنصة عالية لترويج سنن السابقين الأولين من أصحاب الرسول ﷺ والاتباع لهم من السلف الصالح، وذلك لإعداد جيل من المتعلمين عالم في أمور دينه ودينه حتى يشمل الخير والمنفعة كافة أفراد المجتمع.

إن ما يميز المؤسسات التعليمية بعضها عن بعض، ولا سيما مدارس مراحل التعليم الأساسي، هو قدرتها على تعليم طلابها ليكونوا مُعلمي أنفسهم، ولديهم الرغبة والقدرة على أداء عملهم النافع البناء بفعالية، ولا تعلمهم ليكونوا قذرة في أخلاقهم وسلوكهم وانضباطهم فقط، إذ لا بد أن يعلموهم ليكونوا رجالاً يخافون الله بالغيب، وليسوا بحاجة لمراقبة يومية من قبل أحد. إن هذا الأسلوب التحرري في التربية والتعليم يؤدي بدوره إلى تحرير المتعلم ليقوم بتعليم نفسه بنفسه.

مُقَوِّمَاتُ جَوْدَةِ خِصَائِصِ الْمَوْسَسَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ

منذ إنشاء أقدم المدارس في البلدان العربية أمثال المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك الطوسي في بغداد الذي استشهد سنة 485 هـ¹، والمدرسة الحنبلية التي بناها الفقيه

¹ البداية والنهاية (357/11) : سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة .. اتباع الوزير أبو نصر سابور بن أردشير دارا بالكرك ووجد صمرتها، ونقل إليها كتباً كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسماها (دار العلم). وأظن أن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة.. نقلنا هذا النص التاريخي من البداية لمن رغب في معرفة السبق التاريخي ولو لم يكن لها ذلك الأثر المستمر في التاريخ كما هو شأن غيرها.

شرف الإسلام عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي في دمشق المتوفي في 536هـ، والمدرسة البهائية التي أنشأها بماء الدين في القاهرة سنة 654 هـ¹، والقائمين على إنشاء المؤسسات التعليمية يهتمون بالمظاهر الخارجية والداخلية للمدرسة أو الكلية أو الجامعة حتى يجذبوا طلبة العلم إليها ويرغبوا أولياء الأمور بها، وهذه المؤسسات التعليمية خصائص منها:

خصائص شكلية خارجية

لا شك أن لمظهر الأشياء دوره في جذب أو تنفير النفس البشرية، فالإنسان بفطرته يميل إلى الشكل الحسن الأنيق وينفر من الشكل البشع الأغبر، ويظهر هذا جلياً بهتمامه بالمنشآت العمرانية والأبنية السكنية، ففي عصرنا هذا تتسابق الأمم في إبداع التصاميم العمرانية والأشكال الهندسية لتجعل من الوحدة العمرانية لوحة فنية تنبض فيها الحياة بشئ عناصرها.

رغم اتساع رقعة هذا الانفتاح العمراني في العالم بشكل عام وبالعالم العربي بشكل خاص، نجد انه مازال ينحصر في القطاعات الصناعية والتجارية والسكنية لما لهذه القطاعات من ردود استثمارية سريعة، وبهذا بقيت أبنية قطاع التربية والتعليم تعاني من ضعف شديد في جودة خصائصها العمرانية الخارجية والداخلية، ونقص في العدد والعدة في معظم البلدان العربية - باستثناء دول مجلس التعاون الخليجي - وهذا بدوره يؤثر سلباً على نجاح العملية التعليمية.

لذا ينبغي على المسؤولين وصناع القرار في الدولة والقائمين على إنشاء أية مؤسسة تعليمية، خاصة تلك التي تخص التعليم الأساسي في مراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، أن يعتدوا بالأمور التالية:

أ. الإكثار من بناء المدارس الحكومية والمدارس الخاصة المعتمدة بما يتناسب مع عدد سكان البلد وعدد الطلاب المفروض التحاقهم بالتعليم، بحيث يمكن تطبيق

¹ تذكره السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، إين جماعة الكلاني، ص 174

المعادلة القائلة انه "كلما كثرت المدارس قل عدد الطُّلاب فيها وأخذ الطالب حظاً أكبر من الاهتمام والعناية وتحقق التَّعليم والتَّعلُّم بعمق وفعالية".

ب. اختيار المواقع المناسبة لبناء المؤسسة التَّعليميَّة، بحيث يُراعى فيها نسبة التَّجمع السكاني، وتوفُّر أساسيات البنية التَّحتيَّة، وصلاحيَّة البيئة الطَّبيعيَّة الَّتي تحيط بها.

ج. إعداد تصاميم معماريَّة خاصة بأبنية المؤسسات التَّعليميَّة، بحيث تحتوي على كافَّة المرافق الَّتي تساعد في نجاح العمليَّة التَّعليميَّة، نذكر أهمَّها القاعات الدِّراسيَّة الواسعة والمكيَّفة، ودورات مياه كافية ومتناسبة مع عدد الطُّلاب فيها، وقاعات استراحة واسعة ومجهزة بكل ما يحتاجه الطُّلاب خلال قضاء فترة الاستراحة، وتوفير حديقة كبيرة حول المبنى الدِّراسيَّ بحيث يلجأ إليه الطُّلاب في أوقات الاستراحة، فهذا يُعزِّز في نفوسهم حبَّهم واحترامهم للبيئة ويُشجِّعهم للمساهمة في الحفاظ على البيئة الطَّبيعيَّة الجميلة، وغيرها من الخدمات.

د. إعطاء المبنى الخارجي خصائص معمارية من تصاميم وأشكال وألوان تضفي على المؤسسة التَّعليميَّة شخصيَّتها المميَّزة مما يجعلها مهنيَّة في شكلها، وجاذبة في طلعتها، وقرية على قلب الناظر عليها، حتَّى تغدو محبَّة للطالب والمُعَلِّم والإداريِّين.

خصائص شكلية داخلية

هناك بعضُ من القائمين على بناء المؤسسات التَّعليميَّة يعطي اهتماماً للمظهر الخارجي للمؤسسة التَّعليميَّة أكثر مما يعطيه للتركيبة الداخليَّة للمبنى، بل أحيانا يحصل إهمالٌ وتجاوزٌ عن بعض العناصر الأساسيّة في تشغيل وتسيير العمليَّة التَّعليميَّة في داخل المبنى التَّعليميِّ، فعلى سبيل المثال، نجد في كثير من المدارس في البلدان العربيَّة الَّتي تمتاز بفصلي شتاء وخريف باردٍين انه لم يُركَّب فيها نظامٌ تدفئة مركزيَّة أو غيرها.

إن الخصائص الشككية الداخلية للمؤسسة التعليمية لا تقل أهمية عن خصائصها الشككية الخارجية، فيقدر ما يتوفر فيها من مرافق وخدمات ووسائل ترفيهية، يتحقق النجاح لسير العملية التعليمية، لذلك ينبغي على القائمين على إدارة المؤسسة التعليمية، العمل على تأمين الأمور التالية التي تؤمن للطلاب الظروف المناسبة التي تساعد على التحصيل الدراسي الجيد وتساعد في نجاح عملية التعليم والتعلم بشكل غير مباشر:

أ- توفير مكتبة مزودة بالكتب والمراجع الأكاديمية والفنية، وذلك لمساعدة الطالب للحصول على المعلومات التي تفيده في مجال دراسته بسهولة ويسر، كما ينبغي أن تحتوي على كتب وقواميس وقصص باللغة الإنجليزية تساعد الطالب في تحسين مستواهم اللغوي.

ب- توفير مركز للحاسوب الآلي والإنترنت يكون مزوداً بأجهزة كمبيوتر مربوطة بشبكة الإنترنت، ومزودة بطابعات حديثة، وذلك لمساعدة الطالب للحصول على المعلومات التي تفيده في مجال دراسته بسهولة ويسر، وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

- 1) التقيد بالتوقيت والهدوء والنظام.
- 2) الاستفادة القصوى من المركز.
- 3) يمنع منعاً باتاً الدخول إلى المواقع المنوعة.
- 4) يمنع منعاً باتاً الدخول إلى برامج الـ Chat 'الدردشة' بكل أنواعها، ومواقع التواصل الاجتماعي 'كالفيس بوك، والتويتر'.
- 5) استخدام الطابعات الاستخدام الجيد وطبع ما هو مهم فقط.
- 6) في حالة إساءة استخدام الإنترنت يعرض المستخدم للمسائلة.
- 7) عند الرغبة في استخدام هذا المرفق يجب التسجيل لدى الإدارة.

ت- توفير صالة رياضية وملاعب رياضية ضرورية لتنمية لياقة الطلاب وشغل فراغهم بالنشاطات الرياضية المفيدة، وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

- 1) المحافظة على المعدات الرياضية.
- 2) اتباع قواعد السلامة للحد من الإصابات.
- 3) اللباس الرياضي المناسب مع الحذاء الرياضي عند استخدام المرافق الرياضية.
- 4) مراعاة التواقيت.
- 5) عند استخدام أية معدة إرجاعها إلى مكانها بعد الاستخدام.
- 6) مراعاة النظام والهدوء في المرافق الرياضية.
- 7) يمنع منعاً باتاً إدخال الأطعمة والمشروبات أو التدخين¹ داخل الصالات الرياضية.

ث- توفير كافتيريا أو قاعة طعام حيث تُستخدم لتناول طعام الغداء أو أثناء فترة استراحة الطلاب وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

- 1) يمنع دخول قاعة الطعام في غير الأوقات المخصصة.
- 2) التحلي بآداب الطعام.
- 3) عدم الإسراف والتبذير.
- 4) وضع صينية الطعام في مكانها المخصص بعد الانتهاء من الأكل.
- 5) الهدوء والنظام.
- 6) المحافظة على النظافة العامة للمكان.

¹ بل يمنع التدخين في كل نواحي المؤسسة التعليمية . وجاء تأكيدنا هنا، لأنه أكثر مظنة للانتفاة من القوانين والنظم .

ج- توفير مسجد أو مكان تقام به الصلوات الخمس للعاملين في المؤسسة التعليمية أو المتعلمين كي يؤدي فرائضه الدينية خلال وجوده فيها.

ح- توفير عيادة طبية تقوم بعلاج الحالات الطارئة وإصابات الرياضيين، وإعطاء الأدوية المناسبة لكل حالة، وإرسال الحالات التي تستدعي إشرافاً وعلاجاً خاصاً إلى أقرب مستشفى، وذلك عن طريق سيارات المؤسسة أو استدعاء الإسعاف عند الضرورة.

خ- توفير إجراءات سلامة ووقاية وتوضيح اتباع تعليمات مكافحة الحريق الموجودة في المؤسسة التعليمية، والمحافظة على أدوات مكافحة الحريق وعدم العبث بها، وفي حالة الحريق يتوجه جميع الموجودين في المؤسسة إلى ساحة التجمع خارج المؤسسة.

فما أجمل من يسعى وينفق الأموال في إنشاء المؤسسات التعليمية، ويعتني بتعمير المدارس والمعاهد التعليمية، والمكتبات العلمية، ويعمل على توفير المنح الدراسية للطلبة الجادين الراغبين، والوظائف للمعلمين المؤهلين الأكفاء، وللعلماء المخلصين العاملين في المدن والقرى لنشر العلوم الشرعية، وإحياء المعارف القديمة، وتدوين العلوم العصرية، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

مقومات جودة إدارة المؤسسة التعليمية

إن المظاهر الشكلية الخارجية والداخلية في المؤسسة التعليمية ليست كافية لتحقيق نجاح حقيقي للعملية التعليمية مهما كانت مميزة في شكلها، ومتعددة في مرافقها وخدماتها، لأن الدور الفعلي للمؤسسة التعليمية يتمثل بجودة عمل وصفات القائمين على إدارتها، وكيفية تعاملهم مع المتعلمين وأعضاء هيئة التدريس وأولياء الأمور ومدى تفاعلهم مع قضايا المجتمع ككل.

تعريف إدارة المؤسسة التعليمية

إدارة المؤسسة التعليمية هي المنظومة الإدارية التي تنظم وتدير وتشرف وتراقب سير العملية التعليمية بكافة مكوناتها من أعضاء هيئة تدريس، وإداريين، وطلاب، ومناهج تعليمية، تُستخدَم في المدارس أو المعاهد أو الكليات أو الجامعات. فالإدارة في المدرسة، على سبيل المثال، هي البيئة المُنظمة لسير عمل المدير، والموجهة لتعليم أعضاء هيئة التدريس، والمشرفة على تعلُّم وتعليم الطلاب، والمتابعة لرغبات واحتياجات أولياء الأمور، وذلك بأسلوب مهنيٍّ مُميّز فيه المنفعة لجميع مكونات العملية التعليمية من جهة، وللمجتمع من جهة أخرى.

صفات مدير المؤسسة التعليمية الناجح

منذ عقود وتتحكم "الحسوبية والواسطة" حيناً والانتماءات السياسية أو الحزبية حيناً آخر في اختيار وتعيين المسؤولين أو القائمين على إدارة المؤسسات التعليمية في معظم البلاد العربية، مما جعلها متأخرة في إنجازاتها الأكاديمية والعلمية على المستوى العربي من جهة، والمستوى الدولي من جهة أخرى، فقائمة أفضل 200 مؤسسة تعليمية في العالم التي نشرتها مجلة 'التايمز للتعليم العالي' بتاريخ 8 أكتوبر 2009 لا تحتوي على اسم جامعة عربية واحدة للأسف!

هذا الوضع الحزن له أسبابه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية والثقافية والأخلاقية والإدارية، التي تقف حاجزاً متبعاً أمام أي تقدم أو تطوير أو تحديث يمكن أن يرفع من مستوى الأداء العلمي والنتاج الفكري لأي بلد يسود فيها الفساد بشقي أشكاله وأنواعه.

لو نظرنا ملياً في وضع القائمين على إدارة المدارس في مراحلها التأسيسية الثلاث، على سبيل المثال، لوجدنا أن معظمهم يعانون من نقص في أخلاقيات وأدبيات التعامل مع

الموقف التعليمي، وبخاصة لأخذ دورات تدريبية مهنية في كيفية إدارة الشؤون الإستراتيجية والتعليمية للمدرسة، وفي كيفية التعامل مع المجتمع المحيط بهم من مدرسين وإداريين وأولياء أمور وغيرها من الأمور التي تتعلق بالمجتمع ككل.

حتى يتحقق التقدم والتطور والنجاح في إدارة المؤسسة التعليمية، ينبغي أن تتوفر في مدير المدرسة صفات شخصية وخصائص مهنية معينة تساعد في أداء عمله بعمق وفعالية من جهة، وبحب ومتعة وإخلاص من جهة أخرى، ومنها:

أ. صفات شخصية أخلاقية

إن الصفات الشخصية لمدير أية مؤسسة تعليمية هي نفسها الصفات الشخصية التي ينبغي أن يتحلى بها المعلم العاقل الناجح، والتي سبق ذكرها بشيء من التفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وللاستفادة والتركيز على أهمية هذه الصفات أذكر أهمها، مضيفاً لها بعض الخصال التي تميزه عن المعلم والتي لها علاقة مباشرة في عملية إدارة المؤسسة التعليمية:

- أ. توفر النية الصادقة لديه والإخلاص في عمله وتعامله مع كافة العاملين في المدرسة من أعضاء هيئة تدريس، وإداريين، وطلاب وأولياء أمور.
- ب. التحلي بمحاسن ومكارم الأخلاق من حمد وشكر لله أولاً، ثم لكل من يقدم من العاملين في المدرسة من عمل أو خدمة له أو لغيره، وصبر على أداء عمله بنجاح، وتواضع لمن يأتي إليه في طلب أو مشكلة أو توجيه نقد له.
- ج. التميز بالصدق في قوله وعمله، والعدل في تطبيق قوانين إدارة المدرسة الإدارية والأكاديمية، والعمل على حل القضايا والمشاكل التي قد تنجم بين المدرسين والطلاب من جهة، والإدارة وأولياء الأمور من جهة أخرى بعدل وإنصاف.

- د. التميز بالحلم والرفقة بالمُعلِّمين والإداريين والطلّاب، وتفهُّم أوضاعهم الاجتماعيّة ومشاكلهم التعليميّة والأكاديميّة، بحيث تقع ثمرة هذا الحلم والرفقة على المدير أولاً وعلى بقية الأطراف ثانياً.
- هـ. التميز بالزهد بما في أيدي المدرسين والإداريين، والعِفّة عن استغلال الطلّاب وأولياء الأمور، والترفّع عن البغض والحسد، والتحليّ بحبّ الخير لجميع العناصر المشاركة في العملية التعليميّة.

ب. صفات أكاديميّة ومهنيّة

هناك اختلاف بخصوص المؤهلات الأكاديميّة أو الفنيّة التي ينبغي على مدير المؤسسة التعليميّة أن يكون حاصلًا عليها، فمنهم من يقول انه ينبغي أن يكون حاصلًا على درجة جامعيّة، ومنهم من يقول انه يكفي أن يكون لديه مؤهل في الإدارة، ومنهم من يقول انه يكفي أن يكون لديه خبرة عمليّة في إدارة المدارس، لذلك أقترح قائمة من المتطلبات الأكاديميّة وغير الأكاديميّة التي ينبغي مراعاتها حين اختيار أو تعيين مدير مدرسة، على سبيل المثال.

إضافة للحصول الشخصيّة الأخلاقيّة المذكورة أعلاه، والتي ينبغي أن يتحلّى بها مدير المدرسة، عليه أن أن يليّ كل المتطلبات التالية أو معظمها حتى يكون مؤهلاً لإدارة مدرسة ما:

- أن يكون حاصلًا على درجة الليسانس أو البكالوريوس من جامعة معترف عليها، والأفضل من ذلك أن يكون حاصلًا على درجة الماجستير.
- أن يكون حاصلًا على مؤهل أكاديميّ في التدريس والتعلّم معترف عليه، أو قد أخذ دورة تأهليّة في ذلك.
- أن يكون حاصلًا على مؤهل أكاديميّ في الإدارة التربويّة معترف عليه أو قد أخذ دورة تأهليّة في ذلك.

- أن يكون لديه خبرة عملية في التدريس لا تقل عن 3 سنوات، والأفضل 5 سنوات أو أكثر.
- أن يكون لديه مؤهل لغوي أجنبي كاللغة الإنجليزية، لا يقل مستواه عن 5.5 في اختبار الـ IELTS الأكاديمي والذي يتألف من 9 مستويات، أو أي مؤهل آخر يعادله كاختباري كامبردج FCE, CAE أو الاختبار اللغوي الأمريكي TOEFL.
- أن يكون لديه القدرة على استخدام مهارات الاتصال بشكل مهني وبأسلوب متميز.
- أن يكون لديه القدرة على استخدام برامج الكمبيوتر بشكل فعال وبأسلوب متميز.

دور المدير الناجح

تختلف وتتعدد الأدوار التي يلعبها مدير المؤسسة التعليمية وفقاً للإستراتيجيات التربوية والتعليمية والإدارية التي تحددها المؤسسة في خطتها ورسالتها التربوية والتعليمية، فعلى سبيل المثال، يظهر الدور الأساسي لمدير المؤسسة التعليمية، من خلال تقديم قيادة حكيمة وإدارة مهنية للمدرسة، بحيث يضع الأسس التي تُبنى عليها معايير ومقاييس عمل وأداء المدرسة في كافة المجالات المتعلقة في سير وإدارة المدرسة لتنهض فيها إلى أعلى مستويات الأداء التعليمي والتربوي.

لتحقيق النجاح الإداري المطلوب في المدرسة، ينبغي على المدير أن يدير عملية التعليم والتعلم بحيث يثير كافة الإمكانيات والقدرات عند المعلمين والمُتعلمين على حد سواء لتحقيق جودة في التربية والتعليم، كما عليه أن ينشئ ثقافة تروج الأداء المتميز، والجودة العالية، والتوقعات السامية بين أعضاء هيئة التدريس الطلاب.

يُعَدُّ المدير في المدرسة كبركان سفينة يقود سفينته وفقاً لخطة يضعها لها، فهو يحدد الوجهة التي يريد أن يسير بالمدرسة إليها، ويضع لها رؤية واضحة تتضمن أهدافاً بعيدة

وقريبة، ويرسم إستراتيجيات وآليات تمكّن المدرسة والعاملين فيها من إداريين ومُعلمين وطلاب من تحقيق العملية التَّعليمِيَّةِ بفعاليَّة ونجاح.

بالتعاون مع العاملين في المدرسة، ينبغي على المدير أن يقوم أداء المدرسة بشكلٍ مستمرٍّ ليحدّد الأولويات من أجل التحسين ورفع مستوى الأداء في المدرسة، كما ينبغي عليه أن يقسوم بتطوير سياسات وممارسات وخطط المدرسة، ويضع مرافق ومدخرات ومصادر تَعْلِيمِيَّةٍ في المدرسة في خدمة العاملين في المدرسة وفي خدمة العملية التَّعليمِيَّةِ بكافّة عناصرها.

كما ينبغي على مدير المدرسة العاقل الناجح أن لا يهمل علاقة مدرسته بالعالم الخارجي، فلا بد أن يهتمّ بقضايا المجتمع المحيط به، ويحرص على مواكبة تطوراتها فيما يتعلق بقضايا الثرية والتَّعليم، وعليه أيضاً أن يشارك أولياء الأمور ويطلعهم ليس فقط على وضع أبنائهم التَّعليمِيَّ، وإنما يشاركهم في السماع إلى آرائهم من خلال إنشاء لجان تتضمن أعضاء من أولياء الأمور لمناقشة قضايا المدرسة التعلّيمية وغيرها من القضايا.

مهام مدير المؤسسة التَّعليمِيَّةِ الناجح

تختلف مهام مدير المؤسسة التَّعليمِيَّةِ من مؤسسة إلى أخرى، فمهام مدير مدرسة ابتدائية غير مهام مدير معهد، ومهام عميد كلية ما غير مهام رئيس جامعة ما، وذلك بسبب اختلاف طبيعة عمل، ورسالة، وحجم المؤسسة التَّعليمِيَّةِ، فلكل مؤسسة لها ثقافتها الإداريّة، لهذا ينبغي على مدير كل مؤسسة أن يكون قادراً على تطبيق الثقافة الإداريّة للمؤسسة التي يعمل فيها إذا أراد النجاح له وللمؤسسة.

أ. مهام قيادية

يتميز القائد الناجح عن غيره من الناس بخصائص مهنية، ومعرفة واسعة وعميقة، ومهارات قيادية متنوعة، تجعله يؤدي عمله بفعالية، كما تجعل تعامله مع الموقف الإداري عقلانياً ومهنياً، لذلك ينبغي على مدير المدرسة، على سبيل المثال، أن :

- يملك رؤية واضحة لعناصر العملية التعليمية ولاسيما فيما يتعلق بعملية التعليم والتعلم للنهوض بها إلى أعلى المستويات.
- يؤمن البيئة المناسبة لتحقيق أهداف وتطلعات المدرسة، من خلال صياغة خطط تطوير لأداء العاملين فيها، وآليات لتقويم هذا الأداء، والاستخدام الفعال والمفيد للموارد التكنولوجية كأدوات للتعليم عند الطلاب.
- يملك المعرفة بمعظم قضايا التعليم على المستوى المحلي والوطني، وبعضاً من القضايا الدولية في التربية والتعليم، حتى يتمكن من القيام بنشاطات وفعاليات مهنية تطويرية للمدرسين لتعزيز لديهم الوعي التربوي ويطور فيهم معرفتهم بالقضايا الجارية الخاصة بعملية التعليم والتعلم.
- يتفهم دور وسائل التكنولوجيا الحديثة في تعزيز العملية التعليمية، ويعمل على استخدامها في عملية التعليم والتعلم.
- يملك إستراتيجيات وآليات للاتصال والتواصل داخل وخارج المدرسة، وذلك من أجل عقد اجتماعات مع المدرسين، وأولياء الأمور، وممثلين عن المجتمع المحيط بالمدرسة، وتحضير جدول أعمال وخطط تنفيذ وتوصيات.
- يملك القدرة على التغيير الإيجابي والإبداع والابتكار حتى ينهض بالمدرسة إلى أعلى مستويات التقدم التعليمي والتعليمي والإداري.
- يملك المهارات المهنية التي تساعده لتطبيق الأفكار النظرية ووضع الإستراتيجيات قيد التنفيذ على أسس علمية ومنطقية.

- يملك مهارات الإتصال الفعّالة التي تثير حب المعرفة والعمل لدى المدرسين والعاملين في المدرسة، من خلال تشجيعهم، وقيادتهم بحكمة، والاعتراف بأدائهم المميز وإنجازاتهم العلميّة.
- يملك مهارة محاسبة النفس، وإعادة النّظر في جَوْدَةِ أقواله وأفعاله، فهو بحاجة للعمل باستمرار على تطوير ذاته أخلاقياً وعلمياً وإدارياً، حتى يكون مديراً عاقلاً ناجحاً.

ب. مهام منظّمية

- يتعين للمدير أية مؤسسة تعليميّة أن يهتم بمؤسسته كمنظمة لها هيكلها التنظيمي، وبنيتها الإداريّة، ومكوّناتها البشريّة حتى يستطيع أن يقوم بعمله بنجاح، ويحقق أهدافها بفعّالية، وينهض بها إلى أعلى مستويات الأداء الإداري، لذلك ينبغي على مدير المدرسة، على سبيل المثال، أن :
 - يسعى جاهداً وجاداً من أجل جعل المدرسة بيئة جذابة فيها الأمن والأمان والصّحة والعافية لكل العاملين فيها من إداريّين ومدرسين وطلاب، حتى يتيح لهم فرص العمل والدّراسة بشكلٍ مريح وممتع ومثمر.
 - يتبنى مبدأ "الشورى الإداريّة" بقدر ما يستطيع لأن مشاركة الإداريّين وأعضاء هيئة التدريس وأولياء الأمور في إدارة المدرسة وصناعة القرار يجعلهم يشعرون بالمسؤولية اتّجاه عملهم، ويثير لديهم حبّ المشاركة والمساهمة في نشاطات وفعاليات المدرسة.
 - يمارس ثقافة المشاركة العمليّة في فعّاليات ونشاطات المدرسة حتى يكون قدوة حسنة لكافة العاملين في المدرسة ولاسيّما الطّلاب، فلا حرج على سبيل المثال أن يقوم بأعمال يدويّة بسيطة أمام الطّلاب، أو أن يرحّب ويودّع أولياء الأمور عند

قدومهم للمدرسة، وغيرها من الأعمال البسيطة التي تدل على زهده وتواضعه، فبالإضافة رغبة ومحبة، وبالتكرار سقالة وبغضة، فقد قال الشاعر¹:

وكفى بملتئم التواضع رفعةً وكفى بملتئم العلو سقلاً

■ يملك المعرفة الكاملة بمبادئ ونماذج التقويم الذاتي للمدرسة، والإستراتيجيات والآليات التي يمكن تطبيقها لتحسين المدرسة وتطوير قدرات الإداريين والمدرسين على حد سواء.

■ يقوم بصياغة سياسات وخطط إدارية ومالية وأكاديمية من خلال تفعيل مبدأ الشورى على كافة المستويات بحيث تكون واضحة للجميع ويساهم في صياغتها الجميع.

■ يملك الخبرات والمهارات التي تساعد في تدبير الموارد المالية والبشرية والخدمية في المدرسة، بحيث يقوم بإدارتها بشكل يومي وبأسلوب مهني فعال.

■ يملك القدرة على إدارة وتنظيم البيئة المدرسية بشكل فعال، ووضع الأولويات قيد التنفيذ، ومراقبة جودة واستخدام موارد المدرسة.

■ يملك القدر على التفكير والتحليل الناقد، واستخدام مهارات الاتصال بأسلوب مميز، والعمل على إنشاء وترويج ثقافة حب التعليم بين المعلمين والتعلم بين المتعلمين.

ث. مهام أكاديمية

كغيره من المديرين في الكليات أو الجامعات، يقوم مدير المدرسة بمهام أكاديمية مسندتها تحقيق الأهداف التعليمية والتعليمية في المدرسة، ويعمل في الوقت نفسه على رفع مستوى جودة التعليم والتعلم في المدرسة، فمن المهام الأكاديمية التي ينبغي عليه أن يقوم بها ما يلي:

¹ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص52

- يسعى جاهداً وجاداً من أجل تأمين بيئة أكاديمية فعّالة في المدرسة، بحيث يحصل فيها كافة الطُّلاب على التَّعليم والتَّعلُّم الفعَّالين.
- يستخدم ويروج أساليب التَّقوُّم المعتمدة ويعمل على رفع مستويات الطُّلاب كل حسب حاجته الأكاديمية.
- يشجع استخدام أساليب وطرائق جديدة للتَّعليم والتَّعلُّم، وينشئ ثقافة التَّربُّغ وحُبُّ التَّعلُّم لدى الطُّلاب.
- ينظِّم ويحسن استخدام الموارد التَّعليمية في المدرسة، ولاسيَّما تلك المتعلقة بوسائل التَّكنولوجيا من أجهزة الكمبيوتر، والإنترنت، وغيرها من الأساليب.
- يضع إستراتيجيات لتطوير الأداء التَّعليمي لدى المدرسين، ويُرَكِّب المدرسين ذوي الأداء المُتميز في تعليمهم ومعاملتهم مع الطُّلاب.
- ينظم برنامج الدُّراسة، ويشرف على تطبيق المنهاج الدُّراسي في المدرسة، ويراقب ويقوِّم فعَّالية أساليب التَّدريس في الفصول، وإلى أيِّ مدى يستفيد منها المُتعلِّمين.
- يقوم بالإشراف على الامتحانات وتحليل النتائج وتفسيرها والاستفادة منها في رفع مستويات التَّعليم والتَّعلُّم.
- يشرف على تطبيق إستراتيجيات حضور وغياب الطُّلاب، ويُعزِّز السلوكيات الحميدة بين الطُّلاب.
- ينظم ويشرف على كافة الفعَّاليات الثقافيَّة والنشاطات التَّربُّهية داخل وخارج المدرسة.

ج. مهام مجتمعية

إضافة للمهام القيادية والتنظيمية والأكاديمية التي يقوم بها مديرو المؤسسات التعليمية، يقومون بمهام تتعلق بالموارد البشرية والعلاقات العامة داخل وخارج المؤسسة ومدير المدرسة كغيره من المديرين، ينبغي عليه أن يقوم بما يلي:

- إنشاء ثقافة العمل الجامعي في المدرسة من خلال تقسيم العاملين إلى فرق عمل يقوم كل فريق بعمل مهمّة ما، ويشجع أعضاء هيئة التدريس لنشر هذه الثقافة بين الطُّلاب.
- إنشاء جوّ عمل تسود فيه علاقات تقدير واحترام بين فرق العمل والتي بدورها تؤدي إلى نتائج إيجابية على كافّة المستويات في المدرسة.
- حل كافّة الخلافات والصراعات التي قد تحصل بين العاملين في المدرسة بعدل وبفعالية، وتجنّب المحاباة لأيّ طرف، والعمل على ترويج ثقافة الرأي والرأي الآخر.
- إنشاء ثقافة التعلّم التعاوني داخل المدرسة والعمل على إنشاء علاقات بهذا الخصوص مع مدارس أخرى، فتبادل الآراء والخبرات بين مديري وأعضاء هيئات التدريس في المدارس يُعزّز من جودّة العملية التعليمية.
- إنشاء شبكة اتّصال فعّال مع أولياء أمور الطُّلاب، والمسؤولين في مديرية أو وزارة التربية والتعليم، وكافّة الوكالات أو الشركات التي لها علاقة في سير العملية التعليمية في المدرسة.
- العمل على مشاركة وكالات، ومنظمات، ووزارات في فعااليات ونشاطات المدرسة من أجل تأمين البيئة التعليمية المُميّزة للطلاب وطمأنة أولياء أمورهم على مجريات العملية التعليمية في المدرسة.

- العمل على الاستفادة من موارد المجتمع في تعزيز العملية التعليمية من خلال استخدام المستاحف، والمكتبات، ونوادي الرياضة، وغيرها التي تساعد في رفع مستوى العلم والمعرفة لدى الطلاب.
- الاستماع لآراء ووجهات نظر أولياء الأمور، ومثلي المجتمع، والاعتداد بها، والاستفادة من تقديمهم بشكل إيجابي.
- استخدام إستراتيجيات وتبني آليات تشجيع أولياء الأمور للمشاركة في العملية التعليمية، ولدعم عملية التعلم عند الأبناء داخل وخارج المدرسة.

لذا يمكننا القول أن مدير المؤسسة التعليمية بشكل عام ومدير المدرسة بشكل خاص الذي يدير مؤسسته ضمن الإطار التالي، يكون قد أدى مهمته التعليمية بفعالية ونجاح:

أ- ذاتي: أي يمتلك خصائص شخصية: مخافة الله وحسن خلق، ومؤهلاً علمياً، ومعرفة إدارية، وخبرة عملية، ومهارات اتصال مميزة، والقدرة على التفكير الانعكاسي، أي مبدأ إعادة النظر بما يقول ويفعل.

ب- منظمي: أي يمتلك القدرة على إدارة المدرسة من حيث؛ توزيع مهام العمل بين العاملين وأعضاء هيئة التدريس، وتبني ثقافة التشجيع وإعطاء الحوافز، وتبني وسائل اتصال تكنولوجية حديثة، والتصرف بمالية المدرسة بحكمة وتعقل، واستخدام مرافق المدرسة لمصلحة العاملين فيها وللطلاب، وتحمل مسؤولية كاملة عن إدارة المدرسة.

ت- أكاديمي: أي يقوم بالإشراف على: إعطاء المناهج الدراسية بشكل فعال، والأداء التعليمي للمدرسين، وأداء الطلاب التعليمي، وتنظيم نتائج العملية التعليمية، وتبيان الإنجازات التي تحم العملية التعليمية في المدرسة.

ث- مجتمعي: أي يبني علاقة وطيدة مع الناس داخل وخارج المدرسة؛ بترويج ثقافة العمل الجماعي المتعاون، وإنشاء فرق عمل، وتعزيز ثقافة توزيع العمل بين العاملين،

وإنشاء علاقات جيدة وبناءة مع أولياء الأمور، وممثلي مديريات ووزارات التربية والتعليم، وممثلي الوكالات والشركات والمنظمات الخاصة لما في ذلك من فوائد مباشر وغير مباشر لمكونات العملية التعليمية.

خلاصة

من خلال ما ذكرنا أعلاه تبين لدينا أن الوضع الحالي في معظم البلاد العربية للمؤسسة التعليمية كمكون أساسي من مكونات العملية التعليمية بحاجة لإعادة نظر في مفهومها، ودورها في تعزيز ونجاح العملية التعليمية.

ليست المؤسسة التعليمية متحفاً لعرض الموارد التعليمية والأجهزة الإلكترونية، وليست سجناً لمعاقبة أو لتأديب الطلاب، وليست شركة عمل هم القائمين عليها الكسب والربح المادي، وإنما هي صرح أكاديمي هدفه بناء شخصية طلابية تقوم على عقيدة التوحيد، وحرية التفكير والإبداع، والتحليل النقدي البناء، والشعور بالمسؤولية، ليكون عنصراً عاملاً وفعالاً في بناء مجتمع إسلامي متحضر.

وحتى تنجح المؤسسة في لعب دورها في العملية التعليمية، ينبغي على القائمين عليها أن يكونوا أهلاً لها، فلا بدّ لمدير المؤسسة أن يكون متقياً لله في عمله وتعامله مع الآخرين، وموهباً علمياً، وأن يكون قيادياً ومريباً ومرشداً ومُعَلِّماً يعمل على تحرير طلابه من التبعية والروتينية في التعلم، ويفتح لهم أبواب جديدة في كيفية التعلم الذاتي المستقل، وحرية التفكير والإبداع، والعمل الجاد الفعال.

المدرسة ليست تحضير الطلاب للحياة العملية فقط، بل هي الحياة نفسها حيث يختبر الطلاب قدراتهم العلمية والعملية، ويتحررون من الاتكالية والروتينية في تعلمهم ليصبحوا طلاباً أحراراً في تفكيرهم، ودراساتهم، وتطلعاتهم المستقبلية.

إدارة المدرسة المميّزة في شكلها ومضمونها هي التي تؤمّن بيئة جذابة حيث يسود فيها الترحيب والاحترام للطلاب وأولياء الأمور، والعدل والمساواة بين الطُّلاب والمدرسين والإداريّين، والموعظة والحكمة في تعاملها مع القضايا التَّعليميّة المتعلقة بكافة العناصر التَّعليميّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

أهمّ المراجع والمصادر المعتمدة في الكتاب

- القرآن الكريم
- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- إغاثة اللسهان من مصائد الشيطان، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- أحبار الأذكياء، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الغدادي الشهير بـ ابن الجوزي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008م.
- أحبار الحمقى والمُغفلين، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي الشهير بـ ابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2006م.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر 2002م.
- الداء والدواء، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، مكتبة ابن القيم والدار الدمشقية، دمشق، الطبعة الأولى 2004م.
- الحسن والحسين سيدنا شباب أهل الجنة، محمد رضا، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.
- العقيد الفريد، الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- المُستطرف في كل فنٍ مُستطرف، بهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبهسي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.
- الموطأ، الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.

- المَلَلُ والنُّحْلُ، أبي الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- الفوائد، الإمام ابن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- الفروسية، الإمام ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة.
- المصباح المنير في تهذيب ابن كثير، الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، 2000م.
- الآداب الشرعية، للإمام الفقيه المحدث أبي عبد الله مُحَمَّد بن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.
- الرسول المَعْلَم ﷺ وأَسَالِيهِ فِي التَّعَلُّيمِ، عبد الفتاح لأبي غدة، المكتبة الغفورية العاصمية، باكستان، 1416 هـ
- النبي الكريم ﷺ مُعَلِّمًا، أ.د. فضل إلهي، مكتبة بيت السلام، الرياض، 2003م.
- الرسول ﷺ والعلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م.
- السيرة النبوية، الدكتور علي مُحَمَّد الصلاحي، دار المعرفة، بيروت، 2006م.
- السلسلة الصحيحة، مُحَمَّد ناصر الدِّين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 1996م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء : 15
- الجامع لأحلاق الراوي وآداب السامع، للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 2007م.
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشذذ الذاهن والهائجس، الامام حافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبد البر التَّمَرِي القرطبي الأندلسي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2008م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المثان، العلامة الشّيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي- الرياض، دار المغني ودار ابن حزم - بيروت، 1999م.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمُتَعَلَّم، الشّيخ الإمام بدرالدّين محمّد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ الحموي الشافعي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثانية 2005م.
- تقويد العلم، للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.
- تحفة الذاكرين، شرح الإمام محمّد بن علي الشوكاني، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- تغليق التعليق على صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني 858هـ، تحقيق سعيد القزقي، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، 1405 هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمقرئ، الزبيدي، الناشر دار الهداية، عدد الأجزاء / 40.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، سنة الولادة 773 / سنة الوفاة 852، تحقيق محمد عوامة، الناشر دار الرشيد، سوريا، 1986.
- التعليقات الحسان، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجّاحي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م
- جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008 م.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، الامام حافظ المغرب أبي عمر يوسف ابن عبد البرّ النمري القرطبي الأندلسي، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- حياة الصحابة، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- ديوان الإمام الشافعي، الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- رائق الشهد من شعر الدعوة والرقائق والزهد والإسلاماء، الدكتور سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، الطبعة الأولى، 2001م.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، الإمام أبي حاتم محمد بن حبان البستي، المكتبة، العصرية، بيروت، 2005 م.
- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة 2001م
- سنن أبي داوود، الإمام الحافظ المتقن أبي داوود سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- سنن ابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى
- سنن النسائي، الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي، المكتبة العصرية، بيروت، 2010م.
- سنن الترمذي، الجامع الصحيح لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
- سنن الدارمي، الإمام أبي محمد عبد الله بن براهيم الدارمي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008م.
- شرح المعلقات السبع، للحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.

- صيد الخاطر، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي الشهير بابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية 1999م.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الدليل الأثرية للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 2007م.
- صحيح البخاري، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، الرياض، 1998م.
- صحيح مسلم، الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998م.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 2000م.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1988م.
- ضعيف الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 2000م.
- فضل العلم وآداب طلبه وطرق تحصيله وجمعه، أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان، دار الفرقان، دار أضواء السلف، القاهرة، 2008م.
- كتاب عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- كتاب العلم، محمد بن صالح العثيمين، دار الغد الجديد للنشر والتوزيع
- كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي السهران فوري (المتوفى: 975هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م.

- مفتاح دار السعادة ونشور ولاية أهل العلم والإرادة، الإمام ابن قيم الجوزية، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية، مكتبة دار البيان، الطبعة الثانية 2007م.
- معجم السمنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى 2000م.
- منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة طبعة جديدة، 1415 - 1995.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق / مجمع اللغة العربية عدد الأجزاء / 2.
- مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1985م.
- مكارم الأخلاق، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- مقدمة ابن خلدون، العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الجبل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 2005م.
- مسند الإمام أحمد، للمكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1993م.
- مهارات الاتصال وأثرها في حياتنا العلمية والعملية، د. أحمد مصطفى حليلة، دار ابن كثير / مؤسسة علوم القرآن، الشارقة، 2005م.
- معايير لتفويج جودة التعليم لدى المُدرّسين في الجامعات والمعاهد العليا، د. أحمد مصطفى حليلة، دار البيارق، بيروت، 1997م.

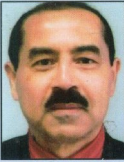
- هكذا علمتني الحياة، د. مصطفى السباعي، دار الورّاق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1990م.

المراجع الأجنبية

- Gibbs, G (1992) *Improving the Quality of Student Learning*, Oxford Centre for Staff Development.
- Race Phil (2001) *The Lecturer's Toolkit*, Kogan Page Limited, second edition.
- Richards & Lockhart (1994) *Reflective Teaching in Second Language Classroom*, Cambridge University Press
- Richards & Rodgers (1986) *Approaches and Methods in Language Teaching*, Cambridge University Press
- Paul & Elder (2001) *Critical Thinking: Tools for Taking Charge of your Learning and Your Life*, Prentice Hall, USA
- 'Pamphlet' (2010) *Professional Standards for Principals*, Abu Dhabi Education Council, Abu Dhabi
- Wright, T (1987) *Roles of Teachers & Learners*, Oxford University Press.

جودة العملية التعليمية

آفاق جديدة لتعليم معاصر



هذا الكتاب

العقل.. التفكير النقدي.. العلم.. المعلم.. الطالب.. المادة العلمية.. المؤسسة التعليمية.. كل هذه المكونات، كانت مدار البحث لدى الدكتور أحمد مصطفى حليلة في هذا الكتاب: "جودة العملية التعليمية: آفاق جديدة لتعليم معاصر".

ولقد كان له من ثقافته الإسلامية، ودراسه في الجامعات البريطانية، وتواصله معها، وتدريبه في الجامعات العربية.. كل هذا، كان له رافداً في طبيعة، وفي عمق، وفي سعة تناوله لهذه المكونات، فجاءت تنهل من معين ثقافتنا العربية الإسلامية الثرة في المضامين الفكرية والثقافية والعقدية، وتأخذ من النظريات الغربية الحديثة التقنية التعليمية والخطط التنظيمية، فكان مزيجاً معاصراً وتراثياً، في وحدة متكاملة، ونسق متميز.

وفي هذه العجالة، نحب أن نلفت الانتباه إلى الجهد المصاحب في الحواشي، فقد عرّف بعشرات الشخصيات، واهتم بتاريخ وفاتها، لما له من أهمية في التاريخ الفكري، ومرجعية هذه الأفكار. كما شمل اهتمامه، المصطلحات، والشروح اللغوية، والنظرات المتنوعة، في شتى المجالات التاريخية والحضارية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

وكل هذا لإغناء البحث، بخلفيات إضافية، تُوسّع، وتُغني، وتعمّق صلته بالبحث.

أما عن قراءة هذا البحث.. فكل من كان في موطن التعليم والتعلم والتدريس، والإشراف التربوي.. وأولياء الأمور.. وكل من كان على صلة بالتوجيه العام.

Dar Majdalawi Pub.& Dis

Telefax : 5349497 - 5349499

P.O.Box : 1758 Code 11941

Amman - Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

ص ب : ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١

عمان - الأردن

www.majdalawibooks.com

E-mail: customer@majdalawibooks.com

Design By Majdalawi



Bibliotheca Alexandrina

1503993